

تاريخ أبوبسكا

مليف
دكتور زاهر رياض
معهد الدراسات الأمريكية
جامعة القاهرة

١٩٦٦

مسار الطبع والسر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد سعيد - القاهرة

« ونام سليمان فرأى في الحلم شمساً ساطعة ظهرت
في السماء وسارت حتى وصلت إلى إتيوبيا واستقرت
هناك . فسبب له هذا الحلم اضطراباً كبيراً » .

[من قصة زيارة ملكة سبأ لسليمان]

مقدمة

منذ أن سلطت الأضواء على قارة أفريقيا ، بسبب ما ظهر بها من الحركات التحررية، ظهرت باللغة العربية عدة كتب عن دول أفريقيا الناشئة ، ولم يظهر بينها كتاب عن إتيوبيا بالرغم مما يربطها بمصر من الصلات التي تعود إلى أيام ما قبل التاريخ. وإن كانت أقدم الوثائق والنقوش تعود بها إلى حملة الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت لحمل الخشب والبخور اللازمين للمعابد المصرية . وإذا كان هناك من المؤرخين من يذكر أن بلاد بونت إنما هي الشاطئ الشرقي للقارة الأفريقية أو بلاد اليمن، إلا أن أغلب المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد أنها بلاد الصومال أو ما وراء الساحل الأفريقي من هضبة عالية، كانت تنتج هذه المواد التي اشتدت، مصر في طلبها. وبالرغم من هذه العلاقات الدينية التي تربط شعبي مصر وإتيوبيا منذ القرن الرابع الميلادي حتى وقتنا هذا دون توقف أو انقطاع . ولذا كان لزاماً علينا نحن المشتغلين بالدراسات الإفريقية أن نغني بسد هذا النقص، لا سيما وصلتي بهذه البلاد تعود إلى بدء الثلاثينات حين اتجهت إليها للعمل بمدارسها الثانوية . وشاء الله أن تتجدد صلتى بها، حين ذهبت إليها للمرة الثانية خلال الحرب العالمية الثانية لإقامة ما تهدم من نظام تعليمي خلال الاحتلال الإيطالي الأسود، وحين اهتمت بدراسة اللغة الإتيوبية كما اهتمت بدراسة تاريخ هذه البلاد فخالجتنى فكرة وضع تاريخ لها . ولكن كتابة تاريخ شامل لدولة ما - لا سيما وتاريخها يتوغل عميقاً في التاريخ - لا تقوم به إلا عصابة من الباحثين يبدأون على العمل المتواصل فلم أجد مندوحة عن أن أكتفي بهذا الموجز الذي يصور إلى حد ما صورة متكاملة لحقبات من تاريخ هذه البلاد .

وإني لأمل أن يكون كتابي هذا قد سد نقصاً كان موجوداً في المكتبة العربية . كما أرجو أن تتاح لي فرصة قريبة أتمكن فيها من نشر كتب تتناول بالتفصيل بعض جوانب التاريخ الإثيوبي والله ولي التوفيق .

دكتور زاهر رياصه

مصر الجديدة في ١٠ / ٥ / ١٩٦٦

الفصل الأول

البلاد وسكانها

إتيوبيا هضبة مرتفعة مستديرة الشكل تحيط بها أراض منخفضة من جميع الجهات . فهي تطل من الشمال والغرب على سهول السودان ، ومن الجنوب على هضبة كينيا القليلة الارتفاع ، أما من الشرق فيفصلها عن البحر الأحمر والمحيط الهندي صحراء الدناكل والأوجادين . وقد أتاحت لها أترتيا التي أتحدت معها اتحاداً فيدراليا منذ سنة ١٩٥٢ وقاما في سنة ١٩٦٠ أن تطل على البحر عمينائين هما عصب ومصوع بينهما يفصلها عنه في الجنوب الصومال الفرنسي فجهورية الصومال (الصومال البريطاني والإيطالي سابقاً)

وهضبة إتيوبيا أعلى هضاب أفريقيا . وجبالها من أعلى جبال أفريقيا . ويتراوح ارتفاعها بين ألفين وثلاثة آلاف متر ولكن ترتفع بعض قممها إلى قرابة خمسة آلاف متر مثل قمة داشان في إقليم سمن وجبل تشوكي في جودجام . وبعض الجبال مخروطية الشكل شديد الانحدار صعب المرتقى ، إذا كان مكوناً من صخور نارية بركانية الأصل . أما إذا كانت من الخرسان فجوانبها منحدرية انحداراً تدريجياً .

وتتخلل القمم العالية هضاب متسعة مستوية السطح كما هو الحال في جودجام وشواوكافا وأروسي ولا يزيد ارتفاع الهضبة المستوية في العادة عن ثلاثة آلاف متر ولذا بدت القمم العالية وسط هذه الهضاب المنخفضة نسبياً كالجزر وسط

الحيطات . وتتخلل هذه الهضاب، الأودية العميقة التي حفرتها الأنهار المنحدرة وهي أودية كبيرة الغور . تبدو على السطح متسعة نوعاً ما . ولكنها تأخذ في الضيق التدريجي كلما اتجهت نحو القاع . ويصل عمقها كما هو الحال في أغلب أجزاء النيل الأزرق (أبابى) إلى ألف متر . ومعظم صخور الهضبة من البازلت وهي التي كونت - على مدى العصور الطويلة - تربة مصر الخصيبة . وانحدار الهضبة العام نحو الشمال والغرب .

ويشق الهضبة من الجنوب إلى الشرق الفرع الشرقى من الأخدود الإفريقى وتقع فيه مجموعة من البحيرات أكبرها بحيرة رودلف وهي أولها وتنتهى ببجيرة زوى التي تقع جنوبى أديس أبابا بقليل ويحتل نهر أوأش بقية الأخدود من ناحية الشرق .

وتحتل بحيرة طانا مساحة قليلة في وسط الهضبة، وهي مثلثة الشكل قاعدتها إلى الشمال ، وتنحدر إليها مجموعة كبيرة من الأنهار الصغيرة تحمل إليها أمطار الجبال العالية التي تحيط بها وأكبرها نهر تنش أبابى (أبابى الصغير) الذى يصل إليها من هضبة جودجام ليصب في ركنها الجنوبي الغربى فتكون منها مخزن للمياه يمد النيل الأزرق بالمياه طول العام . ويبلغ ارتفاع مستوى هذه البحيرة ١٨٤٠ متراً فوق سطح البحر ومساحتها ٣٠٦٠ كيلو متراً مربعاً . وتقع بين الجبال العالية التي تحيط بها وسواحل البحيرة سهول متسعة نوعاً . أكبرها سهل دمبية الذى يقع في شمالها ، وسهل فوجارا الذى يقع شرقها . وعلى مشارف الجبال التي تحيط بها بنى الأهالى بعض مدهم الحصينة مثل جوندرا التي تقع شمال البحيرة بقليل والتي كانت عاصمة للبلاد خلال العصور الوسطى ، ودبراتا بور في الشرق منها .

ويجرى في الهضبة كثير من الأنهار أهمها أربعة هي :

١ - النيل الأزرق (ابای) الذى يخرج من الطرف الجنوبى لبحيرة طانانمخف به برك ومستنقعات تكثر على الضفة الغربية حنوى دارا جورجيس ويرسم الهردائرة كبيرة تحيط بهضبة جودجام من الشرق والجنوب. فتتحد إليه خلال هذا الجزء مئات من السيالات المائية والجداول اتية من هضبة جودجام لتتصل به من ناحية اليمين أو من الجبال الشرقية لتتصل به من ناحية اليسار حاملة إليه كميات هائلة ، من المياه والغرين ليحملها ويتجه بها إلى ناحية الشمال الغربى حتى يتصل بالنيل الأبيض عند الخرطوم . وفى سهول السودان يتصل به فرعاره ودندر وهما أكبر فروعه وينبعان من الطرف الشمالى لهضبة جودجام غربى بحير طانا بقليل . وتعترض النهر خلال سيره فى الهضبة مجموعة من الشلالات التى تسقط عليها المياه بعنف فيسمع له صوت كالرعد وينثر منها الماء فيرتفع إلى أعمدة عالية تشبه الدخان فيسميها الأهالى (تيص واهأ) أى الماء الذى يشبه الدخان (انظر شكل ١) والنيل الأزرق بوجه عام نهر جبلى شديد الانحدار فى كل مجراه .

٢ - أومو الذى ينبع من هضبة كافا فى الجنوب الغربى . ويتجه إلى الجنوب فى مجرى قليل الالتواء ، حتى يصب فى الطرف الشمالى لبحيرة رودلف التى تقع فى قاع الأخدود الإفريقى . والتى تشترك فى شواطئها ثلاث دول هى إتيوبيا وأوغندا وكينيا . والمنابع العليا لهذا النهر تقترب كثيراً من منابع نهر الداديسا الذى يتصل بالنيل الأزرق من ناحية اليسار ، وكذلك بالمنابع العليا لنهر أكاكى الذى هو فى الواقع أصل نهر أوأش . ومعظم ما يتصل بهذا النهر من حداول يتصل به من شاطئه الأيمن آنيا من هضبة كافا ومجرى هذا النهر متسع بوجه عام كما أنه قليل الانحدار نسبياً .

٣ - وبى شبلى الذى ينبع بأكثر من عشرة منابع من الطرف الجنوبى الشرقى للهضبة الأتيوبية ويفصله عن بقية الهضبة الأخدود الإفريقى ويتجه إلى الجنوب الشرقى فى واد يبلغ طوله قرابة مائتين من الأميال حتى يدخل فى الصومال ومجراه خصوصاً فى أجزائه العليا — عميق ضيق وإن كان لا يبلغ فى عمقه مجرى

الابأى . وإذا ما اقترب من شاطئ المحيط الهندي حال دون وصوله إليه كشبان رملية قليلة الارتفاع وانحدر فجأة نحو الجنوب . وساعدت الحرارة الشديدة التي تسود تلك الأنحاء أغلب أيام السنة على تبخر مائه .

٤ - أواس . الذى ينبع بمجموعة كبيرة جداً من الجداول العميقة التي تنحدر من الحواف الغربية لهضبة شوا، وهى التي تطل على الأخدود الإفريقى . وهو خلال فصل المطر يحمل كميات هائلة من الماء الحمل بالفرين ليلقى بها فى قاع الأخدود فتكون بحيرة كبيرة . ويسمى النهر حتى هذا الجزء بنهر أكاكى ثم تنحدر هذه المياه نحو الشرق متتبعة مجرى الأخدود الشرقى فى مجرى سرعان ماتظهر ملامحه ويحمل اسماً جديداً هو نهر أواس الذى يتميز بمجره العميق المتسع، ثم يتجه آحاه شمالياً شرقياً متبعاً اتجاه الأخدود . وينحدر مع الهضبة حتى يدخل فى صحراء الدنا كل قهتداً سرعته ويتسع مجراه فىساعد ذلك، مع شدة الحرارة السائدة هناك أغلب أيام السنة، على تبخر مائه دون الوصول إلى البحر .

أما فى خلال فصل الجفاف فلا يعدو مجرى هذين النهرين أخدوداً صخرياً عميقاً جافاً، تتخلل قاعه بحيرات متتوالية ماؤها راكد، تفصلها كتل هائلة من الصخور الكبيرة الحجم المستديرة الشكل الناعمة الملمس، أما ناحية المصب فهو خور متسع رملى الجوانب والقاع تنخاله المسابيل الحافة التي تنبىء عن مسير الماء خلال الفصل المطير .

ويوجد عدا ذلك المنايع العليا لنهر العطيرة، وهى تقع فى مكانين أحدهما شمالى بحيرة طانا فى إقليم حوندار ويسمى نهر السلام ، والآخر شرقى البحيرة ويسمى تكازو، ويسمونه فى السودان ستيت . وهو رسم شكل Z قبل أن يتصل بنهر السلام ليكونا معاً نهر العطيرة خارج حدود إثيوبيا . وكذلك توجد المنايع العليا لنهر السوبات وهى فى الجنوب الغربى من الهضبة فى مكانين أيضاً أحدهما شمالى هضبة كافا ويسمى بارى، ومنايعه العليا قريبة من منابع أومو وداديسا، والآخر

جنوبى الهضبة وشمال بحيرة رودلف بقليل ويسمى اكوبو ، وهما يلتقيان معاً خارج حدود إتيوبيا أيضاً ليكونا نهر السوبات . وهذه الروافد وإن كانت تحمل كمية كبيرة من المياه خلال فصل المطر تعتبر با كورة الفيضان إلا إنها خلال فصل الجفاف لا تعدو مسيلاً بطيئاً قليل الماء وجوانب المنابع الإنيوية مرتفعة شديدة الانحدار كما أن معرفة الجغرافيين بتخطيط النهر وروافده غير دقيقة .

وتنحصر الهضبة بين خطى العرض ١٨ و ٤ شمالاً فهو إقليم حار ولكن تأثير الإرتفاع واضح كل الوضوح في تلطيف درجة الحرارة . وقد اختلف المناخ في أجزاء الهضبة إختلافاً كبيراً باختلاف الارتفاع فبينما نجد الأودية العميقة والمنخفضات الشرقية تشتد فيها الحرارة ويقل هبوب الرياح فيكون مناخها مدارياً قاسياً في حرارته ورطوبته، فلا يرتاح الأهالى إلى سكناها ويسمونهم القلا، نجد الأقطار المرتفعة والشاهقة الارتفاع يكسو بعضها الجليد على الدوام، فنراها قطبي وبردها شديد وهى التى يدعوها أهل البلاد بالديجا . على أن أكثر هضبة إتيوبيا متوسط الإرتفاع كما ذكرنا . يتراوح ارتفاعها بين ١٧٠٠ و ٢٤٠٠ متراً ولذا كانت معتدلة الحرارة طول العام صالحة، لحياة الأوروبيين وهذه المنطقة هى أكثر مناطق إتيوبيا ازدحاماً بالسكان . ويسمى الأهالى واينا ديجا أى الإقليم الصالح لزراعة الكروم . وتتذبذب درجة الحرارة في هذه المنطقة بين ١٨ و ٢٥ مئوية إلا خلال فصل المطر من يونيو إلى أغسطس حين تهبط درجة الحرارة بسبب كثرة الغيوم، فتتذبذب بين ١٣ و ٢٣ مئوية على أن أهم ما يلاحظ هو الاختلاف بين درجتى الحرارة نهاراً وليلاً . وخصوصاً في فصل الجفاف . بينما ترتفع في النهار في الظل إلى ٢٢ درجة مئوية تنخفض ليلاً إلى ما دون الخمسة . وقد تصل إلى الصفر . ومن ذلك رى أنه ما من مكان آخر في العالم يتمتع بمثل هذا المناخ المعتدل لمدة تصل إلى ثمانية أشهر في السنة مثل ما تتمتع به إتيوبيا .

ويقول الجغرافيون أن ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة في إتيوبيا في فصل

الشتاء عنها في الصيف ظاهرة غير عادية لا يكفي في تقليلها جفاف هذا الفصل بالنسبة لوطوبة فصل الصيف، لأنها مازالت أعلا من الحرارة في أى إقليم آخر من وادى النيل يقع على نفس خط العرض . فلا بد أن يكون هناك سبب خاص لم يوضحه المينورولوجيون بعد .

وعاصمة البلاد الحالية هي أديس أبابا وهي مثال حسن لاعتدال الحرارة في الإقليم المسمى وايناديما وهي ترتفع عن سطح البحر بمقدار ٢٤٤٠ متراً .

والمطر غزير في أكثر أجزاء الهضبة ولكن ينحصر سقوطه في الأربعة أشهر الصيفية وهي يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر - ويسمونه هناك فصل الشتاء (كرمت) وأكثر الأشهر مطراً النصف الثانى من يوليو والعشرين يوماً الأولى من أغسطس . ونسبة ما يسقط من المطر في أشهر الصيف إلى ما يسقط منه في العام كله ٨٠ ٪ ، ومن الغريب أن المطر لا يبدأ هناك قليلاً ثم يزداد شيئاً فشيئاً، بل يبدأ غزيراً دفعة واحدة في تاريخ يكاد يكون محدد كل عام وهو العشرين من يونيو، ويظل غزيراً حتى منتصف يوليو ثم يعلو إلى القمة حتى العشرين من أغسطس، ثم يقل بشكل محسوس حتى الثالث والعشرين من سبتمبر حين ينعدم نهائياً .

على أن هناك فصل مطر قصير يمتد من أواخر فبراير حتى أواخر مارس، وفترة الجفاف التي تفصل بين الفصلين أظهر ما تكون في الشرق . ولكن قد يتأخر فصل المطر القصير في الغرب فيلتحم مع فصل المطر الكبير فيطول موسمه ويكون ذلك إيذاناً بفيضان عال .

ومن المألوف أن يكون الجو صحوً في الصباح ولكن يبدأ السحاب بالتجمع بعد الساعة العاشرة . وعند الظهر تكفهر السماء بالسحاب الكثيف الأسود ثم يسقط المطر غزيراً في الساعة الأولى أو الثانية بعد الظهر، ويظل حتى الصباح

واكن تخف حدته بعض الشيء أثناء النصف الثانى من الليل . ولا تصحب المطر أو تسبقه رياح عاصفة — كما هو الحال فى أوروبا — فاشتداد الريح هناك نادر .

وقد اختلفت المناطق النباتية فى إتيوبيا تبعاً لدرجة الحرارة والمطر . فنمت الغابات المعروفة بغابات الأروقة فى الجهات المنخفضة خصوصاً فى قاع الأخدود الإفريقى وأودية هضبة كافا . وأشجار هذه الغابات ليست عالية والجذوع غير متلاصقة . على أن القسم الأعظم تنمو فيه الحشائش فهو الظاهرة النباتية السائدة وإن اختلفت كثافتها باختلاف كمية ، المطر فهو يغزر حيث تشتد الحرارة ويغزر المطر وتتخلله أشجار السنط حتى لتكون غابات نكسو مساحات كبيرة ، وتطول الحشائش فتصل إلى المتر وتزهى فى فصل المطر . وما يليه . ثم يبدأ فى الاحتراق فى خلال شهر ديسمبر . أما الجهات الشرقية المنخفضة شديدة الحرارة بادرة المطر ، فصحراء تنتشر فيها الأعشاب الصحراوية وهى قصيرة ذات شوك .

فطبيعة البلاد الجبلية ومناخها المعتدل ومطرها الموسمى يجعل البلاد قايمة السكان بجميع البلاد الجبلية فى العالم ، وسرعة جريان الماء فى الأنهار وعمقها يجعل الأهالى لا يعتمدون عليها فى الزراعة . ولذا أصبحت الحرفة الأساسية التى تهيمها طبيعة البلاد للناس ، هى رعى الماشية على سفوح الجبال الخضراء لمدة طويلة فى السنة . ولذا كان دأبهم التنقل بالقطعان . والاستقرار هناك قليل لايدوم إلا ريثما ينزل المطر فيحل وقت بذر الحبوب . ولذا كانت الحياة الاجتماعية بدوية أكثر منها مستقرة فلم تقم بينهم المدن الكبرى فإذا استثنينا أكسوم وجوندار وهرر وبعض المدن الساحلية كزيبلى وعدول لا تجدد مدينة تستحق هذا الاسم بل ينتشر السكان فى تجمعات قليلة لا يعدو كل مركز منها بضع بيوت على جانبي

طريق ممتد ، وتكون هذه القرى عادة قرب عين ماء بعيداً عن الطرق الرئيسية المطروقة . وهى فى العادة على مرتفع من الأرض كي لاتتجمع فيها مياه الأمطار وتكون سريعة الجفاف ، ويحيط بالقرية فى العادة سور من النباتات الجافة أو الشوكية .

ولست هذه البيئة وحدها هى التى ترغب سكانها على احتراف الرعى كحرفة أساسية . بل هناك أيضاً البيئة الصحراوية ، إلا أن هاتين البيئتين تختلفان فى أن البيئة الأولى تجعل سكانها يشتغلون بالزراعة إلى جانب الرعى بينما تجعل البيئة الصحراوية سكانها يشتغلون بالتجارة . ولا يحترف التجارة فى البيئة الأولى إلا تجار أغراب إذا استطاعوا الوصول إليهم .

وليبيئة الرعى سواء كانت فى جهات جبلية أو صحراوية مميزات خاصة هى :

(أ) أنها لاتساعد على قيام حضارة .

(ب) تساعد على الاستقلال السياسى إذ لايطمع فيها أحد لفقرها .

(ح) أن لاتكون مصدر إشعاع ثقافى أو حضارى أى أنها تعلم من الغير ولا تعلم هى شيئاً . إلا إذا خرج أهلها من بيئتهم هذه كما حدث للعرب حين خرجوا من شبه الجزيرة .

(د) جهل العالم بتاريخ سكان هذه الأجزاء لعدم وجود وثائق أو آثار أو منشآت .

ولذا نجد الخطوط العريضة التى تحدد تاريخ إثيوبيا هى :

(١) أنها متخلقة عن جيرانها نسبياً .

(٢) مستقلة دائماً حيث لم يطمع فيها أحد سواء لصعوبة الوصول إليها أو لفقر مظاهرها .

(٣) خيرها في الخروج من عزلتها والاتصال بالخارج .

(٤) أغلب تاريخها مجهول لقلة مصادره .

وقد كانت البيوت - إلى عهد قريب - تبنى من الأعشاب الجافة والأغصان ،
تقام رأسية وتطلى بالطين ، وهي مستديرة ولها سقف هرمي من الأعشاب الجافة
أيضاً ويطلقون عليها اسم توكول . وهذا النوع من المنازل شائع في كل جهات
أفريقيا ، ويذكر لنا محمد بن عمر التونسي حين زار دارفور في بداية القرن التاسع
عشر أن منازلها كانت على مثل هذا الشكل ومادة البناء ، ويطلق عليها الأهالي اسم
توكولتي مما يجعلنا نفكر في وجود شيء كثير من العلاقة بين المجتمع الإتيوبي
والمجتمع في دارفور ، خصوصاً وأن هناك مظاهر اجتماعية أخرى مشتركة بينهما .
ومن الطبيعي أن تكون المنازل حجرة واحدة تتمثل فيها مسرحية الحياة
كلها ، وفي وسط هذه المجموعة وفي أعلى مكان فيها يوجد منزل الرئيس (شوما) وإلى
الغرب من القرية توجد المقبرة . وغالباً ما يكون في فناء كنيسة ، والإتيوبيون
يعملون طول فصل الجفاف في زراعة أرضهم أو رعى قطعانهم ولكن إذا حل
المطر حبسوا أنفسهم في منازلهم لا يبرحونها بعد أن يكونوا قد اختزنوا فيها
ما يلزمهم من مؤونة ، ولكن لا بد لهم من الرحلة اليومية - في فصل الحفاف -
إلى البئر لطلب الماء . والبئر عادة في وسط الوادي حيث الحقول التي يزرعوها بينما
يحتفظون بسفوح الجبل لأجل الرعى .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بنيت البيوت من هيكل خشبي يملأ ما بين
أجزائه بأعواد القصب ومطلية بالطين كما تعددت الغرف . وفي القرن العشرين
طلبت جدرانها بمختلف الألوان ، بل لصق عليها الورق المزخرف وفي الربع الأول
من هذا القرن بنيت الأبنية من الحجر وتعددت الطوابق ولكن في النصف
الثاني وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت العمارات ذات الطوابق الكثيرة تظهر
بسبب العدد الكبير من الأجانب الذي يتردد عليها .

ومن الطبيعي إزاء هذه الطبيعة الجبلية القاسية أن تكون المواصلات بين أحرار الحصة صعبة تقوم أكثر ما تقوم على الحيوان . والبغل هو الحيوان المفضل لديهم لهدوئه وصبره وشدة احتماله فهو يستعمل للركوب والحمل .

والأرض الزراعية حصة — والأرض بركانية التكوين كما قدمنا — وقد تعطى محصولين في السنة أحدهما في مايو عقب فصل المطر الصغير، والآخر في ديسمبر أو يناير عقب فصل المطر الكبير ، وأهم ما يزرعونه الطيف والدخن والذرة والقمح والتعير والثوفان والحمص . والأول هو مادة خبزهم ويسمونه أنجرة ولا يؤكل إلا طازجا . أما الحمص فغذاؤهم الأساسي في وقت الرحلة . كما يررع البن بكثرة في إقليم هرر ولكنه ينمو برياً في كافا وهو الذي أعطى الإقليم اسمه . كما يصلح مناخهم لزراعة الكروم والزيتون ولكن اقبالهم على زراعتهم قليل وكذلك الموز والخوخ .

وازهار الحشائش التي تنمو عقب فصل المطر مورد غذائي طيب لأسراب كبيرة من النحل . ويعتمد السكان على ما يحصلون عليه من عسل لغذائهم، وكذلك لعمل مستروبهم الوطني المفضل المسمى بالتدج وهم يستبدلونه بالماء لصعوبة الحصول على هذا الأخير وعندهم مثل قديم يقول «الماء للضفدع» .

ولديهم أيضاً زراعة متقدمة لبعض أنواع التوابل كالفلفل واللبان والسنامكي والقرمل وجوز الطيب وتستعمل في تجهيز الأدوية الوطنية .

وتشغل الغابات مساحات كبيرة من الأراضي قليلة الارتفاع غزيرة المطر . وأكثرها في جهتي كافاوولجا في الجنوب الغربي فيما بين أحواض السوباتوأومو وإاي . وتنمو بها أنواع كثيرة من الأشجار ذات الأخشاب المتعددة الألوان . وقد أجريت التجارب أخيراً لزراعة القطن والمطاط في الأجزاء الحارة ويقال أنه أتى بنتائج طيبة . وتعيش في هذه الغابات بعض الحيوانات المفترسة كالأسود

والتور والضباع والفيلة والذئباب والظباء والتيتل وكذلك نعيش هناك أعداد كبيرة من النعام .

وتعتمد التجارة الإتيوبية أكثر ما تعتمد على الجلود والبن والعسل وأضيف إليها القمح في الأيام الأخيرة . وكذلك سن الفيل وريش النعام . وكلها نتجمل الرحلة الشاقة والمسافة الطويلة، وقد كان نصيب أتيوبيا من التجارة العالمية ضئيلا بسبب صعوبة خروج المواد التجارية إلى الخارج، ولكن إقبال الولايات المتحدة الأمريكية على شراء البن جعل منه مادة عالمية .

وإلى بداية القرن التاسع عشر كانت القوافل البرية هي طريق اتصالها بالخارج، ونأتى من أحد الموانئ التي تطل على البحر الأحمر أو عن طريق الشمال والغرب آتية من السودان . وفي بداية القرن العشرين مر بها أول خط حديدي وهو الذى يصل ثفرجيوتى بأديس أبابا وقد انشأته شركة فرنسية مجتازة به صحراء الدناكل الشاسعة الحارة إلى ديردوا التي تقع على أول مشارف الهضبة من تتجه ناحية الشرق ثم يصعد الهضبة إلى أوأش التي تقع على المهر المسمى بهذا الاسم حتى إذا عبر هذا النهر على جسر ضخم مرفع عن قاعه بأكثر من مائتى متر اتجه صوب أديس ابابا ، وقد تم الوصول إليها في سنة ١٩١٧ ويبلغ طول هذا الخط ٧٨٩ كيلوا متراً يقطعها القطار في ثلاثة أيام إذا سار نهارا فقط . أو يومين وليلة واحدة .

والإتيوبي منطوع على نفسه لا يحب الاتصال بالغرباء، ولا تدخلهم في أوساطه وبنظر دائما إلى الأجني نظرة السك لأنه لا ينتظر منه إلا شرا . وليست هذه أخلاق الإتيوبيين وحدهم، بل يبدو أنها طبيعة جميع سكان هذا الركن من العالم . فشأنهم في ذلك شأن أهل اليمن والحصارمة . رغم اشتغال الأخيرين بالتجارة وجوبهم البحار الجنوبية منذ أقدم الأزمنة ، يحملون تجارة البلاد التي تحيط بهم إلى مختلف البلاد . والإتيوبي لا يميل إلى احتراف التجارة ولذا كان (٢٠ - تاريخ إتيوبيا)

العرب هم أغلب من يزاولها بأسيويا ويسميهـم الإتيوبيون نجادي التي أصبحت علماً على كل عربى وقد انضم إليهم حديثاً بعض اليونانيين . أما الأرمن فاقصروا على بعض تجارة القطاعى فى المدن الكبيرة وبعض القرى .

ولا يقصر الإتيوبيون فى مظاهر فرحهم فهم شعب مرح يحب الفناء ويكثر من الضرب على الآلات بينما يصفق الموجودون ويفنون .

وهذه هى إحدى أغنياتهم التى يترنمون بها فى أفراحهم وتغنيها إحدى المغنيات ، والباقيات يصفقن ويرددن المقطع الأخير .

سألت عنه فى أنطوطو	كان فى أكاكى	قالولى كده
سألت عنه فى أكاكى	كان راح جارير	» » »
سألت عنه فى جارير	كان فى مندر	» » »
سألت عنه فى مندر	كان راح أواش	» » »
سألت عنه فى أواش	كان راح شرشر	» » »
سألت عنه فى شرشر	» » هرر	» » »
سألت عنه فى هرر	كان فى جيبوتى	» » »
سألت عنه فى جيبوتى	كان عدى البحر	» » »
بعثت له خمسين مرة	لكن ما عرفت مكانه	» » »
قعدت جنب النار أبكى	أبكى وأعيط	» » »
باين عليه اتجنن	حايلاقى فىن اللى زى	» » »

وهى تبين مطاردة الفتاة لصديقها الذى يعمى فى الحرب منها . وهى تسكاد تشبه الأغانى المصرية فى مطاردة الحبيب والتذلل له .

وليس أدل على حبهم للرقص من إباحته لرجال الدين أثناء بعض طقوسهم

على نحو لم تألفه أى طائفة من الطوائف المسيحية، وحجتهم فى ذلك أن داود النبى كان يرقص أمام المذبح على نغمات الزمار . وقد اتفق الرحالة الذين ذهبوا إلى إتيوبيا على أن الرقص الإتيوبى أبعد من أن يوصف بأنه إفريقى .

ولا يقتصد الإتيوبيون أيضاً فى مظاهر الحزن فى المناسبات التى توجب ذلك كالوفاة إذ يصحبها فى العادة الصياح والبكاء والندب والعديد . وكذلك خمش الوجوه وتمزيق الثياب وضرب الصدور ، ويخرج الرجال والنساء لتشجيع جنازة الميت والكل يصرخون ويضربون صدورهم بكفوفهم ضرباً متواصلاً مؤلماً . ويحلق النساء شعورهن ويلبسن اللباس الملونة .

وقد اتخذ الإتيوبيون جميع أدواتهم من يثنتهم فكراسيهم من جذوع الأشجار وموائدهم من القش المضفور ، وهى مستديرة ولها حافة عالية وغطاؤها هرمى الشكل وتوضع عليها الأنجرة ويلتف حولها أفراد الأسرة يقطعون أجزاءها ويفمسونها فى طبق من الوات موضوع فى الوسط .

ولا يميل الإتيوبيون إلى أكل الخضروات الطازجة بل يفضلون الجافة مطبوخة فى الصلصة ومعها البيض المسلوق واللحم بعد إضافة كميات كبيرة من الشطة ويطلقون عليها اسم وات وإذا أراد صاحب البيت إكرام ضيفه أجلسه إلى جانبه وقطع له الأنجرة بيده وأغمسها فى الوات وطواها على قطعة كبيرة من اللحم والبيض وألقاها فى فيه .

والإتيوبى محارب بطبعه ولعل مرد ذلك طبيعة بلاده الجبلية فهو ينتظر الغدر فى كل لحظة ولذا نشأ متقلداً سلاحه أينما سار ، فكلهم مستعد للحرب فى أى وقت . وإلى ما قبل سنة ١٩٣٥ كانت الزوجة تصحب زوجها فى الحرب مخافة أن يتركها فيقتنصها العدو فتصير له رقيقاً . ولذا كان يتفخم عدد الجيش بمن يصحبه من النساء والأولاد والخدم .

والإتيوبيون يكرهون الصناعة والصناع دغم احتياجهم لهم . وقد اشتهر الصناع بالحسدوهم يسمونه (بودا) وإذا مرض الإتيوبى جعل بفكر فيمن حسده من الصناع . وإذا ما نطق المريض باسم عامل ، يعتقد أنه حسده أخذ العامل من الدار إلى النار وقد يقتل إذا مات المريض .

وينظر الإتيوبيون إلى الزواج كرابطة مقدسة ، ويعجبون بعدم الطلاق . إلا أنهم يرون في الزواج عبثاً كبيراً خصوصاً في سن الشباب . ولذا يبدأ الإتيوبى حياته بزواج مدنى تحت إشراف الكهنة وفقاً لعرف بينهم له قوة القانون . وهو يبيح لهم الطلاق عند الرغبة أمام شاهدين ، على أن تقاسمه الزوجة أملاكه وهم لا يجمعون بين زوجتين وإن أكثر بعض أغنيائهم من البسرى .

وما زال التسرى جارياً بينهم وفقاً لعاداتهم الموروثة . وهو شىء أماته عليهم ظرو فهم الإجتماعية . فالزوجة لا تستطيع خدعة زوجها في ميدان القتال ، وقد يستمر غياب الزوج في الحرب فصلاً أوسنه أو أكثر . وإذا ما أراد الشاب الزوج اشترط في الزوجة أن لا تمت بصلة القرابة إلى الزوج حتى الدرجة السابعة ، ويتم الاتفاق على الزواج عادة بين الأباء . حتى إذا تم الاتفاق على الشؤون المالية عقدت الخطبة فالزواج . وعقد الخطبة لا يفصم ، وإلا تعرض المتسبب فيه للعرامة أو أى عقاب آخر . ويعاق العريس في رقبته خاتماً فضياً في خيط من حرير أزرق ، لمنع الحسد .

وإلى ما قبل الحرب الإتيوبية الإيطالية في سنة ١٩٣٥ كان رؤوسهم وقوادهم يلبسون — إذا ما خرجوا للحرب — ملابس خاصة من جلود الحيوانات كالأسد والنمر^(١) . ولكنهم الآن يرتدون الملابس الحربية العادية . التي لا تختلف عن ملابس جنود وقواد الدول الأخرى .

وتتبع اعيادهم من يئتهم . فيحنفلون بعيد الصليب في نهاية فصل المطر وفي

(١) أنظر مقال العرس والفروسية في ايبويا للؤاف بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة

ليتها يجمعون عصيا طويلة تبلغ الواحدة منها قرابة أربعة أمتار ويعملون منها حزمًا
نقف رأسية، وفي المساء يحرقونها فتزفع النار إلى أعلا . وفي العاصمة يقبل ممثلو
القبائل المختلفة من أجزاء البلاد حيث يستقبلهم الإمبراطور أو ممثله فيتبارون
في اللهب بالسيف والكر والفر وتمثيل القتال مفاخرين بأعمالهم وحروبهم
في حضرة الإمبراطور ويتوالى هؤلاء اللاعبون أثر بعضهم حتى ينتهى المساء في
مرح وسرور . كما يحتفلون بعيد الفطاس . حين يقوم كهنة الكنائس القرية
من العاصمة إليها ، من أجل تعميد تابوت المذبح في مواكب كبيرة تحف بهم
شمامسة الكنيسة في ملابسهم الكنسية المزخرفة ، ورجال القرية وبعض نساءها
وصبيانها يحملون الزهور والرياحين ويكتفى كهنة القرى البعيدة بحمل تابوت
الكنيسة والخروج به في موكب مع أهل القرية ؛ حيث يجري النهر فيقوم
بتعميده كما يقوم أهل القرية بال تبرك منهم .

وفي هذا العيد يحتفل المطران (والآن البطريرك جاثليق) بتعميد الإمبراطور
في مكان خارج العاصمة وإذا ما انسحب المطران والإمبراطور ظل الكهنة
يرقصون رقصهم الديني ويترنمون بألحانهم بقية اليوم .

ويلبس الرجال ملابس بيضاء من قطعتين إحداها بنطلون ضيق
يستر الفخذين والساقين، وينتهى عند العقب بصف طويل من الأزرار . وعليه
رداء طويل حتى الركبتين . ويلتفون (بالشما) حول أكتافهم . وهى قطعة من
الشاش الخام يبلغ طولها مترين . وتطرز حافتها بالرسوم الملونة وقد لاحظ محمد
بن عمر التونسي اتخاذ أهل وادى مثل هذه الشما ويستعملونها فيما يستعمله
الإثيوبيون . ويشكلونها أشكالاً خاصة في المناسبات المختلفة كما يفعل الإثيوبيون
تماماً . كما تلبس المرأة جلباباً واسعاً يشد عند الوسط بحزام عريض . وتصفف
نساء كل قبيلة شعورهن بأشكال خاصة بهن، على أن تقصير الشعر ذائع بين النساء

والرجال . أما الأولاد فيخلقون رؤوسهم بعد أن تترك في وسطها أجزاء طويلة ترتفع في أعلى في أشكال مختلفة .

والإتيوبي في حياته العادية هادئ لا يميل إلى الصخب والكلام بصوت مرتفع ، ولكنه يميل إلى أن يؤكد كلامه بالقسم مشفوعا بالإشارة وهو يقسم بالإمبراطور أو أبيه ونادراً ما يقسم بالله أو الملائكة . والقسم بالإمبراطور أشد أنواع القسم قوة ، والتحية عندهم الانحناء إلى الأرض أكثر من مرة . ولها عندهم تعبيرات كثيرة وقد يترجل الراكب عن بغلته ثم ينحنى مبالغاً في الاحترام . والقبلة شائعة بين الرجال والنساء . واللغة الأمهرية مؤدبة ليست فيها كلمات حوشية أو شتائم .

والطبيعة الجبلية أثر كبير في صوغ تاريخ إتيويا . فهي ككل البلاد الجبلية لا تساعد على قيام دولة متحدة ذات حكومة مركزية . فالجبال والقمم العالية تمنع اتصال سكان الوديان ببعضها ، وتكون حواجز لها أهميتها تحول دون امتداد سلطة الحكومة . وتساعد على استقلال سكان كل جزء بأنفسهم . ولذا عاشت إتيويا مقسمة بين عدة حكومات . حتى تجمد الحكومة القوية التي تستطيع بسط نفوذها على غيرها من الدويلات فتخضعها وتوحيدها . ولكن هذا الإخضاع وهذا التوحيد لا يستمران إلا باستمرار قوة الحكومة المركزية .. وضعف الدويلات . فوجدت بها البيوت المملوكة للمتعددة التي يخضع قواها ضعيفها ولكنه لا يستطيع سحقه . فنشأ بها نوع من الحكم أساسه خضوع التابع للمتبع . طالما يستطيع المتبع إخضاع التابع وحايته . وقد ترتب على هذا الخضوع سلسلة من الحقوق والواجبات المتبادلة بين التابع والمتبع . ولذا كان تاريخ إتيويا سلسلة من الحروب المستمرة بين الحكومات المختلفة . كل منها تريد إخضاع الأخرى لسلطانها . ورأس الحكومة أو الملك أو الرأس الذي ورث

الملك عن أبيه . وإذا مات ورثه ابنه الأكبر أو أقوى أبنائه دون تدخل من أحد حتى إذا كان خاضعاً لحكومة أخرى أقوى منه . وقد كونت كل أسرة حاكمة مع شعبها وحدة تميزت عن غيرها من الوحدات ولذا كانت القومية الصغيرة أو القبيلة هي أساس الحياة الاجتماعية والسياسية في إتيويا .

ولا نستطيع أن نسمى هذا النوع من الحكم إقطاعياً ، فالحكم الإقطاعي نشأ في أوروبا نتيجة لظروف خاصة .. وهي التجاء جمهور الفلاحين إلى صاحب القلعة لحمايتهم من الهجمات . فلبأ هذا بدوره إلى الملك ليتبادلا الخدمات .. ولذا كان من حق الملك عزل التابع متى أراد . وقد انتهى النظام الإقطاعي في أوروبا بانتهاء أسبابه ودواعيه . بينما بقي هذا النوع من الحياة في إتيويا ببقاء أسبابه واتصالها بالحياة الإتيوية نفسها .

ولكن منذ ابتداء القرن العشرين ، تمكن الإمبراطور من بسط سلطته على جمع أجزاء البلاد بفضل المواصلات السريعة ولذا ضعفت سلطة الملوك بل أصبح إلى جانبهم حكام للمقاطعات يحكمونها باسم الإمبراطور تعينهم السلطة المركزية . ويمثلون سلطة الحكومة بجميع مظاهرها ويشرفون على تنفيذ القانون الذي أصبح موحداً يصدر من السلطة المركزية في العاصمة ليسرى في جميع أنحاء البلاد . بل إزيلت الممالك القديمة واستبدل بها اثنتا عشرة مقاطعة إدارية ، يتبع حكامها وزارة الداخلية .

ولما كانت حدود إتيويا الشرقية امتدت في العصور القديمة حتى أطلت على البحر الأحمر ، فقد تأثرت إتيويا بحضارة وثقافة وأحداث جميع البلاد التي تطل على هذا البحر الضيق . فقامت بينها وبين هذه البلاد علاقات وطيدة .. فعن طريق هذا البحر أتت التجارة والدين والثقافة من مصر والدولة الرومانية الشرقية . كما عبر إليها التجار العرب وعبروا هم إلى شبه الجزيرة . فعبرت

المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية كما عبر الإسلام إلى إتيوييا . منذ أيامه الأولى .
كما امتدت حدود الدولة الإتيويية ذات يوم فشملت اليمن وحاولت ان تغزو
الحجاز فكانت بذلك الدولة الوحيدة — غير تركيا — التي حاولت تلك
المحاولة — كما تأثرت بالحضارة الفارسية حين امتدت حدود دولة فارس فشملت
اليمن . وأطلت على البحر الأحمر قبل ظهور الإسلام بقليل .

الفصل الثاني

إثيوبيا حتى ظهور الإسلام

إثيوبيا كثيرها من بلاد إفريقيا موطن العنصر الإفريقي . وأقبل عليهم العنصر الكوشي من الشمال والشمال الغربي . فأفسحوا لهم مكاناً في هذا الجزء من العالم وسكنوا الأجزاء المنخفضة وكانت أهم قبائل هذا العنصر هم الصومال .

وإذا ما تغيرت الأحوال المناخية في شبه الجزيرة العربية وأخذت الهجرات السامية تخرج منها إلى البلاد الغنية التي حولها . واتجهت إلى ما يسمى الآن بالهلل الخصب ، اتجهت هجرات سامية أخرى إلى إثيوبيا . وشجعها على هذا الاتجاه ضيق البحر الأحمر . وهدوء الملاحة فيه أغلب أيام السنة . فخرجت من جنوب الجزيرة العربية هجرات متتابعة . ويظهر أنها استمرت في دخول إثيوبيا عن طريقين ارتريا والصومال . وقد نفهم كيفية دخول هذه العناصر السامية على مر السنين من ملاحظة ما هو حادث الآن في إثيوبيا . فأهالي اليمن وحضرموت منتشرون في جميع البلاد الصغيرة والكبيرة يحترفون التجارة الصغيرة . وهذه ظاهرة يمكننا اعتبارها استمراراً لما حدث في الزمن القديم وكانت أقوى هذه القبائل القادمة واحدة تسمى حبشة هي التي أعطت البلاد اسمها الذي عرفها به العرب .

وقد كان هؤلاء القادمون أكثر ثقافة من السابقين وأرق منهم حضارة، فبينما كان الأولون على درجة كبيرة من البداوة، لا يحسنون من الزراعة إلا الزراعة البدائية بينما كان القادمون يمارسون الزراعة بدرجة متقدمة تتميز باستعمال الآلات، فلم

القادمون أهل البلاد هذه الزراعة المتقدمة . كما علموهم تخطيط الأرض وجعلها شرفات ترتفع على جوانب الجبال كما علموهم فن بناء المنازل . وكذلك بناء الخزانات من أجل الاستفادة من مياه الأمطار الموسمية .

وقد استطاع هؤلاء القادمون بفضل سلاحهم المتقدم؛ أن يكتبوا لأنفسهم السيادة على العناصر القديمة . وقد فضل هؤلاء سكنى الجهات المرتفعة وتركوا الوديان والجهات المنخفضة للسكان الأصليين يعيشون فيها كما كانوا يفعلون من قبل . وكون القادمون مملكة في الركن الشمالى الشرقى من الهضبة عرفت باسم مملكة اكسوم .

وتقول الأساطير الإثيوبية أن بيتهم المالك أقدم البيوت المالكة في العالم إذ يتسلسل من سليمان ملك بيت المقدس في القرن العاشر قبل الميلاد حين زارته ملكة سبأ وأنجبت منه إبناً هو منليك الأول رأس عائلتهم المالكة .

أما عن ملكة سبأ هذه وسبب زيارتها لسليمان . فللاثيوبيين في ذلك قصة يعتقدون في صحتها اعتقاداً لا يعتوره الشك ، وينظمها كتاب يطلقون عليه إسم (كبر انجست) أى تاريخ الملوك . يحفظونه لديهم في مدينتهم المقدسة اكسوم ولا يسمحون لأحد بالاطلاع عليه أو قراءته إلا إذا كان موضع ثقتهم (أنظر شكل ٤) .

كما أن هناك قصة أخرى لهذه الزيارة تتحد معها في أغلب أجزائها وتختلف معها في المقدمة لأبأس من إيرادها لما لها من الأثر في تاريخ أثيوبيا

كانت ما كيدا ملكة اثيوبيا تحكم الحبشة واليمن ، فترامى لهذه الملكة العظيمة صيت بعيد في جميع أنحاء العالم ، وكانت هذه الملكة واسعة الثروة والغنى ، تملك الكثير من الذهب والفضة والعدد الهائل من الجمال والعبيد ، سمعت عن ملك بيت المقدس سليمان بن داود الذى وهبه الله له المجد والحكمة فزرع الله في قلبها الرغبة في أن تذهب لتراه .

وتتلخص هذه القصة في أنه كانت هناك فتاة تعيش في إقليم تجرى اسمها (اتيحي ازب) أى ملكة الجنوب^(١). وكانت كشعبها تعبد الحية . وكان على كل واحد من أفراد الشعب أن يهب الثعبان ابنته الكبرى وكيات من الحمر واللبن كل عام ، في ميغامعين . فلما جاء دور والد الفتاة قيدها إلى شجرة خارج المدينة انتظاراً للحية . ولكنها استطاعت أن تقتل الثعبان وتخلص نفسها بل تخلص شعبها منه . وفي أثناء صراعها معه طارت نقطة من دمه وسقطت على قدمها فصيرته قدم حمار — وفي . رواية أخرى قدم غزاة — وعادت الفتاة إلى قومها فأنكروها . ولكنها قصت عليهم قصتها وأرثهم الثعبان ميتاً . ففرحوا بها وأقاموها ملكة عليهم وجعلوا فتاة أخرى رئيسة لحرسها .

وسمعت اتيحي بعد ذلك بمقدرة سليمان بن داود ملك بيت المقدس الطيبة كما سمعت بحكمته . فصممت على أن تسعى إليه . وقام بتجهيز الرحلة تاجر يسمى تامارين تمر الحنة أو ثمر الدين كان يتردد على سليمان ليبيعه مختلف عروض التجارة التي يحملها من البلاد التي يقصدها ومنها إتيويا .

وقامت قافلة كبيرة . وقد تنكرت الملكة ورئيسة حرسها في زي غلامين . وقصدتا إلى حيث يقيم سليمان . (لأن الله أراد أن تستمر مملكة داود إلى نهاية العالم . كما وعد الله داود أن نسله لن يفنى ومن ثمرته سيضع على العرش ماداموا يحافظون على اللوح والشريعة التي سأعلمها لهم . وسيجلس أبناؤه على العرش إلى الأبد) .

ووصلت الملكة وقافلتها إلى أورشليم ومازالت الملكة ورئيسة حرسها متفكرتين في زي الغلامين ، ولكن سليمان استطاع — بحيلة منه — أن يعرف

(١) أنظر كتاب قصة ملكة سبأ بين الاسطورة والتاريخ للمؤلف

حقيقتهم كما عرف أيضاً قصة قدمها دون أن يسألها . وهناك عادت قدمها — بقوة الله — قدماً طبيعياً كالأخرى . وفرحت الملكة بذلك فرحاً لا يوصف .

وبعد ذلك قدم لها سليمان كل فروض الإحترام وجعلها ورفيقتها وجنودها يقيمون بجوار قصره وهيكله الذى بناه . وكان يزورها كل يوم كما تزوره لتسمع وتعلم من حكمته . وكان سليمان محباً للنساء فإذا كثرت ردها عليه طلب منها أن تهيب نفسها، ولكنها رفضت وقالت له — لقد جئت لك وأنا عذراء فهل أعود إلى بلدى مسلوبة بكورتى لأحمل عار ذلك بين قوامى ؟ ، ولكنه ذكر لها أنه سيتزوجها كما يتزوج الملوك . وأنها ستكون ملكة ، ولكنها رفضت بل أخذت عليه عهداً أن لا يحاول اغتصابها ، ولكنه قال لها إذا حضرت إلى سرى ليلاً وأنا نائم فستكونين زوجتى ، وفقاً لقانون الملوك ، وكانت هى من جانبها مصممة على أن تحتفظ ببكورتها ولكن ما حدث كان بإرادة الله له المجد وأخذ سليمان يوالى إلقاء دروس الحكمة عليها وهى تبنى كل ذلك بفهم طيب .

وفى ذات ليلة جمع سليمان الطهارة وأمرهم أن يجهزوا طعاماً لسكل من بالقصر وأعطاهم كل ما هو شهى من التوابل النفاذة الرائحة . وامتلأ الطهارة لأمره . وعندما أكلت الملكة من هذه التوابل أ كثرت من طلب الماء وشربت منه كميات كبيرة ، ولكن ذلك لم يطفىء ظمأها . وفى الليل ، أعطى سليمان الأوامر سرّاً لمن بالقصر برفع الماء . وأن لا يعطوها شيئاً منه . وإلا كانوا عرضة للموت وإذا سألتهم عن مكانه أجابوها إنه بجوار سرير الملك . وفى منتصف الليل قامت الملكة تشكو العطش إذ شعرت بالحرارة فى جوفها بسبب ما أكلته من توابل ، وأمرت وصيفتها بصوت عال أن تأتى لها بالماء . ولكنها لم تستطع أن تقدمه لها ، مما جعلها تقوم لتبحث عنه بنفسها ، فأمرعت إلى حيث كان سليمان الذى كان متيقظاً ولكنه يتظاهر بالنوم وشربت الملكة كمية كبيرة من الماء لتطفىء

ظماًها . فاستعادت روحها وشعرت أن قوتها قد عادت إليها بعد أن كادت تموت عطشاً . وعندما أرادت الملكة أن تعود أدراجها قفز الملك إليها وأمسك بها ، وقال لها . الآن قد أصبحت زوجتي وفقاً لقانون الملوك . فتذكرت الملكة اتفاقها الذي كان بينهما ، فوهبته نفسها ، عن إرادة وحرية ، ولم يكتف سليمان بذلك . بل اضطلع مع وصيفتها أيضاً ، وأعطى كلاهما قطعة من الفضة وخاتماً ومرتأة ، وقال لهما إذا كان الولود بنتاً فلتحمل الفضة وتأتى إلى ، أما إذا كان ولداً فليحمل الخاتم . ثم عادت الضيفتان إلى بلدهما ، وأنجبت كل منهما ولداً .

ولم تقف القصة عند هذا الحد بل استرسلت وكان هناك غرض من وراء هذا الاسترسال . كما سيبدو ولما بلغ ابن الملكة مبلغ الرجال ، كان صحيح البدن قويا عاقلا حكيما كأييه ، ولم يلبث أن عرف قصة ولادته إذا كان دائماً السؤال عن أبيه لأنه يرى لكل الصبيان أباء إلا هو ، حتى إذا أعلمته أمه القصة ، تاقّت نفسه إلى رؤيته ، فشجعت أمه على هذه الرغبة ، وأمرت فجمع له من الجنود الهدايا ما هو لائق به وبأبيه ، وخرج يقصد أورشليم ومعه ابن المرأة الأخرى ولكن الأول كان قد حمل معه المرأة التي أعطاه أبوه لأمه ، بينما لم يفعل الثاني ذلك واكتفى بالخاتم .

وعندما اقتربا من أورشليم وسمع سليمان بمجيئتهما تنكر في زى خادم له وذهب إلى مكان آخر واختبأ فيه . وأمر بالولدين ليدخلا عليه فدخل ولد الوصيفة أولاً فاتجه إلى حيث الجالس على العرش وقبل يده ظناً منه أنه أبوه . بينما ظل ابن الملكة الذي كان يسمى ابن حكيم واقفاً بدون أن يقدم فروض الطاعة ، ولما نظر في المرأة التي أعطته أمه رأى ملامح الجالس على العرش تختلف تماماً عن ملامحه فعرف أنه ليس الملك . فاتجه إلى جميع الجهات وأخذ يبحث عنه فرأى سليمان ينظر إليه من فرجة باب قريب فمرقه لساعته ، واتجه إليه وقدم له فروض الطاعة فقال سليمان أهذا إبنى الحقيقي . مرحباً بك يا بني الحبيب أنت ابن داود .

ووضع تاج أبيه على رأسه وأطلق عليه اسم منليك وأجلسه على عرش داود أبيه.
وضرب أصحاب العبول طبولهم . ونفخ أصحاب الأبواق أبواقهم وصرخ
الواقفون قائلين هذا داود بن سليمان بن داود ملك إسرائيل .

وكان في الهيكل الذى بناه سليمان تابوت عهد الرب، وفي داخله لوحا الحجر
الذان كتب الله عليهما بأصابه . وعصا هارون . وكذلك لوح مانا، كان هذا
التابوت مغطى بصفائح من ذهب ملفوفا بلفائف من القطيفة مطرزة بخيوط الذهب .
وحدث أن ذهب منليك بن سليمان إلى الهيكل للصلاة ورأى التابوت وكيف
كان يرتفع عن الأرض بقوة خفية إذا ماصلى الكاهن، فصمم من معه على أن يحمله
إلى مملكته، ودعوا سرّاصاناً وكلّفوه أن يصنع لهم تابوتا خشبياً بنفس أبعاد
الصندوق الذى فيه التابوت وإذا ماتم عمله قتل العامل سرّاً كي لا يفشى سرهم.
وفي ليلة رحيلهم أخذوا خفّة من رجا لهم مزودين بالحرا ب إلى الهيكل وحلوا
التابوت وجعلوا الصندوق الذى صنعوه مكانه . وخرجوا ومعهم التابوت ولم يودع
منليك والده . وحدث كل ذلك بإرادة الله له الشكر كي يسكن التابوت المقدس إلى
الأبد في مملكة داود كما وعد الله داود أن يجلس نسله على العرش إلى الأبد) .

ولم يقبّل القوم في أورشليم ما حدث إلا بعد مدة . فذهب الكهنة إلى سليمان
الملك وكانوا يولولون من الحزن بسبب غياب التابوت من مكانه المقدس . واتهموا
الملك بأنه كان يعلم بأمر سرقة ولده للتابوت ، بل هو الذى أمره بأخذ التابوت
معه ، فبكى سليمان وأقسم لهم إنه لم يصرّح ولده بذلك ولم يودعه ولم يعلم شيئاً عن
سفره . وأسرع سليمان فأمر أن يرسل الجند خلف ولده يطاردونه ليستعيدوا
التابوت . فساروا أربعين يوماً . حيث رأوا نجاراً فسألوه ، فأجاب إنه رأى ملكاً
عظيماً وجنوداً كثيرين يسرون وأن الصندوق كان معهم . ولكنهم يسرون
كسحاب يدفعه ريح قوى . فعاد الجند يملأهم اليأس والحزن ولكن هذا الحزن

لم ينفعهم شيئاً . وبذلك أصبحت مملكة إتيوبيا تتبع عرش داود إلى الأبد واستقر الثابوت هناك .

وليس لهذه القصة أى سند تاريخى يمكن أن نعتمد عليه لنثق بصحتها، ولكنهم يقولون أن هذه الملكة هى ملكة الجنوب التى عناها الإنجيل حين قال فى الآية الثانية والأربعين من الإصحاح الثانى عشر من انجيل متى « وملكة الجنوب ستقوم مع هذا الجليل وتدينه لأنها أتت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان) وهى نفسها ملكة التيمن التى ذكرتها الآية الواحدة والثلاثون من الإصحاح الحادى عشر من انجيل لوقا « ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع رجال هذا الجليل وتدينهم لأنها أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان » .

وهى نفسها ملكة سبأ التى ذكر العهد القديم نبأ زيارتها لسليمان ملك بيت المقدس فى الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول « وسمعت ملكة سبأ بخبير سليمان لمجد الرب فأنت لتمتحنه فى مسائل كثيرة . فأنت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً .. إلخ » بل أن هذه الملكة لم تفعل أكثر مما كان يفعله كل رجال ونساء عصرها كما جاء فى الإصحاح الثانى عشر من نفس السفر (وكانت كل الأرض ملتمة وجه سليمان . لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه)

ومملكة الجنوب . أو ملكة التيمن التى ذكرت فى الإنجيل وملكة سبأ التى ذكرها العهد القديم كلها شخصية واحدة وهى نفسها ملكة سبأ التى ذكرها القرآن فى سورة النمل .

وإذا كانت سبأ إسمًا لمكان فى اليمن لافى إتيوبيا فقد كانت هذه الملكة تحكم كلا من إتيوبيا واليمن . وقد ظهر فى التاريخ الإتيوبى كثير من الملوك الذين حكموا هذين البلدين .

وقد اختلف موقف المؤرخين إزاء هذه القصة، فهناك من يقول أن القصة كلها

خرافة مخترعة في عصور متأخرة لمداهنة كبرياء الشعب الإتيوبي . من جهة ، وليسند أدعاء الأسرة المالكة في العرش الإتيوبي من جهة أخرى ، ويؤيد ذلك أن أكسوم التي تقول القصة ان منليك قد بناها ليحفظ فيها التابوت والألواح في القرن العاشر قبل الميلاد لم تنشأ قبل القرن الثاني الميلادي . فإن للتورخين الذين كتبوا عن هذا العصر مثل سترابو لم يأتوا لها بذكر .

ويقول آخرون أن هذه القصة إنما هي خليط من قصص كثيرة وأساطير كانت أجزاء كثيرة من بلاد إتيوبيا ترددها وتعتقد صحتها . وأن شخصا أو أشخاصا معينين أخذوا هذه القصص كلها وصاغوا منها قصة واحدة اتخذت شكلا خاصا لغرض خاص . ومن هؤلاء الأخيرين من يقول أن قصة كبرا نجست يعود إنشاؤها إلى القرن السادس الميلادي وإنها ربما تكون قد وضعت أولا بالقبطية بواسطة قس قبطي عاش في مصر وأكسوم أو أى جزء آخر من أجزاء إتيوبيا . وأنها ترجمت في عصور تالية إلى العربية . وأضيفت إليها أثناء الترجمة زيادات من مصادر عربية ثم ترجم هذا النص العربي فيما بعد إلى الحبشية . وفريق رابع يرى أن هذا التأليف النهائى وهذه الترجمة لم يبا إلا عقب ما يسمى بعودة الأسرة السلطانية إلى العرش في القرن الثالث عشر الميلادي وأن المؤلف أو المؤلفين للنص الحبشى قد أضافوا إلى الأصل المترجم بعض الإضافات ليعطوه أهمية لم تكن له .

نعود فنقول أن ملوك إتيوبيا والإتيوبيين جميعا يعتقدون اعتقادا لا يعتوره الشك في صحة هذه القصة ، كما يعتقدون أن يتهم المالك يتسلسل تسلسلا غير منقطع عن منليك الأول هذا ابن ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس ، ونرى هذا واضحا في المادة الثالثة من الدستور الإتيوبي الصادر في سنة ١٩٣١ التي تقول (أن حق الحكم الإمبراطوري في أسرة الإمبراطور هيلاسلاسى الأول ابن الملك سهلاسلاسى

الذى يحدر نسبه بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن سليمان ملك بيت المقدس وملكة إتيوبيا المعروفة باسم (ملكة سبأ).

وقد أعيد صياغة هذه المادة في الدستور الجديد الذى صدر فى سنة ١٩٥٥ فنصت مادته الثانية على أن (يظل العرش بصفة دائمة محصورا فى نسل هيلاسلاسى الأول المتسلسل من الملك سهلاسلاسى الذى هو بدون توقف من نسل أسرة منليك الأول ابن ملكة إتيوبيا ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس) ويكاد النصان يتفقان كما رأينا^(١).

ونحن وإن سلمنا جدلا بصفة قصة الزيارة وأن هذه الملكة قد أنجبت فعلا إبنا من سليمان هو منليك هذا . فلكى نسل بأن ملوك اتيوبيا الحاليين هم من نسل منليك الأول يجب أن نتأكد من :

(١) أن التى قامت بزيارة سليمان ملك بيت المقدس فى القرن العاشر قبل الميلاد كانت ، ملكة على إتيوبيا وتحكم كلا من سبأ وأكسوم لاملكة لليمن فقط .
(٢) أن نسل هذه الملكة هو الذى حكم دولة اكسوم القديمة بدون انقطاع حتى القرن العاشر الميلادى . حين طردها أسرة أجوا .

(٣) أن الأسرة التى جلست على العرش فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن طردت أسرة أجوا هى نفس الأسرة القديمة . التى كانت تحكم أكسوم قبل أن تطردها أسرة أجوا لثلاثة قرون .

وهذه الأمور كلها لم نعتز بعد على وثائق أو رسوم أو نقوش تؤكد لنا .
ومن اليسير علينا أن نعرف الأسباب الحقيقية لاهتمام ملوك إتيوبيا بتأكيد

(١) أنظر (الدستور الاثيوبى) للمؤلف

صحة هذه القصة . وصحة تسلسلهم من منليك الأول ابن ملكة سبأ فاعتقاد الإتيوبيين أن ملكهم من نسل داود يجعله قريباً للمسيح وليس فوق ذلك فخر لهم، كما جعل الإتيوبيين يعتقدون أيضاً أن أسرته المملكة لا تستند على حق شرعى نحسب بل إلى حق إلهى يجعل التفكير فى الثورة عليها نوعاً من الكفر ، لا يمرؤ عليه إتيوبى مهما كان تفكيره . وأخيراً جاء التفاف الإتيوبيين حول أسرته المملكة وإيمانهم بسلطانها المطلقة النتيجة الطبيعية لإيمانهم بصحة هذه القصة .

* * *

ويعضى كبرا بجست فيعدد لنا أسماء الملوك الذين توارثوا عرش أكسوم بعد منليك الأول فيذكر لنا خمسة وعشرين اسماً آخرها الملك Bazan الذى يقولون عنه أن المسيح ولد فى أيامه . ويسود الشك جميع هذه الأسماء . كما يسود كل من قبل Bazan، مادام ليس هناك أى دليل تاريخى يؤيد هذه الأسماء أو حتى واحداً منها، كما أن حكم خمسة وعشرين ملكاً فى مدة تسعة أو عشرة قرون يجعل متوسط حكم كل ملك منهم أربعين سنة وهى مدة لا يستطيع عقل أن يتصورها . أما عن حوادث هذه المدة أو تطور الأحوال السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فيها فالمصدر الإتيوبى صامت عنها كل الصمت .

ولكننا من ناحية أخرى نعلم أنه فى خلال عصر الإمبراطورية الثانى الذى قام فى مصر الفرعونية وماتبعه من عصور الاحتلال الأجنبى ثم عصر النهضة ، عنى الملوك المصريون، وكذلك ملوك البطالمة بأمر التجارة الخارجية فكانوا يرسلون البعوث البحرية إلى البحر الأحمر لجلب الخشب والمر واللبان والبخور من بلاد بونت، التى اتفق أغلب المؤرخين أنها بلاد الصومال الحالية والهضبة التى وراءها . وأن العلاقات التجارية بين هذه البلاد ومصر قد ازدهرت وأن المبادلة كانت على أساس التعامل بينهما . ولأجل هذه التجارة عنى ملوك مصر وخاصة الملك سيزوستريس

وكذلك الملك نحاو بحفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر، كما عني بطليموس فيلادلفوس (٢٦٧-٢٤٧ ق.م) بتمهيد طريق القوافل بين النيل والبحر الأحمر. ولا يمكن أن يحدث هذا الاهتمام ما لم يكن ما يتم تبادله من التجارة عن هذا الطريق يستحق كل هذا الاهتمام، وما يصرف على هذه المشاريع من جهد ومال، خصوصا وإننا نعرف أن الدوافع إلى الاهتمام بالأمور التجارية خلال العصر البطلمي لم تكن دوافع دينية كما كان الحال أيام ملوك الأسرات.

وإلى هذا العصر السابق للميلاد تعود الآثار التي كشفت عنها بعثة ليتمان في سنة ١٩٠٥ في خرباتها بجوار أكسوم.

وهذه الآثار عبارة عن عدد من المسلات ليس بينها الآن إلا واحدة قائمة. (أنظر شكل رقم ٣) والأخريات ملقيات على الأرض. ولا ندري من الذي أقام هذه المسلات ولا لماذا أقيمت. ويبلغ طول هذه المسلة القائمة سبعة وعشرين متراً وهي لاتشبه المسلات المصرية إلا في شئين وهي أن كليهما قطعة واحدة من الحجر. كما أن مساحة القاعدة تقل كلما اتجهنا نحو القمة. ولكن نقوش مسله أكسوم تختلف كل الاختلاف عن نقوش المسلات المصرية. فهي تمثل بناء ذا تسع طوابق يحتوي كل طابق على عدد من النوافذ المتجاورة وهي تتركز على قوائم مستديرة تمثل العروق الخشبية ويحوى الطابق الأول هيئة باب. وقاعدة المسلة مستطيلة وليست مربعة. وهذا الباب موجود في أحد الجانبين الكبيرين وهو ما نستطيع أن نسميه بوجه المسلة.

وهذه النقوش موجودة على الوجه والجانبين أما الظهر فخال من النقوش وليس فيه إلا دائرة في أعلا المسلة يحتوي على أربعة ثقب، وتنتهى المسلة في قمتها بقوس ينحنى إلى أعلا.

ويظن أن هذه المسلات كانت تقام لأغراض دينية حينما كان شعب هذه

الجهات يعبد الشمس على ما يظن ، والتي كان القوس الذى فى أعلى المسلة يمثل قوسها وهو يرسل أشعته إلى جميع الجهات .

وإلى هذا العهد أيضاً تعود الآثار التى عثرت عليها بعثة المكتبة الأهلية المكونة من جان لكالات الاجبتولوجست. وجان دوريس المختص فى التاريخ والأدب القبطى عام ١٩٥٣/١٩٥٤ فى أزبى ديرا فى أقصى شرق هضبة تجرى . فقد عثر هناك على تمثال حجرى للملك يلبس رداء ثميناً مزينا جالس على كرسى (أنظر شكل ٤) وعند قدم التمثال كتابات باللغة العربية الجنوبية تبين الغرض من عمل هذا التمثال . ولكن اسم هذا الملك غير ظاهر . ولكن يبدو من أسنوب الكتابة وطريقتها أنها تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد . ولا يظهر فى التمثال أى أثر إغريقى أو مصرى . وملامح الملك شرقية بمحطة وفى مواجهة المكان الذى عثر فيه على التمثال وجد مذبح من الحجر الجيرى الصلب يحمل كتابة سبائية طويلة على جانبيه وعلى واجهته . ولكن اسم الملك غير ظاهر أيضاً . ولكن يبدو أنه كان يحكم على عدة ولايات إتيوبية وعلى مملكة سبأ فى بلاد العرب الجنوبية وعثر أيضاً فى نفس المنطقة على فناجين من البرنز وجفان . اثنتان منها تعود إلى أصل مصرى فرعونى . وربما تعود إحداها إلى العهد الصاوى إلى ٦٦٣ — ٥٢٨ ق . م وعليها نقوش هى زهرة اللوتس وحافة من صور الضفادع وهى تبعث الماء من أفواهها (أنظر شكل ٦) . وهذه تعد من أقدم المصنوعات المصرية التى عثر عليها فى إتيوبيا .

على أن مجموع هذه الآثار تدل على أن الهجرات السبائية إلى أفريقيا حدثت فى أوقات مبكرة عما قدره لها العلماء .

ويذكر كبرانجست عشرة ملوك بعد الملك بازن حتى يصل إلى عيزانا (٣٣٠ م) الذى دلت النقوش على أن المسيحية دخلت البلاد فى أيامه . وكما

صممت المصادر عن ذكر أية تفاصيل عن هؤلاء الملوك الذين أتوا قبل بازن
فقد صميت أيضاً عن أخبار من خلفوه ولكن عثر في ضواحي أكسوم خلال
سنة ١٩٥٨ على عملات برنزية تحمل أسماء الملوك لا يسعنا إلا التسليم بها وإن كنا
نجهل على وجه التحديد سنى حكمهم وأعمالهم . وهؤلاء الملوك هم .

١ — انديبيس بيسى داخو . Endybis Bisi Dakhaw .

٢ — افيلاس بيسى ديميلى . Aphilas Bisi Dimele . (انظر شكل ٥)

٣ — وازانا Ouasanas

٤ — وازب Ouazab

٥ — عيزانا Ezana (انظر شكل ٧)

وهذا الأخير صاحب اللوحات التى عثرت عليها البعثة الألمانية الأولى فى
سنة ١٩٠٥ والتى دون عليها هذا الملك أخبار حملاته الحربية التى قام بها على
البلاد المجاورة . وهذه اللوحات مكتوبة بثلاث لغات هى الإغريقية والحبشية
والسبائية ومن هذه النقوش استطعنا أن نعرف أن حكم هذا الملك كان طويلا
مزدهراً ، علاوة على كونه جندياً عظيماً ومحارباً شجاعاً . فإنه كان إدارياً فذا .
كما كان صافى الذهن بعيد النظر . اتسعت مملكته حتى شملت أكسوم وحمير
وريدان وسبأ وصالحين وسيامو وبيجة وكاسو . أما أكسوم فعاصمته وحمير
وريدان وسبأ وصالحين فى اليمن . أما بيجة فلاشك أنه يعنى بها قبائل البجة
التي كانت تسكن بين النيل والبحر وكاسو هى قبائل كوش التي كانت تسكن
ضفاف النيل النوبى جنوبى الشلال الثانى .

وكتابة هذه النقوش باللغات الثلاث تدل على رغبته فى نشر أعماله حتى يعرفها
كل من يعرف إحدى هذه اللغات مما يجعلنا نصدق ما قيل عن هذا العصر من أن

أكسوم كانت مركز التجارة في شمال شرق أفريقيا : يقصدها تجار من جميع الجنسيات كالإغريق الذين كانوا يشتغلون بالتجارة بين مصر وموانئ البحر الأحمر ، واليمنيين الذين ينقلون هذه التجارة بين موانئ البحر الأحمر وشرق أفريقيا . وأنها كانت لاتيوييا ما كانت الإسكندرية لمصر .

ويقسم المؤرخون هذه النقوش إلى قسمين . القسم الأول منها والملك مازال وثيقاً يعبد الآله محرم . وفيها يعلو الهلال نقوشه ويطلق على نفسه فيها .

عيزانا بن الأأميد من عائلة

هالن ملك أكسوم وحمير

وريدان وسبأ وصا

لحين وسيامو وييجا وكاسو

ابن محرم الذي لا يقهر باى

عبدو غزا . . .

وإذا ما انتهى من تعداد حملاته وما قام به من جليل الأعمال وما أسره من أفراد القبائل التي هزمها وما استولى عليه من غنائم ينهى النص بقوله (وأعطى الهبات لمحرم الذي منحه مائة من الماشية وخمسين أسيراً) .

أما القسم الثانى من النقوش فيبدو لنا فيها عيزانا وقد اعتنق المسيحية فوضع الصليب على رأس نقشه ويبدأ النص بقوله :

بقوة إله السماء

الذى هو فى السماء

وأقوى من أى شىء فى الوجود .

ويختتمه بقوله :

بقوة إله السماء . غير المنظور

للاعداء . الذى جعلنى . ملكا

وفى هذا النص يعد الملك الإله أن يحكم شعبه بالعدل . ولا يظلم أحداً كي يصون شعبه العرش الذى أقامه لأجل إله السماء . بعد أن شكره على المساعدة التى منحه إياها والعرش الذى أعطاه إياه .

فإذا كانت المصادر قد صممت عن الفترة السابقة لحكم عيزانا إلا أن النقوش التى عثر عليها ديمبرجر والتى يبدو أنها كتبت فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد تدل على أن أحد الملوك قد أقام نصباً تذكارياً لإعترافاً بفضل الآله محرم السبأى . على ما أولاه إياه من نصر على مملكة سبأ التى كانت على الشاطئ الآخر للبحر الأحمر ، ليؤدب الحميريين وجميع الشعوب التى تسكن الجزيرة العربية حتى عدن ، فهم جميعاً كانوا قد اتخذوا نهب التجارة الأنثيوبية التى تسير فى البحر الأحمر أو جنوب الجزيرة العربية صوب حضرموت حرفة لهم ، فكأننا نستطيع أن نقول أن اثيوبيا منذ القرن الأول الميلادى (حين قام هذا الملك المجهول الاسم بمحملاته هذه) حتى القرن الرابع (حين قام عيزانا بمحملاته التى وجدنا أخبارها على هذه النقوش الأربعة) كانت دولة عظيمة مرهوبة الجانب بسطت سلطانها على شاطئ البحر الأحمر وامتد هذا السلطان شرقاً حتى شمل اليمن وحضرموت كما امتد غرباً حتى وصل إلى النيل النوبى . وأن البحر الأحمر لم يكن إلا بحيرة إثيوبية ^(١) .

كما أن دخول المسيحية إلى اثيوبيا تدل على أن البحر الأحمر كان طريقاً تجارياً هاماً . وأن ميناء عدول الإثيوبية التى كانت تطل على البحر الأحمر كانت

(١) انظر (بين أثيوبيا واليمن) للمؤلف

ميناء نشطة آهلة بالسكان الوطنيين والعرب والمصريين والإغريق، يشتغل أهلها بالتجارة وبناء السفن وأن بعض من كانوا بها من الإغريق والمصريين كانوا مسيحيين أقاموا لهم بعض الكنائس . فإذا كان قسطنطين إمبراطور الدولة الرومانية قد منح المسيحيين في إمبراطوريته الحرية الدينية بأن جعل المسيحية على قدم المساواة مع الديانات الأخرى . فإن عيزانا قد فعل - باعتناقه المسيحية مثل ذلك تماما .

ولم يكن هذا العمل في هاتين الناحيتين من العالم نتيجة اتفاق بينهما بل كان كل منهما مستقلا عن الآخر تمام الاستقلال . وكان لهذه الخطوة أثرها في إثيوبيا فإنها لم تعط هذه البلاد ديانة سماوية فحسب بل إنها دفعت باتيوبيا لأن تتحرك بخطوات سريعة في فلك العالم المسيحي .

وتروى المصادر الدينية لدخول المسيحية إلى إثيوبيا قصة لا بأس من إيرادها: كانت إحدى سفن التجار تسير صوب الجنوب في البحر الأحمر حين اصطدمت بإحدى الشعب المرجانية الساحلية فتحطمت ، أمام ثغر عدول ميناء إثيوبيا ، وهلك ركابها إلا إثنان هما تاجران مصريان . وكان هذا التاجران شقيقين هما ديونيسيوس وفرمنتئوس ، وحمل التاجران إلى ملك البلاد فقابلهما ، وسر منهما فعين أولهما نديما له والآخر مستشاراً^(١) .

ومات الملك بعد أن ترك ولداً صغيراً في كفالة أمه الملكة ، وأراد التاجران أن يعودا إلى بلدهما بعد أن فقدا الملك الذي كان يعطف عليهما ، ولكن الملكة تقدمت إليهما بالرجاء أن يبقيا ليساعداها في تصريف أمور الدولة ، وليعيناها في تربية الطفل الملك . وهنا يختفى ديونيسيوس من القصة ولا يعود يظهر بعد ذلك .

(١) أنظر كتاب (كنيسة الأسكندرية و أفريقيا) للمؤلف

أخذ الملك الصغير ينمو ويكبر وهو لا يزداد إلا شجاعة وحكمة وبعد نظر، وجلس على عرش أبيه واستقل به ، وفرمنتيوس إلى جانبه دائماً ، وأظهر الملك في حكمه شجاعة ، وقام بحملاته التي ذكرناها ، ولم يكن هذا الملك إلا عيزانا الذى أخلص لفرومنتيوس الود كما أخلص له هذا الأخير النصيح ، وأعجب الملك بكل ما كان فرومنتيوس يأتيه ، وبطريقة حياته ، وأمانته وعلوفته ، وتمسكه بكل ما هو فاضل وشريف ، فكانت النتيجة أن اعتنق المسيحية التي كان يعتنقها فرومنتيوس . وظهر هذا الاعتناق في كتابات الملك ونقوشه كما رأينا .

ولم يلبث فرومنتيوس أن طلب العودة إلى مصر ليقابل بطريقها يسأله رعاية هذا الحقل الجديد . فأذن له الملك . وقدم فرومنتيوس إلى الأسكندرية ثم قابل إثناسيوس (البطريرك العشرين من سجل بطاركة الأسكندرية ^(١)) وقد عاد إليها من منفاه في المرة الثالثة . فحدثه خبر هذا الحقل الجديد ، فنصبه أسقفاً لأثيوبيا وأطلق عليه اسم أبا سلامة .

ولما عاد أبا سلامة إلى أكسوم مدينة ملك إثيوبيا سنة ٣٣٤ م ظل يباشر عمله في توسيع رقعة المسيحية وزيادة عدد المسيحيين وتفهم هؤلاء الأثيوبيين هذا الدين الجديد . ويبدو أن الإثيوبيين وعلى رأسهم الملك سروا من هذا الرجل ، ومن هذا الدين الذي حمله إليهم ، فأطلقوا عليه كنية تدل على هذا الحب وهي « كاشاتي برهان » ومعناها كاشف النور ، ومنذ هذا الوقت استقرت المسيحية على المذهب السكندري في إثيوبيا .

وقد أكتسبت حملات عيزانا الحربية هذا الملك شيئاً من التفوق على جميع الملوك الذين كانوا يتبعونه ولذا يرجح أنه استبدل بلقب ملكان الذي كان يستعمل في شبه الجزيرة العربية ليدل على الملك . لقب نجوس وهو لا يختلف كثيراً من

(١) أنظر كتاب (موجز تاريخ بطاركة الأسكندرية) لإشراف المؤلف .

حيث المعنى عن لفظ ملكان الا أنه تطور فيما بعد إلى لقب نجوس نجست أى ملك الملوك . وأصبح هذا اللقب الجديد خاصاً بملك أكسوم ليدل على الملك الذى انتخبته كل القبائل المحاربة وأصبح هذا اللقب يكتب على جميع النقود دلالة على مركز ملك أكسوم الأمبراطورى وإن كنا لا نعرف على وجه الدقة متى بدأت هذه الكتابة ولا إذا كانت قد استمرت أم لا .

وتكاد المصادر تجمع على أن عيزانا كان أعظم الملوك الذين حكموا أكسوم وتحت حكمة وصلت اثيوبيا إلى أقصى قوتها كما وصل الشعب الإثيوبى إلى أقصى حد من الرفاهية فقد صارت أكسوم مركز التجارة فى شمال شرق أفريقيا، وقصدها تجار من جميع الجنسيات . هذا الى ما قام به من شق الطرق فى مناطق كثيرة وتأمين تلك القوافل لا للرجال فقط بل للنساء أيضاً ، كما أكثر من الاهتمام بمجندة فكان يحصى جنده عقب كل معركة ليعرف من فقد منهم .

ويمكننا أن نعطي شيئاً من التفاصيل عن هذه الحروب التى قام بها هذا الملك الذى برز من بين كل الملوك الذين حكموا اثيوبيا بـروزا خلد اسمه .

كانت أولى حروبه موجهة ضد قبائل البجة التى كانت تعيش فى المناطق الشمالية ودأبت - مدفوعة بالرومان - على نهب القبائل خصوصاً بعد أن سقطت مملكة مرو ولم تعد هناك دولة قوية يرهبونها . فأسر عيزانا ستة من ملوكهم كما أسراً أكثر من خمسة آلاف من رجالهم وأرغمهم على الإقامة فى أماكن خاصة لا يبرحونها حتى إذا تم له هذا النصر أقام نصباً تذكارياً تخليداً له .

وكانت الغزوة الثانية ضد قبائل (بال كيو) التى تعيش شرقى أكسوم . فلم يكد الملك يخرج إليها حتى قدم ملكهم أجويزات Aguzat وحمل له الهدايا وقدم له الخضوع ، ولكن عيزانا لم يلبث أن اكتشف أن هذا الخضوع لم يكن إلا خداعاً ، فقبض عليه وجلده عارياً وقيده مع خدمه الذين يحملون عرشه . وكانت

الغزوة الثالثة ضد قبائل افان التي يظن أنها كانت تسكن جنوبى اكسوم فارسل إليهم ثلاث جيوش ولم يلبث أن لحق بها بنفسه فأسر قائدهم وقتل المئات من الرجال والنساء واستولى على مواشيهم وقد بلغت أكثر من ثلاثين ألفاً . وشكر الملك الآله على هذا النصر فقدم له الهبات وقد بلغت مائة من الماشية وخمسين من الأسرى .

وكانت الحملة الرابعة أكبر حملاته الحربية وقد وجهها إلى قبائل النوبة التي كانت تسكن النيل عند تكاز ، وهم الذين أطلق عليهم اسم كاسو ، وكانوا محاربين أشداء ، خضعوا لأكسوم فى تاريخ سابق ولكنهم خرجوا عن طاعتها فسار عيزانا إلى مرو وخرب الأرض وعبر العطبرة بطاردهم فزهمهم وأقسموا له بيمين الولاء إلا أنهم حنثوا بيمينهم ثلاث مرات وأعتدوا على القبائل التي كانت فى حماية عيزانا وسرقوا مواشيهم بل جردوهم من كل مامعهم . فسار إليهم فهربوا أمامه ولكنه تتبعهم إلى حيث مواطنهم واستولى على مخازن الحبوب والطعام كما استولى على النحاس والحديد والبرونز وكذلك على أشجار القطن مما يدل على أن هذه القبائل النوبية كانت ذات حضارة تعرف استعمال المعادن وتجيد زراعة القطن ولا بد أنهم عرفوا غزلها ونسجها . وعندهم العطبرة دارت المعركة الكبرى حيث قتل منهم مقتلة كبيرة . هربوا على أثرها صعدا فى النيل ، فتبعهم ودمر مدينتى علوا ودارو وأخيرا عاد الجند بسلام وعند مكان المعركة (التقاء النيل بالعطبرة) أقام عرشاً لنفسه وقدم الشكر لآله السماء على ما حباه من نصر .

وهذه الحملات الحربية الناجحة وكذلك دخول المسيحية إلى البلاد عن طريق مصر يدل على ما كانت عليه تجارة اتيوبيا فى القرن الرابع وما قبله من انتشار ، كما تدل على سهولة الاتصال وتأمين الطرق بين اتيوبيا والعالم الخارجى ، وهذا يؤيد ما ذكرناه من قبل من أن رفاهية اتيوبيا تتحقق دائماً عن طريق اتصالتها بالخارج .

وكانت هذه التجارة مصدر قوة لاتيوييا كما كانت مصدراً لثرائها ، فقد كانت قوافلها البرية تتجه إلى الشرق فتحمل إلى فارس البن والرقيق وسن الفيل والقرنفل وجوز الطيب لقاء ما تأتي به من السجاد والقطيفة . كما تحمل إلى الدولة الرومانية الشرقية مثل ما تحمله إلى فارس لقاء الحرير والخمرات والملابس المطرزة بالذهب والفضة وكذلك الديباج .

وقد مكنت هذه الثروة مملكة اتيوييا من أن تصبح دولة غنية قوية ، تمتد حدودها الشرقية حتى تعبر البحر الأحمر فتشمل اليمن ونجران ، كما امتدت شمالاً وغرباً حتى أطلت على سهول السودان . حيث يسكن البليميون والبجة . وغيرها من القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر . وشملت أقليم جودچام ، كما كان شعراؤها يلقون من أمباطور الدولة الرومانية وملوك النوبة كل إجلال واحترام .

ففي سنة ٥٢٠ م كان كوزماس السكندري عائداً من الهند وزار ثغر عدول ومدينة أ كسوم وكتب عنهما يقول أن عدول ميناء كبير مزدحم بالسفن القادمة من خليج ايلات ومن الساحل المصري . ولها علاقات مع اليمن وفارس والهند وجزيرة سيلان . وترسل إليها الهند بالزمرد . أما أ كسوم فهي التي تحكم طرق القوافل الذهبية إلى جنادل النيل أو الذهبية إلى بلاد الصومال . وطبقاً لمعاهدة بين ملك أ كسوم وملك الاجوا أرسلوا قافلة مكونة من خمسمائة رجل إلى الجنوب الغربي (أقليم ولجا) وإذا ما وصلت هناك أقامت في أرض فسيحة وبادلت أهلها بالمواشي والحبوب والذهب . وقد أثارت المدينتان إعجاب كوزماس بكنائسهما وتمائيلهما كما ذكر عن قصر الملك انه ذو أربعة أبراج فوق كل منها تمثال .

وحول نهاية القرن الرابع المسيحي كان لليهود جاليات كبيرة العدد في اليمن واتيوييا قدموها ، بعد أن غزا الرومان القدس سنة ٧٠ م وخرّبوا معبدها ،

وأرغموا الأهالى على التفرق فى أنحاء البلاد . فاتجهوا إلى هاتين الدولتين بعد أن مروا بيثرب ومكة ونجران واستقرت أعداد منهم هناك وإذا ما اتجهت الدولة الرومانية الشرقية بعد عهد تيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) إلى جعل المسيحية ديانة رسمية للدولة أخذت الهجرة اليهودية إلى اليمن تزداد لا سيما وقد صارت هذه البلاد مركزا لتجارة عالمية هامة .

وكانت كراهية اليهود للرومان والمسيحيين هى التى دفعتهم إلى اضطهاد المسيحيين فى اليمن بعد أن أخذ اليهود مركز الصدارة ، هناك مما عا الملك الاثيوبى إلا عاميداً إلى التدخل واحتلال اليمن سنة ٣٤٥ فكانت الغزوة الاثيوبية الأولى لليمن . ولكن الاحتلال الاثيوبى لليمن لم يستمر طويلا إذ استطاع تبع ملك (سبأ) وريدان وحضر موت ويمئات فى سنة ٣٧٨ م) أن يستعيد جميع الأراضى التى أحتلها الإثيوبيون .

ومنذ هذا الوقت بدأ صراع بين المسيحية واليهودية اتخذ أرض اليمن ميدياً له . انتهى بسيطرة اليهودية . وتمثلت هذه السيطرة فى جلوس ذى نواس اليهودى على عرش اليمن سنة ٥٢٢ م فشرع فى اضطهاد المسيحيين اضطهاداً قاسياً ، ومن أجل ذلك حالف الفرس أعداء الرومان . مما دعا اثيوبيا إلى التدخل فعبر الملك (ألا أصبحا) أو كما تسميه المصادر الاثيوبية كالب (٥١٤ - ٥٤٢) البحر الأحمر . وهزم ذا نواس واضطره إلى الفرار وسيطر على اللواقع الهامة فى اليمن . ولكنه عاد إلى بلاده فى نفس العام فكانت هذه هى الغزوة الثانية لليمن . وانهز ذو نواس فرصة عودة كالب إلى بلاده فعاد إلى اليمن . وخرب كنائسها . بل تقدم إلى الشمال حيث احتل نجران . وهناك انفراد بالمسيحيين وجعل يسومهم عذاباً طويلاً قاسياً . فحفر لهم أخدوداً وألقى بأعداد كبيرة منهم فيه وأشعل فيهم النار . وقد ندد القرآن بهذا العمل فنزلت الآية (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)

أثارت هذه المذابح ثائرة المسيحيين وفر أحدهم على وجهه يقصد بطريك الإسكندرية البابا تيموثاوس الثالث (٥١٨-٥٣٥) فكتب هذا إلى الإمبراطور جستين البيزنطى فى القسطنطينية يستحثه لانتقاد أخوانه فى الدين . فما كان من الإمبراطور إلا أن كتب إلى كالب ملك إتيويا (مما يدل على علاقات الصداقة التى كانت تربطهما) يعرض عليه أسطولا رومانيا إذا أراد نجدة مسيحي اليمن ونجران . فأعد الملك كالب حملته الثانية فى شتاء سنة ٥٢٤ — فكانت الغزوة الثالثة الأتيوية لليمن — وقد بلغت مائة وعشرين ألفا ، وتحدد المصادر الكنسية يوم ١٨ مايو تاريخ بداية الحملة . ونجحت فى النزول إلى شاطئ اليمن . حيث استطاعت أن تهزم القوات اليمنية وتقتل ذا نواس وتعيد إلى المسيحيين أمنهم وطمأنينتهم . وقد اشترك كوزماس الرحالة السكندرى فى هذه الحملة وكتب لنا عنها . وأقيم أبرهة الأشرم حاكما على اليمن وارياط تابعا له على حمير ونجران . وكان من أثر هذه الغزوة ، لا استقرار المسيحية فى هذا الجزء من الجزيرة العربية فحسب ، بل عودة التجارة الإتيوية السائرة إلى الشام وفارس سيرتها الأولى من النشاط والازدهار .

وفى أيام جبراماسقال الأول (٥٥٠ - ٥٧٠) أغرى أبرهة سيده على غزو الحجاز فوافق جبراماسقال على الفكرة . وخرجت الحملة من صنعاء واتجهت شمالا . ولكن طول الرحلة أنهك الجند ففتشى المرض فيهم . مما كان سببا فى فشلها . وقد أظنبت المصادر العربية فى ذكر هذه الحملة وما أصاب الأتيويين فيها من فشل . فذكروا الأفيال التى كان يركبها قواد الحملة وكيف أبت السير احتراما للكعبة وكيف استدارت هذه الأفيال على الإتيويين تقتلهم حتى فروا هاربين وقنعوا من الثنينة بالإياب وقد أطلق العرب على تاريخ هذه الغزوة (عام الفيل) .

وإذا كانت إتيويا قد لقيت الفشل فى هذه الحملة فقد كان ما لقيته فى اليمن

أكثر مرارة ، فقد ثار اليمينيون عليهم يقودهم سيف بن ذى يزن . وكتبوا إلى ملك الفرس ينجدهم فكانت الجيوش الفارسية القادمة سبباً في هزيمة الأتوبيين . فخرجت اليمن من حكمهم لتدخل في حوزة الفرس ، الذين أقاموا عليها حاكماً . ومن الطبيعي أن يتبع التجار الفارسيون الجند الفارسي . فيقيموا المراكز التجارية في اليمن . بل ويعبر منهم كثيرون إلى ساحل أفريقيا ويدخلون إلى إتيوبيا فيستقرون في شرقها وشرق أفريقيا كله يزاولون نشاطهم التجارى .

ويبدو أن نصرته المسيحية لم تكن السبب الوحيد لهذه الغزوات الأتوبية لليمن . فقد كانت اليمن بحكم موقعها نقطة ارتكاز لتبادل تجارى نشيط بين الحضارات القديمة التى قامت في وادى النيل وفي وادى دجلة والفرات وفي حوض البحر المتوسط . وبين الحضارات الشرقية التى عاصرتها في أوقات مختلفة في الهند وجنوب شرق آسيا . وربما في شرق أفريقيا أيضاً . وذلك بفضل مهارة اليمنيين فى الملاحة لاسيما فى المحيط الهندى والبحار الجنوبية . كما كان اليمينيون يسيطرون أيضاً على الطرق البرية التى تخترق الجزيرة العربية وكان أهم هذه الطرق ثلاثة ، يتجه أحدها شمالاً على طول الحافة الشرقية للبحر الأحمر مخترباً تهامه والحجاز إلى ساحل الشام . والثانى من أقصى شمال بلاد اليمن إلى وسط الجزيرة العربية إلى جنوبى بلاد العراق . بينما يتجه الثالث إلى وسط بلاد العرب على طول وادى السرحان إلى جنوبى شرقى سوريا ماراً بواحات الحوف فى الشمال .

فكانت الغزوات الأتوبية المتوالية ترمى - علاوة على نصرته المسيحية كما ذكرنا - إلى امتلاك بلاد اليمن نفسها حيث الثروة الطبيعية وخصوصاً البخور الذى كان سلعة تجارية عالمية ، من أجل الطقوس الدينية . وإلى تحطيم الاحتكار اليمنى للتبادل التجارى بين الشرق والغرب .

ولم يلبث الإسلام إن ظهر في شبه الجزيرة وأوقع القرشيون الأذى بالنبي وأصحابه، فنصحهم بالهجرة إلى (الحبشة) - لأن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد -^(١) وهي البلاد التي اعتادوا الرحلة إليها من قبل والتي استقر فيها كثير من إخوانهم يشتغلون بالتجارة، فسافر إليها فريق منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله . فاحسن حاكم الإقليم الساحلي (بهرنجش) - الذي سماه المسلمون بالنجاشي - لقاءهم . وأرسلت قريش في أثرهم من يطلب إليه طردهم وأعادتهم من حيث أتوا، فأبى النجاشي ذلك . فكان ذلك مشجعاً لأن تتجه إلى هذه البلاد موجة أخرى من المهاجرين بلغت أكثر من مائة وعشرين مسلماً ، رفض البهرنجش تسليمهم أيضاً . فكان ذلك سبباً في علاقات من الصداقة والمودة بين النجاشي والنبي . الذي أرسل إليه - كما تذكر المصادر الإسلامية - كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام فاستجاب له . كما تبادلوا الهدايا في أكثر من مناسبة ، وفي السنة السابعة للهجرة - وقد استقر النبي في المدينة - أرسل في طلب أصحابه فاذن لهم النجاشي بالسفر فرحلوا إلى المدينة وقد انتهى النبي من غزوة خيبر فافرد لهم نصيباً من الغنيمة .

وتقول المصادر العربية أيضاً أن النبي أهدى إلى (النجاشي) خفين ساذجين فارسل له (النجاشي) بغلاً حبشياً وثلاث عنزات وقارورة طيب غالية الثمن . وزعمها النبي على أصحابه إلا أحدى العنزات^(٢) فاحتفظ بها لنفسه . وكان يحملها أمامه بلال بن رباح . حتى إذا بدأ يصلي ركزها أمامه . وقد ورثها عنه خليفته أبو بكر ثم عمر وكانا يفعلان بها مثل ما كان يفعل النبي . ومات (النجاشي) وما زال النبي حياً . فلما سمع بذلك جمع أصحابه وصلى بهم صلاة الغائب . فكانت أول صلاة على الغائب في الإسلام .

(١) أنظر (الاسلام في اثيوبيا) للمؤلف

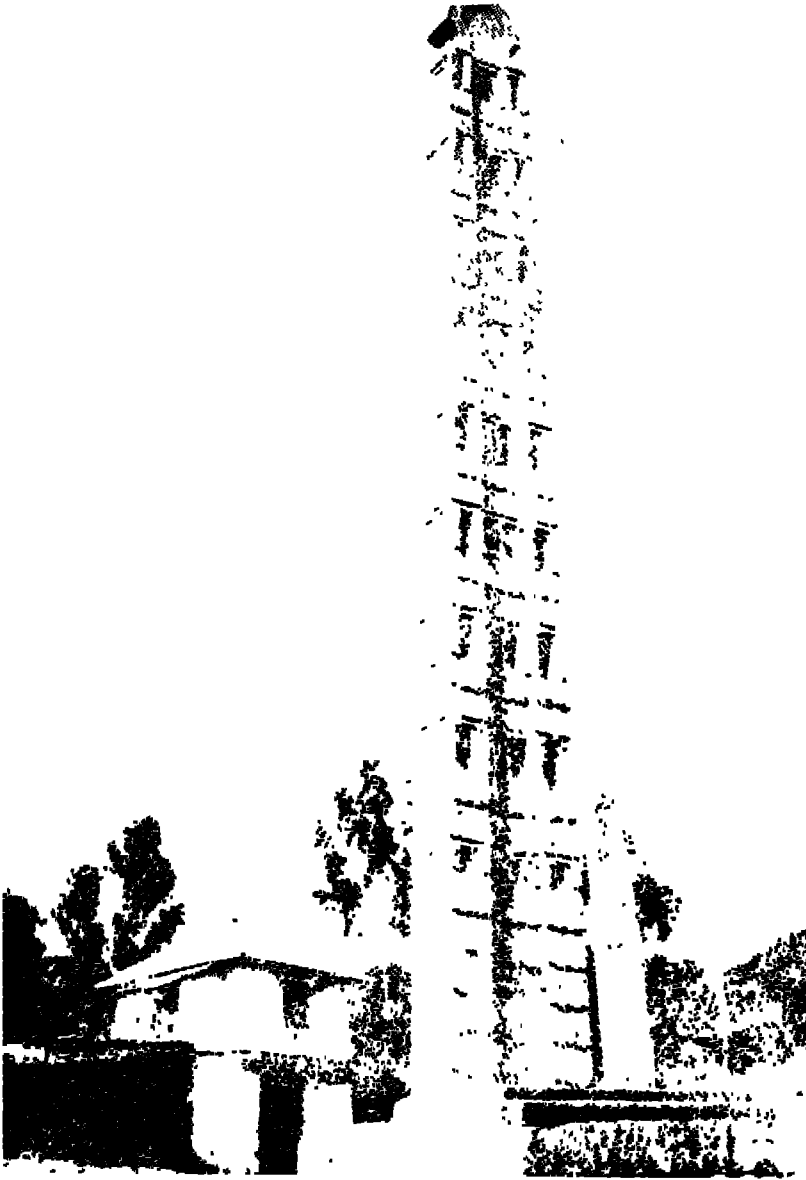
(٢) العنزة بفتح النون والزاي هي الحربة الصغيرة .



أحد شلالات النيل الأزرق (أبای) عفت خروحه من بحيرة طانا



قصه زياره سا ليمان ملك بيت القدس كما يصورها الفنان الانيوني
في حيتة صورة مسلسلته على قطعة من القماش أو الجلد



مسلة اكسوم وهي تمثل بناء ذا تسع طوابق
تفصل بينها سقوف من خشب اسطوانية الشكل



تمثال حجری للک لم یعرف اسمه
عثر علیه اخیراً فی ارض دیرا وعلی قاعدته کتابات سیایه

الفصل الثالث

من ظهور الإسلام حتى قيام الأسرة السليمانية

٦٠٠ - ١٢٦٨

٦٠٠ - ١٢٦٨

كان ظهور الإسلام مؤذنا بانطلاق القوة العربية ممثلة في حركة الفتوح الكبرى . فشملت أولا شبه الجزيرة العربية ثم انطلقت إلى الدولة الفارسية فقضت عليها ثم إلى الدولة الرومانية الشرقية فسلبتها أئمن ولاياتها في الشام ومصر وشمال أفريقيا ، وتأسست الإمبراطورية الإسلامية ممثلة في الدولتين الأموية والعباسية متعاقبتين . وامتدت هذه الإمبراطورية شرقا حتى حدود الهند كما سارت غربا حتى شمال أفريقيا وأطلت على المحيط الأطلسي . كما شملت أسبانيا . وكان أثر هذه الإمبراطورية على أثيوبيا كبيرا رغم أنها لم تحتك بها بل لم تحاول الاحتكاك بها .

فباستيلاء المسلمين على الشام ومصر حرمت إثيوبيا المورد الذي كانت تستقى منه حضارتها وثقافتها بل ووثورتها . فقد كانت كلاهما بالنسبة لإثيوبيا المهل الذي تستمد منه مقوماتها الروحية والحضارية وليس معنى ذلك أن الكنيسة الإثيوبية لم تعد تتبع الكنيسة المصرية . بل ظلت تتبعها وما زالت تتبعها . ولكن أخذ الإضطراب يسود هذه العلاقة . فقد شغل المصريون بأنفسهم منذ أن انقطعت صلتهم الروحية بالدولة الرومانية الشرقية وزاد انقطاعهم عدا الفتحة الإسلامية . وأخذ الضعف بل والانهيار يسرع إليهم كنتيجة طبيعية لهذا القطع ، بل نتيجة للظروف الداخلية التي أحاطت بهم . فكان من الطبيعي أن يكون هذا الضعف والانهيار من نصيب الكنيسة الأثيوبية أيضاً . وكان هذا المورد أيضاً مصدرا لثقافتها ، منذ أخذ في ترجمة كثير من الكتب القبطية واليونانية إلى (م ٤ : أثيوبيا)

اللغة الحبشية في القرن الرابع الميلادي وما بعده . وقد كانت كل من الدولة الرومانية الشرقية ومصر مقصداً لتجارتها ومصدراً لثروتها . فلا غرابة إذا أخذت إثيوبيا تدخل بعد القرن السابع الميلادي ، في مرحلة من الضعف المادي والروحي والثقافي . ظهر أثره في ضعف ملوكها وتناقص المساحة التي يفرضون عليها سلطانهم . ولم يكن استيلاء المسلمين على فارس باقل أثراً على إثيوبيا من استيلائهم على أملاك الدولة الرومانية الشرقية . فقد قل إقبال التجار الفرس على أسواق إثيوبيا . يلتمسون فيها ما يريدون من عروض التجارة . وأخذت مدينة عدول نتيجة هذا كله تدخل في دور من التدهور إذ أخذ كثير من التجار اليونانيين والفرس يهجرونها كما أخذ عدد السفن التي تتردد عليها حاملة أنواع السلع يقل . ولكن فريقاً آخر من التجار أخذ عددهم يزداد بل يعظم . وهؤلاء هم التجار المسلمون ومن ثم اخذ الاسلام ينتشر في إثيوبيا وجدير بنا أن نولي بعض العناية إلى الظروف التي أدت إلى انتشار الاسلام في إثيوبيا وكيفية هذا الانتشار ، والنتائج التي ترتبت على هذا الانتشار ، لما لها من عظيم الأثر في تاريخ البلاد .

لاشك أن مواجهة إثيوبيا للجزيرة العربية كان أثرها المباشر منذ أقدم الأزمنة في قيام علاقات بينهما . ولذا سكن إثيوبيا كثير منذ عصور سحيقة في القدم من العرب الذين هاجروا إليها على موجات متتابة بعضها صغير لم يشعر به أحد ، وبعضها كبير أثار انتباه المؤرخين فسجلوه لنا . كما سكن الجزيرة العربية كثير من أهل إثيوبيا ظهروا على شكل موالى لم يكن يخلو منهم بيت عربي . وكان منهم معظم جنود مكة المرتقة ، وقد عرفوا دائماً بالأمانة والاخلاص والتفاني في الخدمة وكان تجار العرب يستعينون بهم بكثرة في حراسة قوافلهم ، وفي حروبهم القبلية . وكان يطلق عليهم اسم العسكر تمييزاً لهم عن العرب الوطنيين . وكان رئيسهم في العادة عربياً يطلق عليه اسم « السيد » وإليه يرجع نخر الانتصار في

المعارك التي يخوضونها . و كان سلاحهم العنزة وهى الحربة القصيرة إذهى السلاح
المفضل لديهم . وقد اختلط هؤلاء الإنثوييون بالعرب وتزوجوا منهم وأنجبوا نسلا
عربياً عرف بسواد بشرته وشجاعته . وأطلق عليه العرب اسم (غربان العرب)
واشتهر من هؤلاء قبيل الإسلام عنزة العيسى .

ولابد أن أشير إلى شخصية من هؤلاء الموالى الإنثويين الذين عاشوا في
الجزيرة العربية كان لها أثر كبير في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . تلك هى
شخصية أم أيمن . التى كانت جارية لعبد الله بن عبد المطلب وشهدت زواجه
كما شهدت ولادة النبي بعد وفاة أبيه . ثم أرادت أمه آمنة أن تزور إخواتها في
يثرب ، فصحبته في الطريق ، حتى إذا ماتت آمنة قبل أن تعود إلى مكة ، أصبحت أم
أيمن أما للصبي بعد أمه . فصحبته إلى دار جده عبد المطلب ، ثم إلى دار عمه أبي
طالب تحمله وتعنتى به . وكان عبد المطلب كثير ، الأولاد فليس هناك من
عناية خاصة بمحمد بن عبد الله إلا عناية أم أيمن . كما كان أبوطالب أيضاً
كثير الأولاد ضيق الرزق فكانت ، أم أيمن هى التى تلازم الصبي وتعنتى به
وتضفى عليه من حنانها وعنايتها حتى شب عن الطوق . ولابد أنها كانت
كثيرة الحدب على الصبي مما جعله يحبها ويركن إليها حتى إذا كبر وأدرك
ما كانت توليه من عناية قال عنها لأصحابه (أم أيمن أمى بعد أمى) وكانت
نتيجة هذا أن أحب النبي (الأحباش) ومال إليهم فقال فيهم (من أدخل في
بيته حبشياً أو حبشية أدخل الله في بيته بركة) .

فلا غرابة إذا وصلت الدعوة الإسلامية إلى أثيوبيا سريعا حتى إذا اشتد
اضطهاد قريش للنبي وأنصاره نصح أنصاره بالهجرة إلى (الحبشة) قائلا : (لو
خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهى أرض صدق
حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) .

والصادر كلها وإن كانت صامته عن كيفية معيشة المهاجرين المسلمين إلى (الحبشة) ، إلا أن طول إقامتهم هناك إلى مدة استطالت إلى أكثر من ستة عشر عاما وتوالى هجراتهم ، تؤكد أنهم وجدوا هناك مقاما سهلا .

وقد سبق أن ذكرنا أن العلاقات الحسنة بين النبي والنجاشي دامت ووصلت إلى حد تبادل الهدايا . حتى إذا مات النجاشي سنة تسع من الهجرة علم النبي بالخبر فدعا أصحابه وصفهم خلفه وصلى بهم عليه صلاة الغائب .

وظلت العلاقات الحسنة بين الجزيرة العربية وإثيوبيا خلال العصر الإسلامي . غير أن العرب الذين كانوا يترددون عليها أصبحوا مسلمين . واستقر بعضهم هناك وأول مسلم سمع عنه مهاجراً ومستقراً في هذه الأجزاء هو ود بن هشام الخزومي وكان ذلك أيام عمر بن الخطاب .

ومنذ هذا الوقت أخذ الإسلام يظهر في إثيوبيا يحمله إليها هؤلاء التجار وينتشر هناك بمقدار ما ينتشر هؤلاء التجار ويتغلغل بمقدار ما يتغلغلون .

وكانت الظروف تساعد على زيادة الهجرة إلى إثيوبيا وعلى انتشار الإسلام ، لعل أهمها هذه السلسلة من الأحداث المتعاقبة التي حدثت في الدولة الإسلامية سواء كانت أحداثا سياسية أو اقتصادية .

فالشيعيون الذين كانوا يمينون أنفسهم بارتقاء الخلافة ، رأوا في تولى على ابن أبو طالب لها بوادر هذا الأمل ، ولكنهم ما كادوا يهنأون به حتى قام الأمويون يحولون بينهم وبين هذا الأمل الذي ينشدونه . فصبروا حتى يأتي يوم يشعر فيه المسلمون بحقهم ، ولكنهم رأوا أمالهم قد أنهارت إلى غير رجعة حين تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه . هنا طاشت أحلامهم ورأوا في الانتظار هداما كاملا لا مالهم . فقاموا بزعامة الحسين بن علي بن أبي طالب مطالبين بحقهم مناضلين دونه ، فيما رأى الأمويون في قيام هذه الفئة إضعافا لهيبتهم

ومحاولة لإخراج الأمر من يدهم بعد أن تعبوا في الحصول عليه ، وبذلوا فيه ما بذلوا .
فقابلوا خروج العلويين بشدة مابعدا شدة . وعنف ليس بعده عنف ولم يراعوا
مكانة الحسين من المسلمين ولا قرابته للنبي .

وإذا كانت معركة كربلاء قد أسلمت الأمر للأمويين ، إلا أنها أشاعت
في أنحاء الدولة الإسلامية شعوراً بالفزع والهلوع . فأيقنت القبائل العربية وخاصة
المعارضة للأمويين منها ، أن لاسبيل إلى الحياة الحرة الأبية تحت ظل الدولة
الأموية . كما أيقن الطالبيون أن أية محاولة جديدة لن تزيدهم إلا فناء ، فأخذوا
يتفرقون في البلاد ويمعنون في الحرب والاختفاء ، وقصدت جماعات منهم إلى حيث
لا تمتد أيدي الخلفاء (الظالمين) ، فقصدوا شواطئ أفريقيا الشرقية . تتبعهم
جنود الدولة الأموية التي جعلت همها أن تراقبهم مراقبة دقيقة فاستولت على
مجموعة جزر الدهلك المواجهة لثغر عدول لتتمكن من ذلك على أتم وجه .

ولم يكد يزيد بن معاوية يستريح من ثورة الشيعة تتابعه نقمة المسلمين عامة
والشيعة خاصة ، حتى خرج عليه الحجاز . فلم يكن العنف الذي قابل به الثورة
الجديدة ، بأقل من العنف الذي قابل به الثورة الأولى ، فأرسل إليهم مسلحة بن
عقبة ففعل في المدينة ما لا يعله مسلم ، فقتل أغلب من بقي من المهاجرين والأنصار^٧
وانتهكت حرمة المدينة وانتهبت وافتضت فيها ألف عذراء على ما يقول الطبري ،
واصطبغت عداوة الحجاز بالدم ، كما اصطبغت عداوة العراق من قبل .

ولم ينم الحجاز على الضيم فخرج للمرة الثانية على الأمويين وبابح عبد الله
بن الزبير . وظلت ثورته في الحجاز تسع سنوات . يناضل فيها الأمويين
ويتغلب ، عليهم حتى حصره بمكة الحجاج بن يوسف الثقفي وقتله سنة ٧٣ هـ
فلا عجب أن فر أهل الحجاز لينجوا بحياتهم إلى الأقطار النائية . ومنذ هذا اليوم

لم يلق الحجاز من الأمويين إلا كل إهمال فكانوا لا يرمونهم إلا بكل طاغية
يعلن في إذلال القوم والتشكيل بهم .

وفي سنة ١٣٢ هـ جاء دور الأمويين ليشربوا من الكأس التي طالما
سقوا منها الآخرين . ففر مروان الثاني إلى مصر فدخلها ثمان بقين من شوال .
فوجد أهل الحوف الشرقي قد سودوا ^(١) ، فعبث إلى الجيزة ومعه حاشيته من أمرائه
وأقاربه فلقه صالح بن علي وإلى مصر من قبل العباسيين ببوصير ، فقاتله حتى
هزمه ، وقتله فهرب ومن معه إلى الصعيد وأوغلوا في الحرب جنوباً حتى وصلوا
النوبة حيث استقر بعضهم وذهب آخرون إلى مصوع .

ولم يكد العباسيون يفرغون من بنى أمية ، حتى التفتوا إلى الشيعة الذين
أفاقوا إلى ما وقع منهم من غفلة . فقاموا ينازعون العباسيين واستمر النزاع بين
العلويين والعباسيين طوال العصر المباسي . فكلما قام عباسي بالأمر قام علوي
ينازعه ويدعو لنفسه ويقاتل ويقتل . فكانت هذه الثورات المتعاقبة التي
شغلت التاريخ الإسلامي حتى القرن الرابع الهجري ، مورداً لا ينضب لأفراد
مهزومين يهاجرون إلى البلاد البعيدة . وإتيوييا بموقعها الجغرافي . وخصبها
واعتدال مناخها ووفرة مواردها سواء للراغبين في الزراعة أو الرعي أو التجارة
فيها ولا شك إغراء كبير على أن تقصدها أعداد كبيرة من هؤلاء الفارين .

إلى جانب هذه الأحداث السياسية العنيفة ، كانت هناك أحداث أخرى وإن
كانت لا تمت إلى السياسة ولا إلى العنف بصلة إلا أنها لا تقل أثراً في توجيه
العرب والمسلمين وجهات معينة . فقد ظهر في الدولة الإسلامية منذ أيام أبي
بكر طبقة من الارستقراطية التي أثرت ، مما كان يصيب أفرادها من غنائم

(١) أي انضموا إلى العباسيين . وكان السواد شعارهم .

وأسلاب في الحروب الكثيرة التي قامت بها الدولة الإسلامية . كما أثروا من التجارة . كما كانت لهم مكانة عظيمة في نفوس المسلمين لقربهم من النبي . ومن رجال السلطة بالمدينة . فأمسكهم عمر ولم يأذن لهم أن يتفرقوا في الأرض خوفا على المسلمين أن يفتنوا بهم . وخوفا منهم أن يتدخلوا فيسيئون استعمال سلطتهم فيما يعود عايتهم بالنفع وعلى غيرهم بالضرر . فلما تولى عثمان . أفسح لهم الطريق كما وصاهم بالصلات الضخمة من بيت مال المسلمين . فنقم على ذلك فريق من المسلمين منهم أبوذر الغفاري وعمار بن ياسر . ولكن مانزل بأبي ذر من نقي إلى الرتبة ، أوقع الرعب في قلوب أصحابه ومن يأخذون برأيه . فلم يكن أمامهم إلا أمران . إما أن يسكتوا على الضيم ، أو يهاجروا إلى حيث يحاولون ولوج باب الثروة ، وكانت إتيوييا إحدى مياديتها . ومن هؤلاء عمار بن ياسر الذي غضبت له مخزوم حينما أراد عثمان أن يلحقه بأبي ذر . ومخزوم نائمة منذ أيام عمر ، وخرج منها فريق إلى (الحبشة) برئاسة ود بن هشام الخزومي كما ذكرنا .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة في التاريخ الإسلامي فقد امتلأت الكتب بأخبار الهبات التي كان يسبغها الخلفاء والوزراء على أعوانهم مما كان يبعث الرضى إلى نفوس قلة من الناس ، ويبعث السخط في نفوس كثيرين . فكانت هذه الثروات الضخمة التي أصابت قلة من المسلمين فارضتهم ، وهذا الحرمان الذي أصاب كثرة فأسخطهم ، سببا في ولوج الآخرين باب المخاطرة طلبا للثروة من أصعب وجوهها وهو الهجرة إلى البلاد البعيدة طلبا للجاه والغنى .

وكان من الطبيعي أن يعمل هؤلاء النازحون فيما يدر عليهم الثروة ، فكانت التجارة أكثر هذه الأعمال إدارا للربح . فقد احتكروا تجارة المياه الجنوبية . فكانت سفنهم تجوب هذه البحار لتنقل مواد البلاد التي تحيط بها . فكانت المراكب الهندية الضخمة تحمل منتجات شرق أفريقيا والهند وسيلان وفارس إلى عدن . وتتولى سفن هؤلاء العرب نقلها إلى بلاد البحر الأحمر فما لبثوا أن

أصبحوا ثروة ، بما يملكون من السفن والمال والرجال والسلاح ما مكنهم من فرض قوتهم أينما ساروا . على أن أكثر أنواع التجارة إحدراً للربح كانت تجارة الرقيق يتصيدونه من إتيوبيا والسودان ليحملوه إلى حيث الأسواق التي تتطلبه في الحجاز وبغداد والقاهرة بل والصين أيضاً وغيرها من عواصم الدول من أجل تكوين الجيوش الحاربة ، كما اشتغل منهم كثيرون بالقرصنة يغيرون على السفن يسلبونها ما تحمل . وكان التجار غالباً ما يتفقون معهم على مكوس سنوية معينة يدفعونها لهم في أوقات معلومة ، نظير أن يكفلوا لهم السلامة في الحل والترحال . وقد سهلت لهم وحدة العقيدة بينهم وبين التجار أمر الاتفاق على هذا الجمل المعلوم . فهذه المناسبات المختلفة كانت سبباً في كثرة هجرة المسلمين إلى إتيوبيا واستقرارهم فيها .

إذا أضفنا إلى هذا العامل ، عاملاً آخر هو ضعف ملوك أكسوم عن أن يفرضوا قوتهم على الأجزاء المختلفة لدولتهم ، وعن أن يهبوا حمايتهم على رعاياهم إزاء هجمات تجار الرقيق الذين أكثروا من الإغارة عليهم ، أمكننا أن نتصور كيف لجأ الإتيوبيون إلى التجار المسلمين يطلبون منهم الحماية ، وكيف قدموا إليهم بناتهم ليصهروا إليهم ليستمدوا من هذه المصاهرة وسيلة لأمنهم .

وإذا أضفنا إلى هذه العوامل عاملاً ثالثاً أيضاً ، هو ضعف الكنيسة المصرية في ذلك الوقت مما أدى إلى ضعف الكنيسة الإتيوبية وعجزها عن رعاية الشعب حق الرعاية ، ومجزها من مباشرة شؤون رعاياها الدينية ، أمكننا أن نتصور الفراغ الذي عاش فيه الشعب الإتيوبي والذي أتاح للإسلام أن ينتشر هناك . وخاصة سكان المناطق الشرقية وقد أهلته القوة التي أتتحت للمسلمين أن يقيموا هناك دولة إسلامية في القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي هي دولة شوا الإسلامية .

وتنسب المصادر ملوك هذه الدولة إلى ود بن هشام المخزومي الذي ذكرنا أنه خرج من الحجاز مع قبيلته أيام عمر بن الخطاب .
ومن لا نعرف لماذا خرجت مخزوم من الحجاز . ولكننا نعرف في نفس الوقت أن عمر بن الخطاب كان يكره خالد بن الوليد المخزومي ، ويحقد عليه لمعارضته في انتخاب أبي بكر حتى لقد تردد في مبايعته شهرين لأنه نظر إلى الخلافة على أنها صراع بين القبائل المختلفة من أجل السلطة ، فازت بها قريش دون وجه حق . مما جعل عمر يسرع إلى عزل خالد من رئاسة الجيش في الساعة التي تولى فيها الخلافة ، كما حاسبه على مامعه من الأموال بمجرد انتهائه من غزو فارس . وكانت مخزوم تفخر بخالد ، فهو سيف الله المسلول والقائد الذي لم يقهر .
كل ذلك يعلل معارضة مخزوم لحكم عمر ، وإسراعها بالهجرة من الجزيرة العربية إلى إثيوبيا .

ولا ندرى كيف قامت هذه الدولة ولكننا لا نستبعد أن يلتف أفراد القبيلة حول زعيمهم ليقيموا منه رئيسا يرجعون إليه في حل مشاكلهم كما كانوا يفعلون في شبه الجزيرة ، حتى إذا أتاحت لهم الثروة والعزة ، انقلبت هذه الرئاسة إلى ملك على نحو ما فعل الأمويون . وكان بعد مقامهم في شوا عن أكسوم وسلطة ملوكها ، هو الذي أتاح لهم هذه الفرصة . ولا يلبث هذا الأمير أو السلطان أن يصبح كالمغناطيس الذي يجذب إليه المسلمين من جميع أنحاء إثيوبيا يلتمسون عنده الأمان والحماية . بل أن يلجأ إليه المسيحيون أيضاً يلتمسون لديه ما يلتمس المسلمون .

وقد حكمت هذه الدولة شوا في الفترة التي تقع بين سنتي (٢٨٣—٢٨٨ هـ) (٨٨٤ — ٢٨٨ م) ولا بد أن طول هذه المدة كان دليلاً على قوتها مما بدعونا إلى اعتقاد استقلالها عن سلطة ملوك أكسوم . وإن كان هذا لا يمنع من قيام صداقة بينهما . على أن المصادر تحدثنا أن ملوك هذه الدولة الإسلامية كثيراً ما كانوا يلجأون إلى ملوك أكسوم طلباً للحماية في حالة حدوث صراع بين

أكثر من منافس على العرش، وكانت هذه الحماية تنتهى إلى مساعدة ملوك أكسوم للملوك المسلمين فى العودة إلى العرش، مما يجعلنا نعتقد أن ملوك هذه الدولة الإسلامية ربما كانوا يرتبطون مع ملوك أكسوم بنوع من الولاء وإن كان إسمياً أكثر منه فعلياً.

ولكن قيام هذه الدولة لا يمنع من أن ينزل مسلمون آخرون فى أجزاء أخرى من إتيوبيا خاضعين لأمراء إتيوبيين تابعين للملك إتيوبيا وهو الذى يتولى تعيينهم وعزلهم. فقد حدثنا المؤرخون وأولهم ابن فضل الله العنبرى عن وجود سبع سلطنات إسلامية أخرى فى شرق إتيوبيا يحكمها من قبل ملك أكسوم حكام مسيحيون، هى إيفات ودوارو واراينى وهديه وشرخا وبالى وداره وكان أهل الأولى شافعية المذهب يشتغلون بالتجارة ومن بلادها زيلع وكان (ملكها) يجلس على كرسى ويركب بالطليل والزمر، كما كانت هدية أكثر الجميع عسكرياً ويقدر عددهم بأربعين ألف فارس سوى المشاة الذين يبلغون ضعف هذا العدد، وسكانها أنشط سكان الساحل فى تجارة الرقيق، وكان ملك أكسوم يحاول دائماً منع هذه التجارة بالتضييق على التجار ومنعهم من خصيمهم فكانوا يقصدون قرية اسمها وشلو أهلها من الهمج الذين لا دين لهم، حيث يخلصون العبيد ثم يحملونهم إلى هديه .

وكانت هذه الولايات تدفع الضرائب السنوية المفروضة عليهم وبذلك إلى ملوك إتيوبيا تتمتع بنوع من الاستقلال الإدارى، وأخذ هذا الاستقلال يؤتى ثماره وكانت عوامله متاحة لهم . أما الثروة فكانت ملك أيديهم بعد أن أصبحوا سادة البحار الجنوبية والبحر الأحمر، وتدقت الأموال إلى خزائنهم، كما كان لهم التفوق الحربى حتى لقد كانوا يتدخلون فى كثير من الأحيان فى سياسة اليمن الداخلية ويكونون سبباً فى إسقاط حكم وإقامة آخر. أما الثقافة فكانت أيضاً تذخر بالمساجد والمدارس، كما كان أهل هذه الولايات يحكم اشتغالهم بالتجارة كثيرى السفر إلى مصر واليمن والهند وكانت هذه كلها مراكز لثقافات نامية مزدهرة .

وكان أثر هذه الدولة الإسلامية التي قامت في شوا ، والتي شغلت مساحة كبيرة في شرق البلاد ، وكذلك هذه السلطنات الإسلامية التي شغلت مساحة كبيرة أخرى أن كوّن للمسلمون شريطاً ساحلياً وقف بين الإتيوبيين والساحل الشرقي فخرمهم الاتصال بالخارج إلا عن طريق العرب وبواسطتهم ، ولم يكن هذا الانقطاع عن العالم الخارجى عارضاً أو مؤقتاً بل استمر باستمرار هذه الدولة الإسلامية والسلطنات الإسلامية الأخرى .

وإذا تذكرنا ما قلناه من قبل من أن الاتصال بالعالم الخارجى هو سبيل القوة والمنعة لإتيوبيا وأن الانقطاع هو سبيل الضعف ، أدركنا مقدار الضعف الذى أصاب السلطة المركزية فى إتيوبيا والذى بدأ ضئيلاً فى أول أمره . ولكنه أخذ يزداد حتى أتى على كل قوتها .

وقد انتهى بها هذا الضعف إلى نتيجه الطبيعية فقد قامت أسرة من مقاطعة لاسنا التي تقع شرقى بحيرة طانا ، واستطاعت بعد مجهود حربي لا نستطيع أن نحكم على مقداره لضآلة ما وصلنا من أخباره ، أن تسقط البيت الأكسومى وتستولى على مقاليد السلطة فى منتصف القرن العاشر الميلادى . وعلى هذا النحو قامت أسرة أخرى .

ولم تكن دعوى هذه الأسرة فى حقها فى العرش الإتيوبى ثقل وجاهة عن دعوى الأسرة السابقة فى حقها فى هذا العرش . فاذا كانت الأسرة السابقة تستند فى أحقيتها عن غيرها فى العرش الإتيوبى على تسلسل ملوكها من منليك الأول بن ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس ، فإن الأسرة الثانية استندت على نفس الحق . وهو أن سليمان قد أوجب ولدين أحدهما من الملكة والآخر من وصيفتها ورئيسة حرسها . وهم نسل هذا الأخير ، ولذا استطاعت هذه الأسرة الجديدة أن تحتفظ بالعرش قرابة ثلاثة قرون ونصف ، تداول العرش فى أثنائها اثنان وثلاثون ملكاً^(١) .

(١) انظر (قصة ملكة سبأ) للدؤلف

وكان أول من جلس على العرش من ملوك هذه الأسرة هي الملكة
جوديت، وتقول الأساطير أنها كانت يهودية الديانة . قطعت علاقاتها الدينية
بمصر . وأرادت أن تبسط ديانتها فخربت الكنائس واضطهدت رجال الدين
المسيحيين وقتلت كثيرين منهم ، ففر الباقون وخلعوا ملابهم الكهنوتية
واختفوا، فخربت الأديرة ونهب ما كان فيها من مخطوطات ثمينة تعب الرهبان
في كتابتها ونقلها من القبطية واليونانية . وهناك تعليل لهذا الاتجاه . وهو
أن هذه الأسرة الجديدة لم تكن يهودية الديانة ، بل أنها استعانت في سبيل
نجاح دعوتها بفريق كبير من قبائل الاجوا الحامية الأصل والتي كانت
لا تزال تحتفظ بديانتها اليهودية القديمة ، فانضموا اليها انتقاما لعقيدتهم القديمة،
وانتقاما لسلطتهم التي ولت والتي غلبهم عليها القادمون الساميون على نحو ما أنضم
الفارسيون إلى الدولة العباسية انتقاما لديانتهم القديمة ولدولتهم التي قضت الدولة
الإسلامية عليها. فاذا ما نجحت في القضاء على الدولة السلجمانية أمعنت في تخريب
الكنائس والأديرة والقضاء على الكهنة والرهبان . ونهب الكتب وحرقتها
وإتلافها . ولم تكن هــ سياسة الأسرة ، لأن الملكة الأولى لم تكذب تودع هذه
الدنيا، بعد أن حكمت أربعين سنة (٩٤٠ - ٩٨٠) حتى عمل خليفها تكلاهيانوت
(٩٨٠-٩٩٥) على إعادة الحال، إلى ما كان عليه ، فرد إلى الكنائس والأديرة
حريتها وأرسل إلى مصر يطلب عودة العلاقات الدينية بين الكنيستين إلى ما كانت
عليه، ويسأل إعادة تعيين المطران المصري كي يكون رأساً للكنيسة الإثيوبية. وكانت
هذه الوفادة عن طريق ملك النوبة المسيحي المسمى زكريا . فقدم الأنبا دانيال
واستقبل حين وصل إلى لاستا استقبالا وديا بل حماسيا ^(١) .

وإذا كان كبر انجست قد احتفظ بأسماء ملوك هذه الأسرة ، فإنه لم يحفظ
لأحد منهم ذكر سوى سابعهم المسمى لاليبالا الذي اتخذ لنفسه حين اعتلى العرش اسم
جبراما سقال (معناها خادم الصليب) وكان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله .

(١) انظر (كنية الاسكندرية في أفريقيا) للمؤلف

وأثر عنه حبه للسلام ورغبته في تقدم شعبه، كما أثر عنه اهتمامه برجال الدين وتعمير الأديرة والكنائس، حتى لقد أمر ببناء عشر كنائس في أنحاء مختلفة من البلاد، مازال بعضها باقياً حتى الآن . فلا غرابة إذا أحبه الإتيوبيون وأطلقوا عليه اسم سليمان الثاني ورفعوه بعد موته إلى مرتبة القديسين ، وألقوا حوله كثيراً من القصص والمعجزات التي أنها قيل حدثت له ، سواء قبل ولادته أو أثناء حياته أو بعد موته .

وكان ما لقيه المسيحيون في مصر أيام الحاكم من اضطهاد وسوء معاملة، مشجعاً للكثيرين منهم على الهجرة من البلاد لاسيما وقد سمح لهم الحاكم بأمر الله بها، فقصده كثيرون منهم إلى أقصى الصعيد حيث استقروا في إقليم أسوان ، وأمعن بعضهم في السير جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة . واستقروا هناك أيضاً . وازداد بعضهم إمعاناً في الهجرة فقصدوا إتيوبيا . وكان بينهم كثيرون من العمال المهرة وبذلك كان هذا الاضطهاد سبباً في خراب البلاد الاقتصادي وفقدها كثيراً من الأيدي العاملة التي استعان بها لاليبالا في إقامة كثير من مبانيه ومنشآته . فكانوا سبباً في ازدهار الصناعات والحرف والفنون لاسيما فن البناء . وما زالت بعض كنائس لاليبالا باقية حتى الآن في أكسوم وهي محفورة في صخور الهضبة (انظر شكل ٨) تشهد ببراعة المصريين في هذا الفن الذي ورثوه عن أجدادهم، يوم كانوا يحفرون معابدهم ومقابرهم في الصخور، ومن الطبيعي أن يتصاهر هؤلاء القادمون مع الإتيوبيين فتزوجوا منهم وما زال سكان الهضبة الوسطى في إتيوبيا يحتفظون بدمائهم المصرية التي تظهر على ملامحهم .

ولم تكن قوة أسرة الأجويين ، رغم استمرار حكمها لمدة ثلاثة قرون ونصف، لتزيد كثيراً عن قوة المتأخرين من ملوك الأسرة السابقة فلم تمتد سلطتهم إلى أكثر من هضبة لاستا وما حولها . ولكن رغم ذلك تسلل نفوذ هذه الأسرة شرقاً عبر الصحراء الشرقية وعبر مملكة شوا الإسلامية فامتد إلى الممالك

الإسلامية التي تقع في الركن الجنوبي الشرقي من الهضبة والتي قلنا أنها كانت سيع سلطنات تولى عليها الدولة سلاطين من المسيحيين ولكن هذه السلطة لم يكن لها من مظهر سوى تعيين هؤلاء السلاطين دون نفوذ حقيقي عليهم .

هذا في الوقت الذي ظلت فيه هضبة جودجام والركن الجنوبي الغربي من الهضبة خارجتين تماما عن سلطتها وهي الأجزاء التي يدعى ملوك الأسرة السلمانية السابقة والتي قامت بعد ذلك في القرن الثالث عشر، أنهم كانوا يحكمونها بعيدين عن سلطة ملوك لاستا . إذ يقولون أن أحد أمراءهم قد تمكن أن يفر من المذبحة التي شنها عليهم ملوك لاستا وفر إلى هناك (جودجام) حيث استقبله الأهالي واعتبروا به ومكنوه هو ونسله من بعده أن يحكم مدة الثلاثة قرون التي عاشتها الأسرة الأجوية في لاستا حتى أتاحت له الظروف التي تمكن فيها من أن يظهر ويقضى على أسرة لاستا .

الفصل الرابع

الأسرة السلیمانیة

كان ضعف الأسرة الأجوبة وهجز ملوكها عن نشر نفوذهم لأكثر من الهضبة الشرقية حيث عاصمتهم لاستا ، والولايات الإسلامية الشرقية ، التي كانت تعترف لهم بالسلطة لقاء ما يدفعونه من جزية فرصة للطامعين . فظهر في شوا من يدعى يكونو أملاك مدعيا نسبا إلى الأسرة القديمة ليحاول استرداد العرش. ويقول أنصار هذه الأسرة أن الأسرة السلیمانیة القديمة قد هربت أمام الأسرة الأجوبة واستقرت في شوا . لا تحاول أن تلفت إليها النظر وإن كان رؤساء الأسرة يتداولون رئاستها، محافظين على تسلسلها حتى إذا سنحت الفرصة للملائمة انتهزها أحدهم وهو يكونو أملاك ليعلم نفسه ملكا مستعيد بذلك الساطة القديمة وكان يكونو أملاك قد استعد لهذا اليوم وأعد له عدته وكانت هذه العدة تنحصر في :-

أولاً : تقربه إلى رجال الدين بعد أن أظهر لهم مافعله الملوك المتأخرون من الأسرة الأجوبة من إهالها الصلة بين الكنيسة الإتيوبية والكنيسة المصرية حتى انقطعت منذ أكثر من أربعين سنة . فإعادة الأسرة القديمة إلى مكانها من العرش الاتيوبي هو الوسيلة لإعادة هذه الصلة . فكانت نتيجة هذا التقرب أن عقد يكونو أملاك مع تكلاهيمانوت رئيس رهبان دير دبرا ليبانوس اتفاقا يتلخص في وعد يكونو أملاك بإعادة العلاقات الدينية مع كنيسة مصر ، والعمل على استدعاء مطران مصرى يقوم بتتويجه اعترافا منه بسلطة الكنيسة عليه . وأن يقدم هبة للكنيسة هي ثلث أراضي الدولة لتمكن بدخلها من اداء رسالتها على أتم وجه وأن ينصب تكلاهيمانوت رئيساً للرهبان الإتيوبيين ويطلق عليه لقب (اتشيجى) على أن يكون هذا للنصب وقفا على

رئيس دير دبرالبانوس . ويكون ممة وصل بيت المطران المصرى والا كليروس الإتيوبي . كل ذلك لقاء أن يقوم تكلا هيانتو بيت الدعاية لهذه القضية بين رجال الدين ، فينصرونه . وإذا اقتضى الأمر يساعدونه على تهيئة الرأى العام الإتيوبي لقبول دعوته والوقوف فى صفه . وتقول سيرة القديس تكلاهيانوت أنه تمكن من أن يتصل بآخر ملوك الاجويين المسمى نكويتا لأب فى لاستا ، ويقنعه بالتنازل عن العرش لأصحابه الأصليين ، ويبدو أن هذا الاقتناع لم يتم إلا بعد أن اتخذ طابع التهديد ، لأنه استطاع أن يجند من أهالى ست ولايات فى شمال إتيوبيا جيشا وقف إلى جانبه حتى حصل على هذا التنازل .

وتقول شروط هذا التنازل أن يحتفظ ملوك الاجويين بولاية لاستا ، وأن يكون لهم عرش ذهبي كعرش الامبراطور ، وأن تكون لهم طبول محلاة بالفضة . وأن تكون لهم شارارات ملكية مصنوعة من الفضة أيضا .

ثانيا : ويبدو أن هذه الوسيلة السلمية لم تكن كافية ، لأن يكونوا أملاك اتفق مع من يدعى عمر لسمع الذى هو أحد كبار التجار المسلمين فى ايفات ، على أن يمدّه هذا الأخير بجيوش مسنة كاملة العدة ، لقاء أن يطلق لعمر ولسمع حربه الاغارة على شوا الاسلامية ليستقط يتها للمالك ويضم شوا إلى ايفات . وينصب نفسه سلطانا عليها ، على أن يكون تابعا للامبراطور ويملك حرية التصرف فى الولايات الاسلامية كلها فيكون بذلك أول وال مسلم بلى هذه السلطنات الشرقية .

وبدأ عمر ولسمع العمل فعلا ، بأن قدم الجيوش الإسلامية المدربة ليستعين بها يكونوا أملاك . وعمل هو من ناحية أخرى على القضاء على مملكة شوا . التى كان قد تسرب إليها الضعف والوهن ، وأخذ أمراؤها يقتافسون على عرشها ، ويتداوله كل واحد منهم لفترة من الزمن . فبدأ عمر ولسمع بأن قدم إحدى بناته زوجة للداره أحد الأمراء المتنافسين على العرش . ونصره بالجيوش حتى جلس على

العرش، ولكن لم يلبث هذا أن قتل . فلم يكن ذلك ليثنيه عن أن يدفع بغيره إلى الثورة ، وكثر الثائرون وتقاتلوا وكانت الظروف تساعد على ذلك .

وتداول عرش هذه المملكة خلال المدة البسيطة التي وصلتنا أخبارها أربع أسرات ، ما كانت واحدة منها تهناً به وتنصرف إلى ما فيه مصلحتها أو مصلحة الشعب، إلا لتقوم عليها إحدى الأسرات الأخرى. هذا في الوقت الذي كان يهددها فيه من الخارج سلطان ايفات ويفزوها المرة تلو الأخرى . حتى استطاع أخيراً أن يقضى على استقلالها ويضمها إلى بلاده .

كان على عرشها سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٤) عبد الله الخزومي حين ثار عليه من يدعى عبد الله بن محمد بن حسين ، وقبض عليه وسجنه واعتصب منه العرش ثمانية عشر عاماً . وأورثه لابنه مازره سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) فثار عليه السلطان جنبه واستولى على العرش، ولم يمض على جلوسه عام واحد ، وقد استطاع هذا الأخير أن يقبض على ناصية الحال ويورث العرش للسلطان جيرام غازي . ولكن يبدو أن هذا الأخير كان ضعيفاً إذ ثار عليه كثيرون منهم أخوه دلجامس ونجحت ثورته إلى حد ما . ولكن لم يهنأ بثورته ، إذ ثار عليه صاحب موره الذي بلغت ثورته حداً اضطّر الأمراء والوزراء معها إلى الهرب من العاصمة . كما ثار عليه صاحب جداية وصاحب دجين وهي كلها أقاليم تقع في الشرق من دولة شوا وتجاور إقليم ايفات .

وما كاد السلطان جيرام غازي يفرغ من ثورتهم حتى كانت قوته قد انهدكت، واستطاع دلماره ابن مازرة السلطان السابق الذي ورث العرش من عبد الله بن محمد ابن حسين، الذي ذكرنا من قبل أنه كان زوجاً لابنة عمر ولسمع ، أن يستولى على العرش في صفر سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) فهرب دلجامس وأثار البلاد على هذا السلطان، فاستعان ابن دلماره بمجده عمر ولسمع سلطان ايفات فقدم إلى شوا وحرق (م - ٥ - اتيوبيا)

العاصمة في صفر سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م)، ثم أخذ بعد ذلك بيدل المال يساعده الناقين أو الطامعين ، وامتدت هذه المساعدة المالية إلى المساعدة الحربية ، حتى إذا وجد أن الكثرى قد نضجت، لم يتردد في الدخول إلى الميدان صراحة . فأرسل الجيوش بقيادة ولديه على ثم صبر الدين ، بحجة مساعدة صهره دلارة ، فدخلها وأحرق عاصمتها . ولكن منافساً جديداً هو دجلانس نجح في عزل دلارة وجلس على العرش للمرة الثانية في شوال سنة ٦٧٧هـ وهرب دلارة إلى صديقه إمبراطور أتيوبيا يطلب مساعدته ، فأمر هذا تابعه عمر ولسمع أن يسير لذلك فصار إلى شوا واقتطع أجزائها الشرقية . ولم يمنعه موت دلارة صهره وصاحب الحق الشرعى في سنة ٦٨٢هـ من إتمام الفتح الذي استغرق ست سنوات وانتهى بعزل دجلانس وانتهاء حكم أسرته في شوا وضمها نهائياً إلى ايفات سنة ٦٨٨هـ .

وقبل أن يجلس عمر ولسمع على عرش شوا كان يكونو أملاك قد نجح في القضاء على أسرة أجوا بالوسائل السلمية حيناً والحربية حيناً آخر حتى جلس على عرش إتيوبيا ونقل عاصمته إلى تاجيلاط في وسط إقليم شوا حيث عشيرته وكان ذلك سنة ١٢٧٠ م . وتصر المصادر الأتيوبية على أن تطلق على يكونو أملاك اسم مجدد الأسرة السلمانية .

وإذا كان عمر ولسمع قد كوفىء بعرش ايفات بعد أن ضم إليها شوا، فقد كوفىء تكلاهيا فوت بلقب اتشيجى وثلاث اراضى الدولة . بل رفعت الأسرة السلمانية إلى مرتبة القديسين وألفت في حياته كتاباً ضخماً ذكر فيه أنه من نسل صادق الكاهن الذى أرسله سليمان ملك بيت المقدس مع ابنه منليك الأول ليكون كاهن مملكته الجديدة . والقديس تكلاهيا فوت هو القديس الوحيد الذى وافقت الكنيسة المصرية على أن تضع اسمه ضمن القديسين الذين تعترف بهم الكنيسة المصرية .

وصرف يكونو أملاك ما تبقى له من العمر في تثبيت قواعد دولته. بالقضاء على المنافسين، وبذل المساعدة لعمر ولسمع للقضاء على شوا الإسلامية ولذا طارت شهرته إلى العالم الإسلامي وخاصة مصر بأنه (حارب المسلمين) كما عمل على إعادة العلاقات الدينية مع مصر ، وإذا كان قد نجح في غرضيه الأولين تثبيت قواعد دولته والقضاء على دولة شوا الإسلامية إلا أنه فشل في الوصول إلى غرضه الثالث وهو إعادة العلاقات الدينية مع مصر. فكاد الأمر أن ينقلب عليه بسبب هذا الفشل لولا أن توفي وأسرع ابنه ينجيا صيون ليكمل هذا السعى حتى نجح فيه . وتفصيل ذلك أن يكونو أملاك أرسل إلى مصر يطلب تنصيب مطران مصرى .

ويبدو أن يكونو أملاك حين أرسل إلى مصر يطلب مطراناً ، لم يكن واثقاً من إجابة طلبه فقد اكتفى الوفد بالسفر إلى اليمن وأرسل ما كان معه من كتب كانت مكتوبة باللغة العربية إلى كل من البطريك والسلطان الظاهر بيبرس، مع رسول خاص إلى القاهرة . وكانت غزوات عمر ولسمع لشوا مستعينا بالجيوش الإمبراطورية قد وصلت إلى القاهرة وفسروها تحت تأثير من قدموا من شوا إلى مصر يطلبون معونتها على أنها هجوم من يكونو أملاك على المسلمين. كأن الوفد لم يحمل معه الهدايا المعتادة بل وعد بارسالها في حالة إجابته إلى طلبه، فرفض السلطان بيبرس السماح للبطريك بتنصيب المطران. وكان هذا الفشل سبباً في تعقد الأمور في أثيوبيا. ويبدو أن التعقيد وصل إلى حد التهديد بالخروج من طاعة الإمبراطور وربما اشترك رجال الدين الوطنيون في هذا التهديد بعد أن رأوا يكونو أملاك يخل بوعده الذي أعطاه للقديس تكلا هيمانوت، فلم يجد يكونو أملاك بداً من البحث عن مخرج له من هذه الأزمة. فوجده في اللجوء إلى بطريك انطاكية السرياني يسأله تعيين مطران . وقد لجأ يكونو أملاك إلى هذا البطريك بالذات لأن كنيسة

انطاكية تتفق مع كنيسة مصر في العقيدة . منذ أن اختلفت مع غيرها *
من الكنائس في القرن الخامس .

وكانت الجفوة قد حدثت في هذا الوقت بين كل من بطريرك الاسكندرية
الأنبا كيرلس الثالث وبين بطريرك السريان . إذ كان الأول قد عين مطرانا مصرياً
لرعاية المصريين الذين يقطنون بيت المقدس، وكان تنصيب المطران على هذه المدينة
من اختصاص بطريرك أنطاكية . فإذا ما لجأ يكونو أملاك إلى بطريرك
أنطاكية السرياني يسأله تعيين مطران لأنبوسيا بادر بإجابة الطلب حيث وجدها
فرصة يرد بها اعتداء بطريرك الاسكندرية عليه . وما أن وصل المطران الجديد
حتى أسرع يكونو أملاك يطلب منه تنويجه . وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي
اختلفت فيها بطريركية الإسكندرية مع بطريركية أنطاكية .

ولكن سير الأمور على هذا النحو لم يرض الأنبيوسيين المتسكين بأبيهم
بطريرك الإسكندرية . ولا الأكليروس الذي كان يكونو أملاك قد اتفق معه
على إعادة العلاقات الدينية مع مصر، كشرط من شروط نصرتهم له . كما يبدو
أيضاً أن هذا المطران السرياني لم يرع الأمانة حق الرعاية إذ أسرع بجمع المال
ويحتزنه لنفسه ، مما زد في غضب الأنبيوسيين . فما أن مات يكونو أملاك حتى
أسرع ولده يجيبا صيون يرسل وقدأ جديداً إلى القاهرة برئاسة رجل مسلم . هو
عبد الله بن يوسف ، كي يكون ذلك أدعى إلى سهولة تفاهمه مع ولاية الأمور فيها،
وحمله خطابين وهدايا كثيرة . وكان أحد الخطابين موجهاً إلى السلطان قلاوون
يسأله أن يسمح للبطريرك بتنصيب مطران ، وكان الثاني موجهاً إلى البطريرك
المصري يؤنس الثامن يسأله الصفح عن الجفوة التي ارتكبها أبوه . ويتذلل إليه
كي يرضى بإرسال المطران فيكتب إليه قائلاً « رجو أن لا تسمحوا بخراب
مكثتنا وترسلوا لنا مطراناً - كمهدنا بكم - لا يقتنى ذهباً ولا فضة » فأرسل

إليه الأنبا سلامة الثانى ففرح به الأثيوبيون فرحاً لا يوصف . واستقبلوه استقبالا حافلا . ونثروا على رأسه فى الكنيسة الذهب الكثير . ومات مجييا صيون سنة ١٢٩٤ والبلاد رافلة فى حلل السلام والرفاهية . فقد رضى رجال الدين ورضى المسيحيون معهم وانصرفوا إلى شئونهم يصرفونها فى أمن وطمأنينة ورضى المسلمون تحت إمرة سلاطينهم المسلمين ، بعد أن حرصت الأسرة السلجمانية الجديدة على أن يكون حكام الولايات الإسلامية مسلمين . طالما يعترفون بسلطة الأباطور عليهم . وانصرفوا أيضاً إلى تجارتهم يصرفونها كما يشاءون . كما انصرفت تطارد القرصان وتبعدهم عن البحر الأحمر والمحيط الهندى لتجعل التجارة آمنة إلى مكة وسواكن وعيذاب فى الشمال . وإلى شرق أفريقيا وزنجبار فى الجنوب . وجلس عمرو لسمع على عرش إيفات بعد أن أكمل القضاء على دولة شوا وأورث هذا الملك لبنيه من بعده . وتقول المصادر الإسلامية أنه أنجب من البدين ثلاثمائة ومن البنات ثلاثمائة وستين . وانتخت من هؤلاء جميعاً أربعين ولداً . ثم انتخب من بين هؤلاء الأربعين أربعة فقط هم الذين جلسوا متعاقبين على العرش من بعده . ثم من بعدهم إلى أبنائهم .

وكانت التجارة مع البلاد الأجنبية أهم ما يحترف هؤلاء المسلمون ، ولم تكن هذه التجارة التى تنقلها سفنهم رغم صغر حجمها يسيرة ولا قليلة ، فقد اشتملت على التوابل القادمة من الهند ، والجواهر من سيلان . والقرنفل وخشب الصندل من الهند الصينية ، والفلل من ملبار ، والنحاس من كلبانا وبالقرب من بمباى ، والمسك والكشمير من السند ، والحرير الخام والصبى من الصين ، واللبان والبزور وسن الفيل من أثيوبيا . وأقبل ، أهل جنوا وكذلك أهل البندقية إلى أسواق القاهرة يستقبلونها ، ويحملونها على سفنهم إلى أوروبا ، ويدفعون فيها ما يطلبه التجار المسلمون . والحق أن هذه التجارة كانت فى ذلك الوقت مصدر ثروة

ليست بالهينة للقاهرة ودولة الممالك في مصر . إذ كان قيام الحروب الصليبية وإنشاء الولايات الصليبية في الشام قد قضى على سير هذه التجارة إلى أسواق الشام ، فانصبت كلها إلى أسواق القاهرة فازدحمت بها إلى حد التضمة .

وتتابع ملوك الأسرة السلمانية بعد مجيىاصيون ومن أشهر ملوك هذه الأسرة عمداصيون (١٣١٢ — ١٣٤٢) وداود (١٣٨٠ — ١٤١١) وزرء يعقوب (١٤٢٤ — ١٤٥٨) ولبسا دنجل (١٤٦٤ — ١٥٤٠) وسوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر هؤلاء الملوك يجب أن نبه إلى حقيقة جديدة بالتنويه وهى أن نظام الحكم فى اتيوبيا كان فى ذلك الوقت ملكيا استبداديا ، لأن الإمبراطور كان يستند فى حكمه على حق الهى ورثه عن تسلسل من منليك الأول بن سليمان . ولذا أصبح لقبه التقليدى (الأسد المنتصر . الخارج من سبط يهوذا المختار من الله . ملك ملوك اتيوبيا) ولكن ليس معنى هذا أن يتبدل نظام الوراثة إلى الإبن الأكبر فالأ أكبر ، بل إلى الأقوى . وإذا نجح أحدهم فى الوصول إلى العرش ، فلن يملك عليه إلا بمقدار ما يستطيع المحافظة عليه من الطامعين ، ولذا كان أول عمل لكل إمبراطور يرقى العرش ، أن يعمد إلى اخوته جميعا فيقبض عليهم ويسجنهم كما يسجن جميع أعمامه وكل من يرى فيه علامة ثورة من اقربائه . ولم تسكن إتيوبيا فريدة فى هذه الحال . فقد عانت مصر تلك الحالة أيام دولتى الممالك وكذلك الدولة الرومانية الشرقية حين كان القائد القوى يحتال لغرض الوصول إلى العرش بالزواج من أخت الإمبراطور الضعيف أو أرملته . كى تكون له حجة شرعية لا تقل عن حجة خصومة . وكذلك كان الحال فى دولة الأتراك العثمانيين التى قامت على القوة وعاشت على القوة . وكذلك كان الحال فى اليمن خلال حكم دولة بنى نجاح والدولة الرسولية .

وكان الإمبراطور يحاط بمحاشية كبيرة غالبا ما تكون مزدوجة . كما يقوم إلى جانبه مجلس القضاة . ويتكون من اثني عشر قاضيا يستشيرهم الملك في الهام من الأمور . لاسيما عند إعلان الحرب . وإن كان رأيهم استشاريا بحثا . إذ يملك الإمبراطور حق مخالفته ، وكانت مناقشات مجالس الحرب تدور دون حضور الإمبراطور ، بل يظل كرسيه خاليا على رأس المائدة المستديرة التي يجلس حولها القضاة . ولكن يحمل قرارات المجلس إلى الإمبراطور موظف خاص يسمى (افانجوس) أى فم الملك .

وقد حكم الإمبراطور عداصيون ثلاثين سنة (١٣١٢ — ١٣٤٢) قضى نصفها الأول لا يعرف لمذاته حدا يقف عنده مهما كانت منافية للعرف أو الأخلاق . فلم يحجم عن معاشرة خليات أبيه ولم يتعفف عن إغتصاب أخته مما اثار عليه سخط رجال دولة . وعلى رأسهم رجال الدين . فهددوه بتوقيع الحرمان عاياه وتوقيع الحرمان على الإمبراطورية يؤدي إلى خلع الناس واجب طاعته فكان أن قامت الحرب بينه وبين رجال الدين ولكنه لم يكذب يسمع بازدياد سلطة (الشفتا) أى قطاع الطرق واجتياحهم الأجزاء الشرقية من البلاد وهجومهم على القرى لتهبها واختطاف رجالها من أجل تقديمهم إلى تجار الرقيق^(١) حتى أفاق لنفسه ومضى إلى محاربتهم حربا لا هوادة فيها ولا لين . امتدت إثني عشر عاما . لا يهدأ ولا يلين . مما اضطرهم إلى الهرب من البلاد .

ونشأ داود — كاعلب أسلافه متمرسا على الحرب محبها . ولكنه جمع إلى ذلك أفقا منسعا دفعه إلى إقامة علاقات ودية مع من يجب أن يرتبط بهم من الملوك من أجل صالح بلاده ، فأرسل إلى السلطان برقوق كتابا مملوءا بعبارات الود والصدقة . مشفوعا بهدية كبيرة حملها إلى مصر عشرون جملا . فقبلت الهدية كما قبل الوفد الذى سافر بها إلى مصر بما يليق بمرسالها من التجلة والإحترام . ورد السلطان عليه ردا جميلا وكان من أثر هذه الصدقة أن أحسن

(١) أنظر مقال (الشفتا) لابويا منذ العصور الوسطى) للمؤلف بمجلة كلية الآداب .

السلطان برقوق معاملة المسيحيين في مصر بعد أن أساءها من قبله. وخاصة محمد بن قلاوون. ثم جهز هدية مما خف وزنه وغلائمه وأرسلها إلى أتيويا ردا على هديته. وكان من أثر ذلك أن تحسنت العلاقات بين الدولتين. ولإزداد عدد الأتوبيين الذين يقصدون بيت المقدس كل عام وكانوا دائما يجتازون مصر في طريقهم إليها. كما أرسل أيضا إلى البندقية وفادة ممن يدعى انطوان بروشيلي يطلب إقامة علاقات بينهما فقد كان تجارهاهم الذين يتولون نقل التجارة الهندية في أوروبا بعد أن يتسلموها من الاسكندرية كما كانت لهم بضع مصانع في بعض مدن سوريا كحلب لصنع المصنوعات من نتاج بلاد فارس.

وكانت تجارة الرقيق مجزية إلى حد كبير إذ الحث في طلبه فارس ومصر والشام وجزيرة العرب واليمن والعراق وأوروبا بل والصين. وكانت البيوت المالكة في اليمن وخاصة ملوك الدولة الرسولية تكثر من تجنيد الجند من الرقيق الأتوبيين. لحسن بلائهم في الحرب. وكانت جزر الدهلك وصنعاء من أهم اسواقهم وكانوا يدفعون فيهم أثمان تعوض على تجاره جميع ما يصرفونه. ويتكبدونه بل أكثر مما يصرفون ويتكبدون. فسرعان ما أغرى سلاطين اليمن تجار الرقيق على زيادة نشاطهم. بل لم يترددوا عن مدمم بالسلاح. وانضم إليهم سلاطين الولايات الإسلامية في أتيويا وأخذوا على عاتقهم قيادة حملات الجلايين.

ويذكر لنا المؤرخون الذين ارخوا الحركة الرقيق وتجارته، أن تجار الرقيق كثيراً ما كانوا يثيرون السلاطين على بعضهم، من أجل أغراضهم الخاصة، بل كانوا لا يترددون عن أن ينتقلوا بقوتهم من سلطان إلى آخر، ما دام ذلك في مصلحتهم، وكان تجار الرقيق خلال هذه المدة من تجار اليمن الذين يجمعون الرقيق في مراكز على الشاطئ، حتى تقدم سفهم فتحمله إلى حيث تشتد الحاجة إليه، فكان هؤلاء التجار هم الذين يدفعون تكاليف هذه الحملات، كما يدفعون بالانابات السنوية السخية إلى

السلطين ، حتى يشتط هؤلاء فى الإغارة على اعدائهم ، أو فى تحدى سلطة الحكومة المركزية .

وأول من تحدى سلطة الحكومة من سلاطين الولايات الشرقية الاسلامية هو سلطان عدل (بفتح العين والدا ل) ، وهى سلطنة حديثة قامت حول أوسا فى أوائل القرن الرابع عشر ، وكان يسمى صبر الدين ، إذ قام وقتل موظفا أتوييا فى زيلع ، كان يشرف على تدبير المصالح التجارية وتيسير أمور التجار ، ويبدو أنه كان التجادى راس أى الراس الذى يشرف على التجارة والتجار ، ويحصل الرسوم ويمنع سفر الرقيق . ويبدو أن سلطان عدل وجد نفسه ضعيفا إزاء تحدى الحكومة المركزية، فكتب إلى سلطان هديه، الذى كان أقوى إخوانه وأكثرهم خيلا ورجلا كما ذكرنا واشدهم بأسا فخرج معه ، فلم تكده هذه الأخبار تصل إلى الامبراطور حتى أسرع وسار إلى هديه ، وقبض على سلطانها وأرسله مخفورا إلى تاجيلاط بينما تابع هو سيره إلى صبر الدين ، ففر هذا أمامه فدخلت الجيوش الامبراطورية عاصمته أوسا فقبضت عليه وأرسلت به إلى العاصمة ولكن الامبراطور لم يلبث أن عفا عنه وأعادته إلى مكانه .

وكأن هذا العفو قد أغرى أخاه السلطان الجديد جمال الدين على الثورة ، كما أغرى آخرين إذ كاتب سلطان عدل - مرة أخرى - سلطان إيفات يغريه بالثورة على سيده الإمبراطور واستجاب هذا الأخير لإغراء زميله سلطان عدل ، ولكن الإمبراطور نجح مرة أخرى فى القبض على ناصية الحال . وعزل جمال الدين سلطان عدل وولى مكانه أخاه نصر الدين ، كما عزل على ابن صبر الدين سلطان إيفات وولى مكانه ابنه أحمد حرب أرعد وأقام على عند الإمبراطور ثمان سنين رضى عنه فى نهايتها وأعادته إلى ولايته بعد أن عفى عنه ، وأرسل يطلب ابنه أحمد حرب ارعد ليقم فى العاصمة ، هذا فى الوقت الذى

اعترف جمال الدين ، أنه لم يثر ولم يقم ضد سيده ، إلا تحت تأثير من يأتونهم من تجار جزيرة العرب بغروهم بالمال .

وتولى على بن صبر الدين ولايته الثانية في إيفات وطالت مدته حتى اعتلت صحته ، فأشرك معه في السلطة ولده أصفح الملقب بالملأ وكان أصغر أبنائه واحبهم إليه ، فأغضب ذلك حق الدين الابن الأكبر لابنه الأكبر أحمد حرب ارعد ، وكان أبوه قد تركه في إيفات حين سار إلى الامبراطور ، فلم يلبث أن أظهر العداء لجدّه ، وكان ملا أصفح يكده . ويمتته مقتاً شديداً وكان سبب هذا المقت أنه كان يجتمع بالناقين على عمه وجده وبتجار الرقيق الذين أضرت الحكومة بمصالحهم وبتجارة اليمن الذين كانوا بها جرون إلى أتيويا فيحرضون أهلها وحكامها على الخروج على طاعة الملوك (الكفرة) .

ولم يلبث حق الدين أن رفع راية الثورة على عمه وجده ، فأرسل هذا إلى الامبراطور يخبره الخبر ويطلب النجدة ، وسار حق الدين إلى إيفات وخرج عمه للملاقاته ، فهزمه حق الدين وقتله ، وواصل سيره إلى إيفات وفيها جده على ، وقد كبر واشتد حزنه على ولده ملا أصفح فحق على حفيده وأمر بطرده ، فسار إلى شوا وأقام في مدينة تدعى وحج وانزل بها من تبعه من أهل إيفات .

وكان انتصار حق الدين بن أحمد حرب يعنى انتصار الشفقا وقطاع الطرق وتجار الرقيق ، ومات الامبراطور نوايا كرسطوس . ثم ابنه نوايا مريم ومازال حق الدين واتباعه في أقصى سلطتهم . وعمل الامبراطور داود على القضاء عليهم والحد من نشاطهم حتى استطاع أخيراً أن يظفر به ويقتله .

ولكن موت هذا الناصر لم يكن يكفي لأن تعود البلاد إلى هدوئها . فقد ورثه في قيادة جماعته أخوه سعد الدين ، الذي كان يلقب بأبي البركات فظل

يقود الثأرين مدة ثلاثين سنة، أعطت إسمه لشرق الهضبة الاتيوية المتاخم للساحل فاصبح يعرف ببرسعد الدين . ولكنه قتل أخيراً في سنة ١٤٠٣ م بعد أن حوصر في زيلع ثلاثة أيام . وكان سعد الدين خلال هذه الثلاثين سنة مثالا للنهاب السالب ، الذى لا يتردد عن نهب كل ما يقع في طريقه .

وعاد الهدوء ينجيم على أتيويا بعض الوقت ولكنه كان هدوءاً مؤقتاً ، إذ كان سعد الدين قد ترك عشرة أبناء خرجوا جميعاً إلى اليمن ، بعد موت أبيهم وهناك عاشوا في كنف الملك الناصر أحمد بن اسماعيل الأشرف ، الذى أخذ يدبر لهم أمرهم ويهيئهم للعودة إلى اتيويا ، ليأخذوا بثأر أبيهم . فعادوا والحكومة تتلقفهم واحداً بعد الآخر وتعمل على سحقهم . وظلت ثورتهم أو ثوراتهم المتعاقبة ثمان سنين أخر . تمكنوا في خلالها من قتل الملك اسحق سنة ١٤٢٧ م ولكن تمكن الإمبراطور زرء يعقوب أخيراً من القضاء عليهم بقتل آخر اثنين منهما . وهما جمال الدين ثم شهاب الدين سنة ١٤٣٠ م . وكان قد انضم إليهما بدلاى حاكم دوارو ويامو حاكم هدية .

وكان الإمبراطور اسحق أول من دون إيرادات الدولة ومصرفاتها في أبواب منتظمة . بعد أن أشار عليه بذلك قبضى يدعى نجر الدين ، قسداً إلى اتيويا من مصر ضمن أقباط كثيرين وفدوا إليها للعمل في التجارة بعد أن ساءت معاملة سلاطين الممالك لهم في مصر .

وكان الإمبراطور زرء يعقوب الابن الرابع لداود (١٤٥٤ - ١٤٦٨) هو الذى صمم على القضاء على عصابات قطاع الطرق ومعهم تجار الرقيق وكان معظمهم من سكان الولايات الشرقية . الذين استغلهم تجار اليمن لأجل إيقاع الإضطراب في البلاد . ليكنهم ذلك من ممارسة أعمالهم المنكرة من خطف الرقيق في أعداد كبيرة من أجل تصديرهم إلى أسواق الرقيق كما كانت البيوت المالكة

فى اليمين وخاصة الدولة الرسولية تكثرت من تكوين الجند من الرقيق الأتيوبيين
لحسن بلائهم فى الحرب . فكانت جزر الالهك وصنعاء من أهم أسواقهم
كما ذكرنا ، فوجد أن خير وسيلة لذلك هى الاتصال بالخارج لطلب النصرة .
فأرسل إلى البابا بصفحة ما يضره هؤلاء الأعداء من نية القضاء على المسيحية
بسبب الأهالى للمسيحيين بغرض بيعهم فى الأسواق . وكانت الدولة الرومانية
الشرقية فى ظروف لا تقل عن ظروف أتيوبيا سوءا من حيث إحاطة الأتراك
العثمانيين بها . يحاولون الاستيلاء على أملاكها جزءا جزءا . بل يهددون العاصمة
ويثيرون القضاء على الدولة . فلم يجد امبراطورها بدا من أن يذل بنفسه كبرياء
الكنيسة الشرقية . بأن يرسل إلى البابا تطلب معونته لقاء خضوع الكنيسة
الشرقية لسلطة البابا . ودعا الإمبراطور جون الثامن لهذا الغرض مؤتمرا عقد
مدينة فلورنسا لغرض اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . لقاء أن يدعو البابا
ملوك أوروبا إلى حملة (صليبية) لانتفاذ القسطنطينية من خطر الوقوع فى يد
الأتراك المسلمين . فأنتهز زرع يعقوب فرصة هذا المؤتمر وأرسل إليه سفارتين
خرجت أولاها من مصر يمثلها الأب اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس
فى الوجه القبلى وخرجت الثانية من القدس يمثلها الأب نيكوديم أحد رهبان
دير السلطان . وتقابل المبعوثان فى الطريق واتجها معا إلى المؤتمر . بعد أن مثلا
فى حضرة البابا أوجين الرابع فى الواحد والثلاثين من شهر أغسطس سنة ١٤٤١ م .
وفى أثناء مناقشة المؤتمر تكلم المندوبان الأتيوبيان فشرحا للمجتمعين أن لا خلاف
مطلقا فى العقيدة بين الكنيستين الشرقية والغربية سوى مسألة طبيعة المسيح
وقد علمنا خيرا وصول هذين المندوبين الأتيوبيين إلى هذا المؤتمر عن طريق صورة تمثلهما
فى حضرة البابا وهى محفوظة الآن بمكتبة الفاتيكان فى روما ، وشفع زرع يعقوب
هذه السفارة بتأسيس دير أتيوبى فى سان ستيفانو بجوار روما . ولكن قرارات
المؤتمر بشأن أتيوبيا لم تتمدد حد الكلام ، وفى نفس الوقت تمكن زرع يعقوب

بقوة جيشه ومعاونة قواده المسلمين المختلفين من أمثال الجرد محمد حاكم هدية وكذلك ولاء السلاطين المسلمين من أن يحطم قوة التأثيرين وتجار الرقيق وقطاع الطريق ومن استعانوا بهم من تجار البن بل ويقضى عليهم نهائياً .

وقد تصور زرء يعقوب أن الوسيلة الوحيدة لخلق أتيويا المتحدة ، هو إرغام جميع السكان على اعتناق المسيحية ، ولم يعتنق سياسة الإرغام الديني هذه أحد من ملوك أتيويا أو أباطرتها قبل زرء يعقوب ، فقد كانوا جميعاً يتركون لرعاياهم الحرية في اعتناق ما يشاءون من الديانات والمذاهب . ولم تقتصر سياسة الشدة للمسيحية على غير المسيحيين ، بل امتدب أيضاً إلى المسيحيين أنفسهم بتعقب كل من رأى أنه يخالف عقيدة المذهب السكندري ، وعين لأجل ذلك عدداً من الموظفين وعلى رأسهم (أكابي ساعات) أى حافظ الساعات وجعل عمله تتبع الخارجين ، والقبض عليهم ومحاكمتهم ثم الحكم عليهم وتنفيذ الحكم . وهو نوع من محاكم التفتيش ، ومن الطبيعي أن يلجأ هذا الرجل إلى كثيرين من العيون والأرصاد يئثم في كل جماعة . ليحملوا إليه ما يعتقده الناس . وهذا العمل وإن كنا نراه بعقليتنا الحاضرة اعتداء صارخاً على حرية الرأي والعقيدة . إلا أنه كان بحسب عقلية العصر الذى عاش فيه ، نوعاً من أعمال البطولة . وقد ارتفعت مكانة (أكابي ساعات) حتى أصبح الرجل الأول بين حاشية الإمبراطور الدينية حتى ليعادل (البتودد) الذى كان الرجل الأول بين حاشيته المدنية .

وفي رجاى هذا الملك الواسع الأفق وجد الفنانون الأجانب كل رعاية وتشجيع على الانتاج ، فقد عاش فى أتيويا فى ذلك الوقت ، فنان إيطالى هو فرانكا ليونى الذى أسبغ عليه الإمبراطور كل رعاية وتشجيع ، فسمح له أن يرسم عدة صور لكثير من الكنائس التى اهتم زرء يعقوب إما بتشييدها أو تزينها . ومن أشهر

صوره هناك صورة العذراء وهي تحمل الطفل يسوع ، وهي الصورة التي أثارت ضجة كبيرة في البلاد وعرضت الفنان بل الإمبراطور لكثير من التقدير بل التهديد بالقتل لولا حامية الإمبراطور له ، لأنه تجرأ ورسم السيدة العذراء وهي تحمل الطفل يسوع على ذراعها الأيسر الأمر الذي يثير سخط الاتيوبيين لأنهم يعتقدون أن اليد اليسرى أقل منزلة من اليد اليمنى .

وأمر زرر يعقوب أن يزداد الاهتمام بتعليم الشعب العقائد الصحيحة . فأمر الكهنة أن يجعلوا من كنائسهم عصر كل يوم أحد، مدارس لهذا الغرض، فكان التنظيم الأول في التاريخ لما نستطيع أن نسميه « مدارس الأحد » كما نظم الضرائب وحدد قيمتها وجعل على رأس كل مقاطعة حاكماً (اداك شطناط) يتلقى أوامر الإمبراطور ويعمل على تنفيذها . وبذلك أصبح قصر الإمبراطور مصدر السلطة كلها فخضع له جميع رعاياه . ومات زرر يعقوب في سنة ١٤٦٨ بعد أن ترك دولة موطدة الأركان كافية الموارد منظمة المصارف . كما ترك سيرة حسنة حتى لقد لقبه مواطنوه بسليمان الثاني .

وإذا كان زرر يعقوب قد تمكن من كسر شوكة الشفتا وثار الولايات الشرقية دون معونة من أحد ، فقد فشل إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية في صد الأتراك العثمانيين فقصوا على دولته سنة ١٤٥٣م وتولى بعد ذلك السلطان سليم الأول ليهاجم فارس ويطل على البحار الجنوبية ويشهد البرتغاليين يحاولون بناء إمبراطوريتهم الهندية . كما استولى على مصر سنة ١٥١٧ وأطل على البحر الأحمر ، فبدا له أن ينازل البرتغاليين أينما كانوا ، وورث عنه ابنه سليمان الملقب بالقانوني أحلامه ، فوصلت فتوحه إلى اليمن وحينئذ بدا له أنه يستطيع منازلة البرتغاليين واحتكار التجارة الهندية ولن يتاح له ذلك إلا إذا جمل البحر الأحمر بحيرة تركية . فنزلت جنوده في سواكن واستولت على مصوع وزيلع

وبذلك أصبح وصول الإتيوبيين إلى البحر الأحمر أمراً من الصعوبة بمكان بل متعذراً .

ومن زيلع اتصل الأتراك بحاكم هرر المسمى أحمد ابن إبراهيم الملقب بالأشول ووضعاً معاً أساس إمبراطورية إسلامية يكون (الإمام) أحمد بن إبراهيم ممثلاً لها في البحر الأحمر . بعد أن يضم إليه الأجزاء الإسلامية من أتيوبيا ، بل إنه يستطيع أيضاً القضاء على دولة اتيوبيا بفضل ما وعده به الأتراك من أسلحة حديثة العهد هي البنادق والمدافع التي كانت في ذلك الوقت اختراعاً حديثاً لم يعرفه الاتيوبيون .

وكان الإمبراطور المعاصر في ذلك الوقت هو لبنا دنجل الذي ورث عن زره يعقوب دولة موطدة وثروة دافقة ، فاستطاع أن يرعاها رعاية جعلت من عصره العصر الذهبي لاتيوبيا في العصور الوسطى ، وسنحاول هنا أن نأتي بشيء من التفصيل على مظاهر الحضارة التي تمتعت بها اتيوبيا في هذا العصر لنرى إلى أي حد وصلت الرفاهية بهذه البلاد في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تبدأ نهضتها الحديثة ، وهذه الحضارة التي سنحاول رسم بعض صورها وإن كانت دينية في أغلب مظاهرها إلا إنها لا تعدو مظهراً من مظاهر التقدم الذي أصابته اتيوبيا في هذا العصر .

لم يكن سنه يزيد عن الحادية عشر حين ارتقى لبنا دنجل العرش الإمبراطوري ولم يكن هو أكبر أبناء أبيه ، ولكنه كان أكبر أبناء الأمبراطورة ولذا لم ينازعه أحد من أخوته الذين كانوا أكبر منه سناً

وكان عهد لبنا دنجل (ومعنى اسمه وعاء العذراء) أكثر العهود تعقيداً لأنه شهد العظمة في أول عهده . والهدوء السلام يرفرفان ، والثروة سابعة ولكنه شهد أيضاً انهيار هذا كله بسبب الحروب الكثيرة التي شنها الإمام أحمد بن

ابراهيم كما شهد التشريد والفقر ، أيده الكهنوت والشعب والبيت المالك وكأنما أراد هو أن يبرهن على جدارته بهذه الثقة ، فأكثر من بناء الكنائس كي يكون (لا ليالا الثاني) .

وقد مكنتنا الوثائق التي ورثناها عن عهد هذا الإمبراطور أن نكون فكرة صحيحة صادقة عن عهده . فإذا كان غيره من الأباطرة قد اعتمد في شهرته أو اعتمد المؤرخون في شهرته على الأساطير والقصص الوطنية التي كان نصيب الخيال منها أكثر من نصيب الحقيقة فعهد لبنا دنجل على العكس من ذلك يعتمد على كثير من الوثائق التي تجعل أكثر ما يروى عنه حقيقة ، وهذه الوثائق الموجودة وفيرة وأكثرها يتصل بعلاقته بالبرتغاليين ، وكلنا نعرف أنه منذ قيام الأسرة السلمانية أيام يكونو أملاك أصبحت هناك وظيفة كبيرة في القصر (تصحاف تراز) مهمة صاحبها تدوين كل ما يتصل بحياة الملك من وقائع ، وهي مدونة على شكل حوليات تبدأ بالسنة الأولى من حياة الملك وتنتهى بانتهاء عهده . ومن ثم أصبح هذا العهد أى منذ القرن الثالث عشر يرتكز على أساس علمي صحيح ، من حيث وجود الوثائق التي يعتمد عليها المؤرخون . ولكن مما يؤسف له أيضاً أن كثيراً من هذه الوثائق لم يصل إلينا بل أتت عليه الحروب الكثيرة التي قامت في البلاد والتي خاضتها الجيوش الإمبراطورية والتي تعرضت فيها الأدبرة والكنائس — وهي مكان حفظ هذه الوثائق — للنهب والسلب . ومن ثم كان ما وصل إلينا من وثائق للوك لا يعدو نسبة ضئيلة مما دون حقيقة ، ولكنه ولا شك كان يعطينا فكرة أقرب إلى الصحيحة مما كانت عليه إتيوبيا من حضارة خلال هذا العصر .

وبفضل هذه المدونات تبدو لنا إتيوبيا في عهد هذا الإمبراطور قوية تتمتع

بسلام وافر ، غنية تتمتع بثروة وافرة أيضاً حتى استحوذت على إعجاب الجميع حتى لقد أصبح عهد لبنا دنجل أشبه بأسطورة تروى ومبعث اللذة والإعجاب لدى كثير من المواطنين .

كان مركز النشاط للدولة أبان حكم هذا الإمبراطور منطقتي شوا وامهرة . فالأولى كانت مسرحاً لمعظم الحوادث والحروب التي دارت في عهده ، والثانية مركز العاصمة الجديدة (جونداز) منذ أن انتقل إليها الإمبراطور عمداصيون .

ولقد أصبحت المقاطعة الأولى قبل أن تكتسحها الحروب ، مكتظة بالقصور والكنائس التي تلتف حولها المدن ، وتقوم على جوانبها أسواق مليئة بالحركة والنشاط ، جلبت إليها السلع التجارية من تجرى والصومال وزيلع والسودان ، وتشهد الأطلال الباقية المنتثرة لهذه القصور والكنائس في شوا وخاصة بالقرب من منابع نهري أكاكى وعلى قمم جبال اثتوتو وبالقرب من امبو ، أو ناحية بانتولين ، بكثرة ما قام بها من مدن ومنشآت بذت في مظاهر بنحها وثرانها مثيلاتها في أى عصر آخر . وبالرغم من اختفاء معظم هذه البلاد . أو قيامها في عصور لاحقة تحمل أسماء جديدة إلا أنه امكنا الوقوف على تاريخها بصورة واضحة ، بفضل الوثائق العربية التي عثر عليها فيما بعد .

ففي وسط منطقة شميرى كورى — حيث قامت أهم معارك الامام أحمد — كما سيأتى فيما بعد — قامت مدن كثيرة نخص بالذكر منها يرار وباديكية . وكانت الأولى هي التي أقامتها ما جوسا زوجة زره يعقوب وأقامت في وسطها قصورا ملكية لها ، ويوجد بالقرب منها دير قديم دفن فيه عدد من الكهنة وقامت في وسطها سوق كبيرة .

ولكن الرغد لم يقتصر على هذه الناحية ، بل امتد إلى قرى شو الشمالية

التي تدعى فاتا حار . فاذا صعد المسافر إلى قمة زا كوالا الهائلة الارتفاع التي تتوسطها وألقى بنظره إلى ما يحيط بها من غابات واسعة ، لالفي في وسطها بحيرة واسعة ذات ضفاف جميلة حالة ، وهي محاطة بمجموعات كثيرة من الخضرة الداكنة وعلى شاطئها قامت كنيسة القديس اباو ، وبالقرب منها توجد الكهوف والمغارات التي لجأ إليها الكهنة ليكونوا بعيدين عن الاضطهاد الشامل الذي لحقهم في بدء عهد الأجويين . وحول شواطئ البحيرة امتدت بيوت صغيرة كثيرة كان الرهبان يتخذونها مساكن لهم . وفي أوائل القرن السادس عشر . وفي عصر لبنا دنجل على وجه التحديد انتشرت في هذه المنطقة قرى عديدة ذات معسكرات وكنايس وفي وسط كل منها سوقها الكبير ، الذي لانغالي كثيراً إذا قلنا انها كانت أهم أسواق إتيوييا آنذاك . وإذا كان التعامل يجري في غيره من الأسواق بالتبادل أو بقطع الملح أو بقطع الحديد فإنه كان يجري في هذا السوق بقطع من الذهب .

ومن هذه المنطقة تتفرع عدة طرق تتجه إلى جميع اجزاء اتيوييا ، تقوم على بداياتها بوابات جبلية . وكانت أهم هذه البوابات البوابة الشمالية التي تقود إلى الجبال الموازية للنيل الأزرق ، والتي تقود إلى سهول الداموت وكذلك باب الغرب الذي يقود إلى الجبال الغربية (المظلمة) لتشابك اغصانها مما جعل أشعة الشمس لا تنفذ إلى وسطها ، ثم الطريق الجنوبي الذي يقود إلى بحيرة زوى ، التي انشأ عندها با إيدا مريم بن زره يعقوب قصراً فريداً في غرابته ، ليكون قريباً من منطقة الجوراجي ، حيث تقوم مدن أخرى لاتقل عن الأولى في أهميتها . هي مدن ايفار وعالا ، وعلى ضفاف بحيرة اباي اقيم هيكل ضخم خبأ فيه لبنا دنجل مخطوطات على درجة كبيرة من الأهمية .

وإلى الشمال من هذه المنطقة توجد منطقة هامة أخرى هي منطقة دبرا برهان ، التي

أجمع كل من المسلمين والمسيحيين على أنها كانت جنة آتيويا بالرغم من عدم خصوبة أرضها ، إذا قورنت بسهول دمبيا التي تحيط ببحيرة طانا .

وكأنما اراد لبنا دنجل أن يجعل من منطقة اتوتوقلبا لإتيويا ، فبدأ في بناء مجموعة هائلة من الكنائس صرف عليها أموالا كثيرة إلا أن الأقدار جاءت على عكس ما يشتهي ، ونشبت حروب الإمام أحمد فخرت كل هذه الكنائس تخريبا شاملا ، وترك أمر تعميرها إلى منليك الثانى ، الذى أتى بعد لبنا دنجل بثلاثة قرون ونصف ليشتيد فيها عاصمته الجديدة اديس ابابا .

وإلى الشمال توجد المنطقة الجبلية التى يتوسطها نهر موجر وهى السمة با كيلا ، وفى المكان الذى يدعى اناراي اقيم دير تكللا هواريات المقدس ، وكانت جموع الحجاج تتوافد عليه للتبرك بمياهه المقدسة الموجودة فى دير دبراليانوس ، ويهدون إليه شموعا بلغت فى ضخامتها جذوع الأشجار ، وبالقرب منها أقيمت بلدة زارارا التى سكنها كثير من التجار المسيحيين القادمين من سوريا ومصر .

وأن الطريق المؤدى إلى ابابا هو الذى مهد السبيل لاكتشاف جودجام ، التى امتلأت بالكنائس الفخمة ، فى دبرا اوروك اقيمت كنيسة مرتولا مريم المشيدة على الطراز الأوروبى ، وفى أوارايا المقابلة لها اقيمت كنائس كثيرة كان أهمها ما أقامه زرع يعقوب فى دبرا برهان . وفيما بين هذه المنطقة ومنطقة شوا على السفوح الجنوبية للجبال الشرقية ، امتدت مساحات واسعة حفلت بالمزارع الفنية ، وفى وسطها ظهرت مدينة جان زلن التى اشتهرت بمحصولاتها الوفيرة وكانت حقولها تروى عن طريق الترعى والأمطار مما يفسر اهتمام الإمام أحمد خلال حروبه بالاستيلاء عليها .

وقد ازدحت منطقة دبرا برهان خاصة بالرهبان ، الذين حملوا اسم الدفتر

وهو اسم مشتق عن الدفتر ومعناها الدارسون للعلم، وهم أكثر طوائف الرهبان الإثيوبيين تعمقاً في العلوم اللاهوتية، وكان الأمراء والملوك يقصدونهم لتلقى العلم على أيديهم، حتى ليقال أنه مامن امبراطور ارتقى العرش إلا وقد أمضى مدة من الزمن دارساً على يد واحد أو أكثر من هؤلاء الدفتر، ومنطقة دبرا برهان. (جبل النور) مازالت حتى الآن تعتبر للمركز الأكبر للرهبنة الإثيوبية. وبها العديد من الكنائس والأديرة كما تحتوى على الكثير من قبور الأباطرة الراحلين، ومازالت بعض كنائسها تحتفظ بأسماء مؤسسها مثل كنائس اترونسا مريم وجناتا جورجيس اللتين أقامهما زرع يعقوب. أما الأولى فكانت غاية في الأبهة فيها كلها مصنوعة من الذهب الخالص، بينما كان بناء جناتا جورجيس الخشبي يرتكز على ٣٦ عموداً ضخماً مربعاً، تتصل بعقود غانية لتحمل سقف الكنيسة، وكانت هذه الأعمدة محلاة بأشكال فنية رائعة قام على تصميمها وعملها فنانون اجانب منهم برانكاليوني الذي ذكرنا أنه لقي من زرع يعقوب كل رعاية، ورسمت على حوائطها الداخلية مشاهد العهد القديم، وقصص مريم العذراء والكثير من القديسين، أما أروع هذه الهياكل قاطبة فهو هيكل مكناسلاسى أى مركز الثالوث، التي بناها والد لبنا دنجل، ولكنه لم يتمها فقضى ابنه أحد عشر عاماً في تجميلها، وقد غطيت كثير من جوانبها بصفائح من الذهب الخالص، مما بهر كثيرين من الرحالة البرتغاليين الذين شاهدوها. كما لم يملك المسلمون الذين هدموها انفسهم من الإعجاب بها. وقد وصفوها بعد ذلك بعبارات تحمل شديد إعجابهم بها ولعل أكبر اجزائها نصيباً من هذا الإعجاب هو مداخلها الفسيحة التي كانت أبوابها محلاة بجواهر وأحجار كريمة نادرة جابت لها خصيصاً من الهند وفي أعلاه رسم الفنانون الإثيوبيون صورة العذراء مريم جالسة على عرش ذهبي تحيط بها الملائكة.

وعند الحدود المترامية لهذا الإقليم يوجد جبل جاشان ذو القمة الهائلة الإرتفاع

حيث جرت العادة أن يسجن الإمبراطور الجالس على العرش ، الأمراء المتمردين مع عائلاتهم ، وهى قمة صعبة المرتقى لا يصعد إليها إلا عن طريق درجات حفرت على جوانب الجبل لا يعرف طريقها إلا قليلون ، وتربض على سفوح هذا الجبل بحيرة حايك ذات الجزر المتعددة التى بنيت عليها مجموعة من الأديرة تفخر بأصلها الاكسومى ، فى جزيرة سان انين يقوم دير جبرا اجزاهبير (عبدالله) حيث حفظت مخطوطات الملك سيف ارعد ، وفى الجهة المقابلة لهذا الجبل يوجد دبرا تابور التى سكنها لبنا دنجل والتى اشتهرت فى ايامه بسوقها التى ازدهرت بتجارة الزبد (بفتح الزاى والياء) وهى مادة شحمية تؤخذ من حيوان متوحش ، واشتهرت بنكتهم المطرة التى تستعمل فى صناعة العطور . كما اشتهرت أديرة أخرى فى الجزائر الأخرى التى انتشرت على سطح هذه البحيرة . أما الطريق الرئيسى الذى يمتد من هذه البحيرة إلى إقليم تجرى فيمر بإقليم لاستا ، الفنى بهيا كل لا ليبالا ، التى لم تهملها عناية لبنا دنجل

وعند مسالك جبل سينافى فى إقليم تجرى ، توجد بعض قرى تسكنها قبائل الفلشا التى مازالت تحتفظ بديانتها اليهودية وكان عمدا صيون قد كتب عليها الذلة والهوان ، فجاء لبنا دنجل وإصدر قانونا يخول لهؤلاء الناس كافة حقوق المساواة مع بقية رعاياه وبذلك أعاد إليهم كرامتهم وأقام منهم حكما على ولايتهم كغيرهم من سكان الأقاليم الأخرى .

وكذلك اهتم لبنا دنجل بالأديرة القديمة الكائنة فى إقليم تجرى . فأجرى بها من الإصلاحات ما أعاد إليها جدتها ، فجلد دبرا ليبانوس المقام فى إقليم سيزان ، ودر ابا جاريما المقام فى عدوة . ودير أبا صموئيل المقام فى أوول دابا ، ولم تنته عنايته عند حد الصيانة بل أمر فرسم على جدرانها كثير من الصور الدينية ، وفى دبرا دامو رسمت صورة للعذراء مريم جالسة على عرش ذهبي يحيط بها الملائكة

والقديسون ، وهى تعتبر غاية فى الجمال والإبداع حتى لتضاهى مارسه الفنانون الإيطاليون فى الكفائس الإيطالية فى عصر النهضة ، وفى إقليم الشاطئ الذى يحكمه بهرنجش شقت الطرق إلى العاصمة دى باروا ، وكذلك إلى اللوانى ، وعلى جانبى الطريق زرعت الآلاف من أشجار الزيتون ، وعلى الطريق الرئيسى يقسع دير دبرا بيزان ، الذى كان من أكبر الأديرة ازدحاماً بالرهبان . وحوله قامت عدة أديرة أخرى . أصغر منه مثل دير أبايوناس ودير دبرا تسيجه ، اللذان كانا مقصد كثير من الإتيوبيين للتبرك بهما ، وعلى جدران كل دير كانت تتدلى قطعة كبيرة من الحجر البركانى كانت تستعمل كالأجراس أو يقرعها المسافرون من أجل طلب القوت من الداخل .

وعلى جانبى هذه الطرق حول الأديرة ، زرعت آلاف الأشجار من أجل الاستفادة بأخشابها ، وكان الرعاة يتخللون هذه الأشجار بقطعانهم يرعونها وقد صنفوا شعورهم بعناية مما يدل على رفاهيتهم النسبية ، كاندل عليها أيضاً ما كان يتحلى بها نساؤهم من حلى ، ومن حين إلى آخر يخرج من هذه الأديرة رهبان يرتدون ملابسهم التقليدية ، ويضعون جلود الشاة على اكتافهم ليقبهم الأمطار الغزيرة ، يغطون رؤوسهم بعمائم بيضاء محكمة يحاولون التقرب إلى الرعاة من أجل أن ينصحوهم باتخاذ زوجة واحدة .

وفى المساء كانت تسمع التراتيل الدينية تتصاعد من داخل هذه الأديرة مصحوبة بضربات الطبول ورقصات الكهنة ، لتسجل ما كان عليه هؤلاء الرهبان من نشاط ، إذ كان فى كل دير مكتبة يقضى الرهبان وقتهم بنسخ كتبها ، أو تصوير مناظرها . . برسوم يغلب عليها اللون الذهبى أو اللون الأحمر الفاقع . وكان من عادة لبنا دنجل أن يقوم خلال فصل الجفاف بجولات دورية من أجل رعاية شعبه ، ويقبم لذلك معسكراً كبيراً يمتلأ بالآلاف الرجال والنساء .

من أفراد الحاشية ، وإليها يحاول الأهل الاقتراب كي يحظوا بشرف التقرب إلى الإمبراطور ، ولكن الحرس الإمبراطوري كان يحول بينهم وبين ذلك ، ويمعدهم بأكثر من خمسمائة متر إلى أن يتكرم جلالتهم فيأذن لهم بالاقتراب فيقتربون ، تسبقهم دقائق الطبول من أجل التعبير عن سرورهم ، أما من كانت له شكوى أو مظلمة فيرفعها على عصا طويلة ويهتف طالبا العدل ، فيركض إليه موظف خاص يتسلم منه مظلمته . ليرفعها إلى سيده ، الذي يجلس في اليوم الثاني للنظر في هذه الشكاوى وتقرير ما يراه بشأنها ، ومن ثم يأذن لرؤساء القرى (شوما) وحكامها بالشول بين يديه ليصدر إليهم أوامره بشأن الاهتمام بالشعب ورعاية أفرادهم ، وكان هؤلاء الرؤساء يتميزون عن عامة الشعب لا بالخلى والعقود الثمينة التي تحلى صدورهم وأيديهم فحسب بل يتميزون أيضاً بأرديتهم الثقيلة المصنوعة من القطيفة المحلاة بالزرير المصنوعة من الذهب ، بل يرتدى بعضهم نوعا من الإردية المحلاة بخيوط الذهب ، ويمصّبون رموسهم بعصابات حريرية حمراء . بل أن بعضهم يشح بأوشحة تتدلّى منها حلّى براقة تعكس على وجوههم الداكنة نوعا من الجمال ، وكان قليل منهم يرتدى الصدور الحريرية المحلاة بالأحجار الكريمة .

وبقّة وقبل أن ينصرفوا من حضرة الإمبراطور يحبونه بامتطاء صهوات خيولهم ومون بالعب الفروسية التي تدل على المهارة وطول المران .

وكان الفرسان منهم يلبسون خوذات لامعة تنسدل على وجوههم لا يرى من خلالها إلا العينان ، وتتدلّى إلى جوانبهم حراهم أو سيوفهم وتبدو أمامهم دروع كبيرة مستديرة الشكل مصنوعة من طبقات كثيرة من جلود الجاموس السميكّة تثبتها ببعضها عوارض محكمة من الصلب^(١) .

(١) أنظر مقال « الفرسان والفروسية في إتيوبيا في العصور الوسطى » للمؤلف .
نشرت بمجلة كلية الآداب .

وتقوم خيمة الإمبراطور في وسط المعسكر الإمبراطوري . وبداخلها الستائر الكثيرة مسدلة ، كي لا تكون مشاهدة الإمبراطور ميسرة ، ويقف على بابه البتودد وهو أكبر الرجال للمدنيين مقاماً ، وكذلك الأكابى ساعات وهو أكبر الرجال الدينين مقاماً ، وغير بعيد من الخيمة تقف الأسود الأربعة التي هي رمز الإمبراطور ، والتي حرص الأباطرة على مصاحبتهما لم في جميع رحلاتهم . ويحيط بهؤلاء جميعاً الحرس الإمبراطوري بملابسه الثمينة ، وعلى رؤوسهم قبعات عالية مطرزة الجوانب بالذهب وفي وسطها قطع من لبد الأسد ويمسك بعضهم بالخيول وقد ارتدت كل لوازمها محلاة بالذهب والجواهر الثمينة .

وإذا ما صادف وقوع أحد الأعياد الدينية خلال الرحلة ، احتفل به احتفالاً بالغ الأبهة ، ويقال أن لبنا دنجل كان أول من احتفل بعيد الصليب وإن كان هذا غير صحيح فقد أثر عن قبله احتفالهم به ، إذ هو عيد وثني قديم يرتبط بتغير المواسم حتى إذا جاءت المسيحية صبغته بصبغتها وجعلت منه عيداً دينياً .

وكان سير الموكب الإمبراطوري تحف به دائماً للمهابة والأبهة ، يحيط به الفرسان ورجال الحاشية حتى كان سقوط أحدهم - نتيجة لخطوة خاطئة - إلى هوة سحيقة تمزقه إرباً ، لا يعوق الموكب عن متابعة سيرة كأن شيئاً لم يحدث .

على أن النصف الثاني من عصر لبنا دنجل شهد انهيار هذا كله ، نتيجة للحروب الإمام أحمد بن إبراهيم الذي تقدم منتصراً ، ويكتسح الجيوش الإمبراطورية ، ويبسط سلطته على معظم إتيويا . فأرسل الإمبراطور الوفادة إلى البابا وإلى ملك البرتغال يطلب النجدة والمساعدة لقضاء تبعية الكنيسة الإتيوية لكنيسة روما ، ومات الإمبراطور قبل أن يرى لوفادته نتيجة . وخلفه ابنه الإمبراطور جلاودديوس الذي استطاع أن يهزم جيوش الإمام بفضل المساعدة البرتغالية التي أرسلها له ملك البرتغال .

وكان أحمد بن إبراهيم هذا في أول أمره جندياً من جنود الإمبراطور يعمل تحت قيادة الجرد آبون ، الذى وجه الإمبراطور لبنا دنجل لمحاربة أبوبكر بن محمد بن ازر سلطان ايفات، حين جمع حوله جموعاً من الصوماليين وقطاع الطريق ، وعاث في شرق البلاد فساداً ، ونجح الجيش الإمبراطورى فى القضاء على هؤلاء اللصوص . وسلم أبو بكر بن محمد بن ازر نفسه وندم على ما فعل ولكن بعد أن قتل الجرد آبون ، قائد الجيوش الإمبراطورية . فنصب مكانه أحمد بن إبراهيم وكوفى على ولائه بمنصب حاكم هرر .

وعرف أحمد بن ابراهيم دائماً بشدة تدينه وتقواه حتى لقد لقب بالإمام ، فاستغل الأثرات فيه هاتين الصفتين واتصلوا به فى هرر . وأقنعوه أن قيام دولة اسلامية فى اتيوبيا تجعل من البحر الأحمر بحيرة إسلامية ، تسودها الأساطيل العثمانية ، فكان هذا العامل الأجنبى هو السبب الأول فى قيام الثورة الجاحفة التى اتسمت بالعداوة الدينية للمرة الأولى فى تاريخ اتيوبيا .

فأتيوبيا فى تاريخها الدينى كله لم تعرف العداوة الدينية كما ذكرنا ، ولا التعصب لمذهب دون آخر ، فقد اختلفت دياناتها منذ القدم ، ودخلتها اليهودية فلم يرغمحكامها أصحاب الديانات القديمة على اعتناقها ، كما لم تقم الحروب بين قبائلها بسبب اختلافهم فى الدين ، وإذا ما جاء دور المسيحية ودخلت المسيحية فى القرن الرابع ، واعتنقها الملوك أولاً واتخذوها ديانة رسمية للدولة ، لم يحاول الملوك مطلقاً إرغام أحد على اعتناقها ، بل انتشرت انتشاراً هادئاً بطيئاً على يد قسس من الأقباط والإثيوبيين، دون تدخل من الدولة . كما عاشت الوثنية بعاداتها القديمة المختلفة جنباً إلى جنب مع اليهودية حتى القرن الرابع ، وعاشت هذه الديانات ومعها المسيحية حتى الآن جنباً إلى جنب ، والناس أحرار فى اعتناق ما يشاءون وترك ما يشاءون .

ولقد أثر عن ملوك اثيوبيا منذ القدم هذا الأفق المتسع ، حتى تسامع به الناس في كافة الأقطار ، وقال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم أن (ملك الحبشة ملك لا يظلم عنده أحد) .

وإذا ما زارهم حسن بن أحمد الحيمي في القرن السابع عشر ، بعد حروب الإمام أحمد بن ابراهيم المريرة القاسية ، التي فرقت بين أبناء البلاد تفريقا شديداً ، ذكر عنهم أن أحد المسيحيين اعتنق الإسلام ، وغضب أهله لذلك وأرادوا أن يتقدموا إلى الحاكم ليرغمه على العودة إلى المسيحية ، فأجابهم أنه حر في اعتناق ما يريد إذا أحب الدخول في الإسلام لا يعترضه أحد .

كما ذكر أن ملوك (الحبشة) قد حاربوا الفلاشة (اليهود) وضايقوهم حتى غلبوهم وأخضعوهم . فدخل أغلبهم في دين النصرانية ولم يبق منهم إلا اليسير غير أن الملوك لا يعترضونهم في أمر الدين إنما يطلبون منهم الطاعة .

ولكن شاء حظ الإثيوبيين العاثر أن يتصل الأتراك بأحمد بن إبراهيم التقى الورع ، فاستغلوا فيه ورعه من أجل أغراضهم التوسعية ، والأتراك أنفسهم لم يعرفوا الإسلام الحقيقي يوماً من الأيام ، إنما الذي عرفوه جيداً هو استغلال الإسلام من أجل أهدافهم ، ولعل الإشارة إلى إستغلال السلطان عبد الحميد الثاني ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين للجامعة الإسلامية ، من أجل أهدافه ، بينما كان هو وحكومته أفسد ما تكون الحكومات والسلاطين ما فيه الكفاية .

كان الإمبراطور لبنا دنجل بن زرر يعقوب يمني نفسه بحكم هادىء طويل ، بعد أن سحق أبوه ثورات الثائرين ، قتل أولاد سعد الدين أبي البركات وقضى على أنصارهم ، كما قضى هو على ثورة ابى بكر بن آزر سلطان ايفات . ولكن الأتراك كانوا قد نزلوا بالشواطىء الشرقية كما ذكرنا واتصلوا بأحمد بن ابراهيم ومنوه بملك (الحبشة) المسلة التي تدخل في حلف مع الأتراك ، حتى إذا ما أفتنع

بهذه الفكرة ، أمدوه بالمدافع والبنادق كما أمدوه ببعض الجنود من الانكشارية يدرّبون جنده على هذا السلاح الجديد .

وإذا كان الإمام أحمد بن إبراهيم قد بدأ (جهاده) قبل أن يتصل به الأتراك كما تذكر بعض الروايات ، فإن هذا الجهاد لم يكن موجهاً ضد الحكومة المركزية ، أو إمبراطوره . بل كان موجهاً في أول أمره إلى مناهضة السلطان أبي بكر بن محمد بن آزر حين خرج على الإمبراطور ، وقد ذكر أن الإمبراطور وجه إليه جيشاً على رأسه القائد (الجرد) أبون ، كان الإمام أحمد يده اليمنى ، ولكن الأول مات في الحرب . وإذا ما عرض السلطان أبو بكر ولاءه على الإمبراطور عين الإمام أحمد على هرر . فلم ترض هذه الخطوة الإمام أحمد الذي كان موضع التقدير من كثيرين من المسلمين . وكان السلطان محفوظ صاحب هرر الأول أحد المعجبين به والمهدين لتقواه ، فزوجه ابنته دل ومرا . وبلغ من حب الناس له أن لقبوه بالإمام . فلم يملك الإمام أن يعبر عن سخطة على السلطان إلا بالخروج عليه وسار إلى مدينة أبت ومعه أكثر من مائة فارس أمروا عليهم القائد عمر دين سلطاناً إعلاناً لولائهم للإمبراطور .

وكان طبعياً أن يمرض السلطان أبو بكر الإمبراطور على محاربه ، فانتصر الإمام أحمد على جيوشهما ، ومات نسيبه محفوظ في الحرب ، فاستقر هو في هرر سلطاناً ، وإذا ما سعى الساعون للصلح بين السلطان والإمام ، أقر على سلطنة هرر ، ولكن اتصال الأتراك العثمانيين به ، ثم تقديمهم الأسلحة النارية وخاصة المدافع ، أغراه بالثورة لينصر الملة وقيم الدين .

وبدأ الإمام أحمد حركته بضم الولايات الشرقية . وهي كلها متقاربة حتى إذا وثق من إخلاص سلاطينها ، أعلن ثورته على الإمبراطور ، وتقدم بجيشه يكتسح الأجزاء الشرقية ، رافعا علمه الأصفر المطرز بالآيات والشعر

الحماسي ، فكان لهذا فعل السحر في النفوس ، فانضم إليه الناس في حماس بالغ . وفي أقل من عامين وصل إلى شاطئ النيل الأزرق بعد أن هزم الجيش الإمبراطوري في معركة ساحقة هي معركة شمبري كوري ، وتقدم يعبر الاباي إلى جودجام ، وظهر تفوقه الساحق لا في انضمام الأهالي والولاة إليه فحسب ، بل حين سارع المسيحيون إلى اعتناق الإسلام ، ليتفادوا القتل والسبي ، ولم تمض خمسة أعوام (١٥٢١ — ١٥٣١) حتى كانت جيوشه قد اكتسحت جودجام كلها ، ووصل إلى سهل دمبيا مهددا العاصمة جونددار ، فهرب الإمبراطور وحكومته باحثين عن ملجأ يلجأون إليه ، ومن هناك ارسل الإمام جيوشه - بعد أن لقب بالغازي - لفتح بقية أجزاء (الحبشة) ليتصل بولاة الفنج الذين أقاموا دولتهم الإسلامية حول سنار في السودان قبل ذلك بأقل من نصف قرن .

ولم يجد الإمبراطور لبنا دنجل إزاء هذا الخطر الساحق ، وإزاء هذا السلاح الجديد ، سوى أن يلجأ إلى دولة قوية تملك هذا السلاح الجديد ، الذي لم يكن يعرفه ، ولم تكن هذه الدولة سوى البرتغال ، كان المشجع له على هذا الاتجاه هو الملكة هيلانه ، التي كانت قد شجعت أباه من قبل على أن يرسل رسله إلى مؤتمر فلورنسا ، كما شجعتة أيضا على أن يلجأ إلى البابا كما فعل أبوه أيضا ، فأرسل لبنا دنجل الرسل إلى كليهما . وظل ينتظر هذه النجدة المرتقبة ، وهو يفر من بلد إلى بلد يقاسي الجوع والمرض ، ومعه قلة من أنصاره على رأسهم الملكة هيلانه زوجة أبيه ، هذا بينما كان الإمام أحمد قد أرسل رسله إلى أجزاء اتيوبيا المختلفة يحكمونها ويجمعون الضرائب منها . وأخيرا مات لبنا دنجل وهو يرى بلاده ممزقة مهتدة وخلفه جلاوديوس ، فظلت هيلانه تقف بجانبه وتقويه بمشورتها ورأيها الحصيف يثبت في نفس الإمبراطور وفي من بقي من أنصاره الشجاعة والقوة .

وظلت انيوييا تعاني هذه الحالة السيئة عشر سنين كاملة ، وأخيرا جاءت النجدة ممثلة في اربعمائة من الفرسان البرتغاليين ، ومعهم بعثة كاثوليكية من اليسوعيين وتمكنت هذه الفرقة البرتغالية — بقيادة كرسطوفر دى جاما — من أن تقضى على الإمام أحمد وحركته ، بفضل ما كان معها من مدافع وبنادق . وكان انصار الامام قد بدأوا ينفذون من حوله لما رأوه من تفوق النفوذ التركى ، وخطر ضياع استقلال بلادهم ، وكانوا يظنون أن الحركة دينية . وطنية ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الدين لم يكن إلا ستارا اتخذته الحليف وسيلة للقضاء على استقلال بلادهم ، فبدأوا يعودون إلى مواقفهم الطبيعية في صف الإمبراطور ، الذى يدافع عن انيوييا الحرة المستقلة .

وقد حاول نور بن أخت الإمام أحمد ووارثه أن يخلفه في قيادة ، الحركة ، ولكن ذهاب القائد الروحى أودى بالحماس الذى كان يدفع ببقية أنصاره ، فهزم نور وفر ملتجئا إلى باشامصوع التركى ، وإذا كان الانويويون قد انتصروا ونجحوا في المحافظة على استقلال بلادهم إلا أنهم فقدوا إمبراطورهم الشجاع الذى سقط في المعركة .

وحاول نور أن يعود إلى هرر مستعينا بالأتراك ، ولكن سبقته إليها جموع الجالا ، بعد أن خرجوا من طورهم السلمى وبدأوا يدخلون مرحلة الحرب والصراع من أجل الاستقرار ، وكان هؤلاء الجالا قد قدموا من الغرب ، واستقرت منهم جماعات في سهول كافا ، كما استقرت جماعات أخرى في بورانا وتقدم الباقون نحو الشرق فدخلوا هرر أكثر من مرة ، ونهبوها وخربوا أكثر منازلها ، وهرب السكان أمامهم ، فكانت هذه المعارك بدء انهيار هرر وسقوطها ، وجاء إليها نور بن مجاهد ليجهدها نقاضاً ففر من جديد إلى الشرق وانتهت أخباره وأخبار من معه .

وإذا كان دور الإمام أحمد بن إبراهيم قد انتهى بقتله سنة ١٥٤٢ وخيل
سكل أحد أن الهدوء قد عاد إلى البلاد لتستعيد أنفاسها ، وتبنى مآهدهم أربعة
عشرة سنة من الحروب المتواصلة المتلاحقة ، إلا أن حروبا أخرى كانت تنتظرها
لتقضى على البقية الباقية من قوتها وهى الحروب التى شنها البرتغاليون الحلفاء ،
ومن أجل محاولة تحويل اتيوبيا إلى المذهب الكاثوليكي . وإلى مستعمرة
برتغالية .

فما كاد الإمبراطور جلاوديوس — قبل موته فى المعركة — يعود إلى
قصره فى جوندار حتى وجد فى انتظاره ، بعثة يسوعية برئاسة الأب رودريجز
Rodregez ينحصر طلبها فى أن يعترف جلاوديوس بحماية البرتغال له كما
يعترف بتبعية الكنيسة الاتيوبية إلى الكنيسة الغربية ، بعد أن يقطع علاقاته
بالكنيسة المصرية ، فرفض جلاوديوس هذا العرض وناقش الأسقف
الكاثوليكي فى الدين عدة مرات ، انتهت به إلى أن يضع كتابه المشهور
(الاعتراف بالايمان) من أجل الدفاع عن عقيدته .

إزاء هذه المقاومة غير المنتظرة لم يتعفف البرتغاليون ، بعضهم الكنيسة
الغربية ، عن خلق ثوار جدد ، تشجعهم وتمدمهم بالثؤونة والسلاح ، إذا ما اطمأنوا
إلى أن هؤلاء الحلفاء سوف يكونون عوناً لهم على تنفيذ مآربهم ، بل لم يترددوا
فى أن يمدوا بأيديهم إلى الأتراك أعداء الأمس من أجل محاولة غزو اتيوبيا
من جديد .

وكانت مساعدتهم للثوار واضحة إلى حد أن دعا الإمبراطور الجديد ميناس
ابن جلاوديوس المطران البرتغالى إلى مقابلته وأمره فى لهجة قاسية أن يوقف
نشاطه وأن يترك البلاد .

وإذا كان البرتغاليون والكاثوليك قد طردوا هذه المرة من إتيوبيا وأخذ

المدعو يعود إلى البلاد إلا أنهم لم يأسوا فقد أخذوا يحاولون العودة مرة بل مرات وتحالفوا من أجل ذلك مع زيمور باشا حاكم مصوع ، الذى سهل لهم سبيل الدخول إلى البلاد نظير رسوم معينة ، وبحجوا أخيراً فى أيام الإمبراطور سوسنيوس Susenios لا فى ان يدخلوا البلاد فحسب ، بل فى ان يمسحوا من الإمبراطور أكبر عون فى تنفيذ ما خيل اليهم أنه السياسة البرتغالية الكاثوليكية ، ولم يعففوا من أن يتصلوا بالأمير نور بن مجاهد قبل موته ويمنوه بفرق جديدة تأتى من الهند لنصرته ، وبذلك أصبح واضحاً ان هناك تيارات كثيرة تتقاذف العرش ، وعلى الإمبراطور للماهر ان يسايرها وإلا تعرض للخطر ، ورأى سوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) ان الكاثوليك والبرتغاليين هم القادرون على أن يخرجوا ببلاده من عزلتها ، ويصلوها بالعالم الخارجى اتصالاً لن يكون إلا ذا منفعة له ، فهذا الاتصال وإن بدأ دينياً إلا أنه لن يقف عند حد الدين فسوف يجر وراءه اتصالاً ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ، وساعده على اعتناق هذا الرأى ما رآه فى الأب بايز Paez البطريرك الكاثوليكي الذى قدم فى سنة ١٦٠٣ أيام الإمبراطور ملك سجد الثانى من تفوق ذهنى ظاهر ، فما لبث الإمبراطور ان اعتنق المذهب الكاثوليكي سرّاً سنة ١٦١٩ . وجاهر بايز بهذا الاعتناق سنة ١٦٢١ ، وأعلن نيته بفصم الرابطة التى تربط اتيويسا بالكنيسة المصرية ، فما ان انتصر على ثورة أحد الثأرين وهو ملكيا كرسوس سنة ١٦٢٢ فى بيجامدر ، حتى عد ذلك ايذاناً من الله بالجهر بمذهبه ، فذهب إلى اكسوم مع ابنيه وأخيه ورجال دولته ، وأعلن انفصاله عن المذهب السكندري واصدر مرسوماً بذلك .

ومن الطبيعى ان يثير ذلك حنق رجال الدين الوطنيين ، فتلفتوا يبحثون عن اعداء الإمبراطور يدفعونهم إلى الثورة ، ومن الطبيعى ايضاً ان يتخذ هؤلاء من رجال الدين الوطنيين ، تكأة ليبروا بهم ثورتهم أمام الاهالى

المتمسكين بمقيدتهم، والذين رأوا في البابا ملكاً أجنبياً وامبراطورهم تابعاً له ، فاعتبروا انفسهم غير مقيدين بيمين الولاء الذى اقساموه له ، بعد ان كرهوه . واتخذت هذه الكراهية شكل ثورات اشتعلت في طول البلاد وعرضها فقاد اخواه يمانا كرسطوس وملكيا كرسطوس ثم زوج ابنته يوليوس ، ثم غبريال بن ملك سجد ملك شوا ثورات متلاحقة متتابعة وانقسم الشعب بين هؤلاء جميعاً وبين الملك ينصرون فريقاً على فريق وزاد هذه الحالة سواءاً ثورة جوريون زعيم الفلاشا .

وفي وسط هذه الاضطراب الشامل والثورات المتعاقبة ، فقد الإمبراطور أهم مستشاريه وهو المطران بايز مرشده ومعلمه الروحى ، ورغم ذلك عمد الامبراطور إلى منازلة هؤلاء الخصوص جميعاً ، مما كان له اسوأ الأثر على البلاد ولكن الجنود لم يلبثوا أن أعلنوا أنهم لن يسيروا معه بعد ذلك . إلا إذا رد إليهم ايمانهم ، فأيقن الإمبراطور بفشل محاولته ، فاعتزل الدنيا كما اعتزل العرش ، وتركه لابنه فاسيلاداس (أنظر شكل ١٢) ، الذى عمل جاهداً على رأب الصدع ، وإعادة الاستقرار إلى البلاد بعد أن حرمته مدة ليست بالقصيرة ، فكتب إلى البطريرك الكاثوليكي يأمره بجمع رجاله في مدينة فريمونا بالقرب من اكسوم ، تمهيداً للخروج من البلاد ، ليخلى مكانه للمطران المصرى الذى أرسل في طلبه ، فصعد للأمر ، ولكن بعد ان اتصل بالبهرنجش يوحنا يقربه بالثورة ، ويمنيه بالمساعدة ، ولكن فشلت هذه المحاولة واضطر إلى ترك البلاد تحوطه اللعنة والمقت ، وخيل لكل احد أن البلاد قد وصلت إلى بر الأمان لتتعم بالراحة والطمانينة .

وهناك من المؤرخين من يقف في صف البرتغاليين ، ويوجه أشد اللوم إلى الإمبراطور ، الذى أغلق في وجه إتيوبيا باب المدنية الأوربية ، فقد كانت

هذه المناسبة الفرصة الفضة ، التي قدمت نفسها لهذه البلاد الإفريقية لتخرج من ظلمات الجهل إلى نور المدنية والحضارة .

وهذا الكلام وإن بدا وجيهاً وصحيحاً في ظاهره ، إلا أنه لم يكن يحمل من الحقيقة ظلها ، ففي هذا الوقت بالذات نزل البرتغاليون في أماكن أخرى في قارة أفريقيا ، نزلوا عند مصب الكونغو وتوغلوا إلى الداخل ولم تكن هذه البلاد والممالك المجاورة لها ، مكونة عن المتوحشين المتعطشين للدم كما وصفهم الأوروبيون ، بل كانت بلاد سلام ، عاش فيها الناس في رغد وكانت ديانتهم مستقرة مصوغة في قالب واضح بالنسبة للمجتمع القبلي الذي يعيشون في نظامه ، وكانت قوانينهم متعددة وكاملة من الناحية الاجتماعية ، وكان ملك الكونغو على رأس هذا النظام وهو نصف كاهن نصف ملك ، ولكنه رأى في قدوم الأوروبيين فرصة حين حملوا إليه نوعاً جديداً من المعرفة ، فرحب بهم وتحالف معهم ، ولكن لم يمض وقت طويل على وصول هؤلاء (المتمدنين) حتى نشبت الحرب بين المتنافسين من أبناء الأسرة المالكة ، واستفاد البرتغاليون من ذلك حين ظنوا أن هذه الشعوب قد خلقت للرق ، فركزوا همهم في جمع العبيد وظلت تجارتهم فيه مجزية لهم كل الجزاء ، فقد كان الطلب على الرقيق لا ينتهي من أجل العمل في مزارع القطن وقصب السكر في جزر الهند الغربية وأمريكا .

وقد سجلت خطابات الملك الذي عهد باسم القونسو الأول ، خيبة الأمل التي لاقاها من هؤلاء القادمين فقد ظل يناضل (١٥٠٧ — ١٥٤١) ليضمن تحقيق الوعود التي اخذها من هؤلاء الذين وثق بهم ، فقد رأى البرتغاليين ومعهم رجال الكنيسة ، لا يفكرون إلا في الثروة التي يجمعونها ، كما رأى التجار ينهبون ويقتلون ، والنخاسة تزداد ، وملك البرتغال بل والبابا يعمان إذنيهما عن كل (م ٧- أنبوييا)

نداء، وفي سنة ١٥٣٩ أرسل يلتمس للمرة الأخيرة العون من البابا ضد البرتغاليين، فأرسل بعثة إلى روما ولكن لم يكن هذا الرجاء لينير له بصيص نور. وبعد وفاة الفونسو بدأ البرتغاليون استغلال احتكارهم على نطاق واسع، حتى تمكنوا في الجزء الأخير من القرن السابع عشر من أن يفرضوا سيادتهم كاملة على الكونغو فتمكنوا من فرض الحكم الذين يختارونهم ليحكموا عن طريقهم.

وفي خلال هذا الزمن تحول الرجال إلى عملة نقدية وزالت آدميتهم وخلع عليهم اللذ، حتى صاروا بضاعة تحمل اختامها، وتقسم إلى طبقات طبقاً لأحجامهم وأوزانهم وطباعتهم، ويبيعون بالطرق المتبعة في بيع الخيول والكلاب.

وكانت الكنيسة راضية عن هذه الفظائع ما دامت تأخذ نصيبها من هذه الأسلاب فقنعت بأن تطالب بتعميد العبيد المرسلين إلى أمريكا. حتى يتيسر (انقاذ أرواحهم)، وفيما عدا ذلك لم تر الكنيسة أن هناك أية مخالفة. وراح الأسقف يجلس على مقعده الرخامى تجاه الشاطئ فيعمد العبيد ويأخذ نصيبه من رسوم التصدير، التي اوضحت مورداً هاماً من الموارد المالية للحكومة أنجولا، وقد وجد الأب جاوان أن ضريبة التعميد في القرن السابع عشر كانت تبلغ ثلاثمائة رايس يدفعها تجار الرقيق عن كل رأس، وكانت تذهب بأكملها إلى أسقف أبرشية بنجويلا، ولكن مما قد يذكر له بالخير أنه رفض أن يأخذ رسوماً على تعميد الأطفال الرضع، ولم يكن عددهم يزيد عن الخمسين. مقابل خمسة عشر أو عشرين ألفاً من الرجال والنساء كل عام.

فكانت هذه هي المدنية التي حملها البرتغاليون إلى الكونغو، هي نفسها التي كانوا سيحملونها إلى اتيوبيا. فإذا كان فاسيلاداس قد طردهم فهو لم يدافع

عن عقيدته وكنيسته ، بقدر ما دافع عن بلاده وشعبه من ذل الرق والعبودية ، بل من الفناء الكامل . الذى كان ينتظرها في رفقة هؤلاء الأوروبيين المتدينين . ولم يلبث الملك أن دخل ميداناً جديداً من ميادين الحرب حيث وجد عدواً لا يقل مراساً إن لم يفق البرتغاليين ، ألا وهم قبائل الجالا والاجوا بعد أن تخلوا عن حياتهم السلمية . وكذلك الأتراك .

أما الجالا فقد دخلوا اتيوبيا من الجنوب والغرب ، واتجهوا نحو الشرق مخربون البلاد التي يعمرون بها ، وتستقر بعض قبائلهم أينما أرادت ، وتوالى بقيتها السير شرقاً ، حتى وصلوا إلى هرر ، وقد اضنتها الحروب السابقة تغربوها ثم صعدوا إلى الشمال واستقر بعضهم في الشرق بين النيل والطرف الشرقى للهضبة ، حيث تركزت قوتهم حين استقروا هناك وظلوا يناوشون الدولة ، والدولة تحاول القضاء عليهم مرة أو التقرب إليهم مرات ، وكان ذلك سبباً من الأسباب التي أدت إلى ضعف البلاد .

أما الأجوا وهي القبائل الحامية التي احتفظت بيهوديتها ، والتي استعانت بهم الأجرة الأجيوية فقد عادوا إلى ثورتهم ، أكثر من مرة والأباطرة يعملون متوالين على سحقهم .

أما الأتراك العثمانيون فقد استقروا في الموانئ الشرقية ومنعوا الأتوبيين من الوصول إلى البحر ، واتصلوا أيضاً في مرات كثيرة بالشوار الأتوبيين يمدونهم بالسلاح ، ويحرضونهم على الثورة ، وكان من أكبر التأثيرين البهرنجيش (أى حاكم الولاية التي تطل على البحر) وحاربوا معه في أكثر من حملة ، استطاعت في بعض الأوقات أن تتوغل إلى مسافات كبيرة ، إلا أن القوة الامبراطورية استطاعت أن تضربهم وتتغلب عليهم ، فاكتفى الأتراك أخيراً بالاستقرار في الشواطئ . يمنعون أعداءهم من الوصول إلى البحر والعالم الخارجى .

وكان سوسينيوس قد صارع الأمراء الثائرين دون أن يستطيع التغلب عليهم وكان ابنه فاسيلاداس ينتصره ويؤيده رغم مافعله أبوه ضد كنيسته ودينه وشعبه ، ولم يلبث الابن أن اختلى بأبيه وأشعره بفداحة ما ارتكب ، وتبين الإمبراطور كبير جرمه ، وما جره على البلاد من إنقسام وخراب ، فأعلن إعادة المذهب الأرثوذكسى ، واعتزل العرش ليعيش فى دير ، وترك العرش لولى عهده فاسيلاداس (١٦٣٢ - ١٦٦٥) ليعيد إلى البلاد هدوئها وسكيتها . فطرد المبشرين الكاثوليك واتفق مع حاكم مصوع التركي على أن يرقب السواحل الشرقية ليمنع دخول اليسوعيين ومن يماثلهم .

وقد كان هذا العمل من فاسيلاداس لطمه قاسية للبرتغاليين والنفوذ الأوروبى فى اتيوبيا ، فحاول الفرنسيون الولوج إلى البلد عن طريق آخر على أن تكون وسيلتهم طوائف أخرى من الرهبان غير اليسوعيين ، فاتجهوا إلى مصر وحاولوا الولوج إلى اتيوبيا عن طريق دولة الفنج التى قامت فى سنار ولكن قبض على هؤلاء الرسل وقتلوا وكتب على هذه المحاولة الفشل من جديد وعادت اتيوبيا من جديد إلى عزلتها السابقة بعد أن رأت ما جره الاتصال بأوروبا من خراب .

الفصل الخامس

عصر الفوضى

(١٦٦٥ - ١٨٨٩)

كان طرد فاسيلا داس للكاثوليك، ومن معه من الأجانب، نظيراً بإغلاق أبواب إتيوبيا في وجه كل اتصال بالخارج ، من أجل الاطمئنان على سلامة الداخل . حقيقة أن فاسيلا داس حاول أن يقيم علاقات مع أحد جيرانه ، الذين لا يحس منهم خطراً على استقلال بلاده فأرسل إلى إمام اليمين المؤيد بالله بن القاسم ١٠٤٥ - ١٠٥٤ هـ (١٦٣٤ - ١٦٤٥) ثم إلى أخيه المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم ١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ (١٦٤٥ - ١٦٧٥ م) يطلب رسولا (من أجل الإفضاء إليه بشيء لا يستطيع ذكره إلا لمن كان موضع الثقة من الإمام). ففهم الإمام ورجاله، أن فاسيلا داس لا بد يريد اعتناق الإسلام ، الأمر الذي لا يستطيع الإفضاء به إلى أحد من شعبه مخافة الخروج عليه . فأرسل إليه الإمام المتوكل قاضياً كان موضع الثقة منه ، لأنه كان ينتدبه في كثير من الأمور ، فيحسن التصرف فيها ، هو حسن بن أحمد الحيمي . فسافر إليه وقابله في جوندار . ولكنه وجده يريد إقامة علاقات مستمرة وطيدة بعيدة عن رقابة الأتراك العثمانيين الذين استولوا على جزء كبير من الشاطئ المطل على البحر الأحمر ، فكانت خيبة مرة للرسول ولسيده فلم يوجهوا إلى الأمر عناية ما . فاليمينيون يفوقون الإتيوبيين حباً في العزلة وزهداً في الاتصال بالعالم الخارجي . ومن ثم ضاعت فرصة أمام إتيوبيا من أجل الخروج إلى العالم . فلم تملك إلا أن تعيش في عزلتها . وهذه العزلة إذا كانت مدعاة للضعف عند كثير من الأمم فهي عند الإتيوبيين مدعاة إلى الموت ، فهي

تعتمد أكثر ما يكون من حيث الثقافة والدين والثروة على هذه العلاقات الخارجية .

ولم تكن هذه العزلة السبب الوحيد الذى أدى بالبلاد إلى ما سميناه بمصر الفوضى بل كانت هناك عدة عوامل تضافرت كلها على أن تدفع بالبلاد إلى هذا الطريق .

ولعل أحد هذه العوامل القوية هذه الحروب الطويلة التى قاستها البلاد خلال ثلاثة قرون كاملة . فبعد أن قام صبر الدين سلطان عدل بثورته فى سنة ١٣٤٢م يسانده سلطان إيفات ، حتى نهاية عصر سوسينيوس فى سنة ١٦٥٥ ، لم تهدأ الحروب قط على نحو ما بينا فى الفصل السابق ، فكان أن أنهكت قوة البلاد إنها كآ تماماً . علاوة على ما أصاب البلاد من خراب اقتصادى شامل ، سواء فى إنتاجها الزراعى أو الحيوانى ، فلا غرابة إذا اجتاحت البلاد كثير من الأوبئة والمجاعات التى جاءت ضغناً على ابالة .

وعامل آخر من عوامل الضعف هو هذه القبائل التى غزت البلاد منذ نهاية القرن الخامس عشر ، والتى عاثت فى البلاد نهباً وسلباً ، وهى قبائل الجلا وهى قبائل عاشت أولاً فى الأجزاء للنخفزة السهلة عيشة سلمية ، ولكنها لم تلبث أن أغريت على التحول عن حياتها السلمية إلى حياة الحرب والقتال . أغرتها على ذلك ظروف الخراب الاقتصادى والضعف الذى انتاب القبائل البامية القوية ، ومن حالفها من القبائل الأخرى فكان أن هذه الظروف قد دفعت بها إلى أن تتحرك من مواطنها التى كانت قد استقرت بها ، واجتاحت جنوب البلاد وشرقه دون أن تجد قوة تعارضها ، بل ربما كانت المقاومة الضعيفة التى لاقتها فى بعض تنقلاتها ، دفعت بها إلى أن تتركب مركب العناد والتخريب والسلب والنهب ولقد وصفهم حسن بن أحمد الحيمي حين رآهم فقال لهم

(أهل قوة في أبدانهم وصبر على احتمال المضار وهم مسلطون على نصارى جهة الحبشة من جميع جهاتهم وأطراف بلادهم . وأكثر السبي إنمسا يكون بأيدي هذه القبالة) .

ولا ننسى أن النتيجة الطبيعية لطرد الكاثوليك والأجانب من البلاد ، إنما هي تسلط رجال الدين على مظاهر الحياة الإثيوبية كلها لا سيما بعد أن نجحوا في إرغام سوسنيوس على التنازل عن العرش . وكانت مصر هي مصدر القوة والثقافة لرجال الدين الإثيوبيين وذلك منذ أن أقيمت هذه العلاقة الدينية في القرن الرابع ، وكانت الكنيسة المصرية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تعاني حالة من الضعف لا مثيل لها . بل لا نبالغ إذا قلنا حالة من الانحلال لا تستطيع معها أن تقيم لها عوداً في مصر نفسها ، فكان من الطبيعي أن ينعكس كل ذلك على البلاد التي تستمد منها قوتها وثقافتها وحضارتها .

فإذا تضافرت كل هذه العوامل مجتمعة كانت النتيجة هذه الفوضى التي ظلت البلاد تعانيها أكثر من قرنين من الزمان . وبدأت مظاهر هذه الفوضى في أكثر من ناحية من نواحي الحياة الإثيوبية ، ولعل أجلاً شأناً قوة الأباطرة عن أن يفرضوا سلطتهم على البلاد وقصر مدتهم وقيام الثورات المتعاقبة عليهم كذلك اضطراب الأمن وانتشار عصابات الشفقا وقطاع الطريق .

تولى العرش بعد الإمبراطور فاسيلاداس ابنه ياسو الأول سنة ١٦٨٢ ، وكان محبوباً من رعيته عطوفاً كريماً . راغباً في خير أمته ولكن ذلك لم يمنع ابنه تكلاهيمانوت — تحت تأثير الطامعين من حاشيته — من أن يشور على أبيه . بل أفلح في قتله في سنة ١٧٠٦ واعتلى العرش بدلا منه ، ولكنه لم يجلس عليه إلا سنتين حاول في خلالها لويس الرابع عشر أن يتصل به .

وكانت هذه المحاولة من لويس الرابع عشر دينية بحتة ، إذ عاود الكاثوليك

معاودة الاتصال بإتيوبيا عن طريق غير طريق البرتغاليين وعن طريق غير طريق اليسوعيين، فكانت هذه المرة عن طريق فرنسي مدني. إذ أرسل لويس إلى قنصله في دمياط أن يجد فرصة ملائمة ليفتح علاقات سياسية مع إتيوبيا، فانهز القنصل فرصة وجود مندوب إتيوبي في مصر، يبحث عن طريق البطيركية القبطية في مصر، عن طبيب يعالج الإمبراطور من مرض أصابه، فأرسل الطبيب الفرنسي بونسيه Poncet. ونجح الطبيب في مهمته وعاد إلى الملك لويس الرابع عشر يحمل هدية من الإمبراطور إلى سيده في فرساي.

وكان هذا مشجعاً للويس على أن يعاود الاتصال من أجل استمرار العلاقات. الأمر الذي يطعم الكاثوليك فيه، فأرسل إلى قنصله في دمياط للمرة الثانية وهو جاك لنوادى رول أن يذهب بنفسه فأتجه نحو الجنوب يقصد إتيوبيا عن طريق سنار، وهناك قبض عليه وقتل، فاحتج الإمبراطور تكلاهيانوت عند سلطان الفنج وتوترت العلاقات بين إتيوبيا وملوك الفنج مما أدى إلى تعطل التجارة السائرة إلى مصر عن طريق سنار لفترة طويلة من الزمن. وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة لأوروبا للاتصال بإتيوبيا حتى بداية القرن التاسع عشر.

وخلف تكلاهيانوت على العرش تيوفيلس، ولم تطل مدته أكثر من ثلاث سنوات خلفه بعدها يوسنيوس الذي كان مغتصباً وليس من أفراد الأسرة السلجانية، وكان من الطبيعي أن تقوم عليه الثورات من كل جانب فلم يستطع أن يحتفظ بالعرش طويلاً. واعتلى العرش بكافا بن ياسوفعمل على سحق قوة الأشراف والرموس. وهذا وإن كان غرضاً نبيلاً يرمى إلى تركيز السلطة في يده والقضاء على الفتن من أجل إعادة السلام والطمأنينة، إلا أن وسيلته كانت حروباً متواصلة قضت على الأخضر واليابس وقعت مغبتها على رأس الشعب.

ولم تطل مدته هو الآخر ، فمات بعد تسع سنوات ليخلفه ياسو الثانى سنة ١٧٣٠ فكانت الحرب بينه وبين الروس والزعماء سجالا ، كما قاد حملة إلى سنار خلال حكم الملك بادى الرابع الملقب بأبى شلوخ فى أبريل سنة ١٧٤٤ وأعطى قيادتها إلى أحد أمراء الفنج المفضوب عليهم والهاربين إلى إتيوبيا ، مما يدل على استمرار التوتر بين الدولتين منذ أن قتل القنصل الفرنسى أيام ت كلاهيانوت إلا أن الحملة فشلت وغنمت سنار غنائم كثيرة ذات أهمية .

ومات ياسو فى سنة ١٧٥٥ وترك البلاد مسرحاً لكثير من الفتن المتواصلة أقام فيها الروس سلسلة من الملوك وعدداً من الأباطرة ، لم يزيدوا عن كونهم دمية فى أيديهم يحركونهم كيف يشاءون ، وكثيراً ما كانوا يختلفون معهم فتمتد أيديهم إليهم يقتلونهم بعد أن تعبوا فى تنصيبهم ، وحاربوا دونهم ، كما كان الحال أيام بكافا الثالث (١٧٦٩) وأخوه يؤنس الأول فى نفس العام . ثم ت كلاهيانوت الثانى فى سنة ١٧٧٧ ثم ت كلا جورجيس فى سنة ١٧٨٠ .

وفى خلال هذه الفترة زار اتيوبيا المستكشف الأسكتلندى جيمس بروس James Bruce للبحث عن منابع النيل^(١) ، وترك لنا وصفاً شيقاً لرحلته فى خمسة مجلدات نستطيع أن نستشف منه وصفاً لحالة اتيوبيا الداخلية ، حين كان الإمبراطور لا يملك من الأمر شيئاً . يغايه على كل الأمور بعض الزعماء الذين أحاطوا به ، وكانت هذه الحاشية منقسمة على نفسها وتكون فى داخلها أحزاباً يحاول كل منها التسلط على الإمبراطور الضعيف وقد أقام جيمس بروس فى اتيوبيا سبع سنين ، كان فيها موضع الاحترام ، بل لقد عين حاكماً لإحدى مقاطعات اتيوبيا هى مقاطعة رأس الفيل بسبب نجاحه فى معالجة الإمبراطور الصغير من مرض كان قد ألم به مما جعل والدته تميل إليه ، وتترك له حرية التصرف

(١) أنظر كتاب « كشف أفريقيا » لإشراف المؤلف .

في كل أمر يريد . وقد تمكن خلال هذه المدة من إكتشاف بحيرة طانا وخرج النيل من طرفها الجنوبي ثم نهر أباي الصغير وأخيراً أتجه إلى الغرب حتى وصل القاهرة عن طريق النيل .

وفي خلال المدة التي انقضت من ١٧٨٠ إلى ١٨٥٥ لم يستطيع أمبراطور واحد أن يجلس على العرش مدعياً إنه (نجوس نجست) ملك الملوك بل تقاسم البلاد أكثر من أمير يحاول أن ينشر نفوذه في مقاطعة أو أكثر ولذا استحقت هذه الفترة من التاريخ بالذات أكثر من غيرها إسم (عصر الفوضى الكبير) وكان أظهر الرموس في نهاية هذه المدة أى خلال النصف الأولى من القرن التاسع عشر ثلاثة هم الملك سهلا سلاسى في شوا ، وهو الذى ياتمى إلى الأسرة السلمانية ، ثم الرأس على في أمهرا ، ثم الرأس ووبى في تجرى ، واجتهد كل من الأخيرين في اختراع الوثائق التى تثبت أنه الوارث الحقيقى للعرش السلمايى وأعترفت فرنسا بالرأس ووبى وأرسلت إليه بعثة رسمية تعقد معه معاهدة صداقة ، بينما اعترفت إنجلترا بالملك سهلا سلاسى وأرسلت إليه بعثة أخرى ، ولكن الذى ظفر بالعرش أخيراً في جوندار كانت شخصية رابعة استطاعت أن تتغلب على جميع الأمراء المتنافسين فجلس على العرش باسم تيودور الثانى .

ولم يكن الفتى كاساً في أول أمره سوى فرداً عادياً ، ابناً لامرأة فقيرة تباع الدواء في شوارع جوندار . انضم إلى عصابات الشفتا وقطاع الطريق . وكان يؤجر نفسه لمن يرغب وينضم إلى قوات هذا الراس أو ذاك ، وكانت النتيجة أن مهر في الفروسية والقتال . وإذا ما حاولت القبائل السودانية الضاربة على الحدود الإغارة على الحدود الاتيوبية ، انضم كاسا إلى صفوف المدافعين ، واكتسب بشجاعته إعجاب الناس فالتفوا حوله ورضوا برئاسته . فخورين بالعمل تحت قيادة شاب شجاع مثله .

وفى سنة ١٨٥٣ هجم الراس على الراس ووبى فى جونداد وتغلب عليه وملك المدينة، بل بعث إلى مصر يستقدم مطرانا يتوجه. ولكنه لم يهنأ بانتصاره إذ هاجم كاسا المدينة وهزمه وشتت قواته فى سنة ١٨٥٤ ، وأعلن نفسه نجوس نجست، باسم تيودور الثانى، وطلب من المطران سلامة الثالث الذى كان قد قدم بناء على استدعاء الراس على^(١) تنويجه ، واعترفت به إنجلترا وأرسلت إليه المستكشف البريطانى سولت قنصل إنجلترا فى مصر ، كما اعترف به سهلاسلى ملك شوا رغم انتمائه إلى الأسرة السلمانية الشرعية وعدم انتماء تيودور إليها .

وأرسل تيودور إلى كل من إنجلترا وفرنسا يطلب الإعتراف به أمبراطوراً ولكنه لم يتأخر رداً فكان ذلك سبباً فى انتهاجه سياسة عدائية صارمة نحو رعايا هاتين الدولتين ، بل أيضاً سياسة وحشية نحو أعدائه فاندفع يقاتلهم دون رحمة أو شفقة ، حتى لقبه الناس (بمصاص الدماء) وكانت الحملة البريطانية فى سنة ١٨٦٨ بقيادة الجنرال نابيير Napier هى التى وضعت حداً لحكمه حين انتصر قبيل المعركة فى أبريل من نفس العام

وعادت البلاد إلى الفوضى السابقة ، واقسم البلاد من جديد ثلاثة من الزعماء هم جوباز راس أمهرا ، وكاسا راس تجرى ، ومنليك ابن بنت سهلاسلى ملك شوا وكان الأخير أسرعهم إلى العمل حين أعلن نفسه نجوس نجست بينما أخذ الأولان يستعدان للحرب ، ولم تكن هذه الحرب التى دارت بينهما سهلة

(١) لم يلبث الخلاف أن نشب بين الأبا سلامة المطران المصرى والإكليروس الأتيوى ، بشأن مسألة دينية ، وساءت العلاقة بين الكنيستين إلى حد كبير فندب البطريرك المصرى فى القاهرة أحد الرهبان المصريين ليحسم هذا الخلاف ، وحمله خطاباً إلى الإمبراطور بوجهة نظر الكنيسة المصرية فى هذه المسألة ، إلا أن الراهب المصرى فشل فى حل أسباب الخصام ، وعاد إلى القاهرة ، ولكن قدر لهذا الراهب بعد ذلك أن يرقى منصب البطريركية ، ويزور أتيوبيا لحسم خلاف جديد نشأ بين الحكومتين الأتيوبية والمصرية ، بشأن الحدود ، ونجح فى مهمته ، وهذا هو البابا كيرلس الرابع الذى كان أول من زار أتيوبيا من البطاركة المصريين .

ولا هينة ، فقد استمرت عشرين سنوات كاملة بينما كان منليك يرقبهما عن بعد حتى إذا انتصر كاسا وأخذ جوباز أسيراً أعلن نفسه نجوس نجست باسم يوحنا الرابع .

وكان من الطبيعي أن تدور الحرب بينه وبين منليك إلا أنه لم يستطع أن يتغلب عليه كما تغلب على جوباز ، فهادنا على أن يتنازل منليك عن لقب نجوس نجست مكتفياً بلقب ملك شوا ، وأن تنزوح زاوديتو ابنة منليك من سهلاسلى ابن يوحنا ، ونص في عقد الزواج على أن يخلف منليك الإمبراطور يوحنا على العرش .

وكان من الطبيعي أن تنتج هذه الفوضى أثاراً سيئة على البلاد لعل أولها طمع الدول الأجنبية فيها ، وكان هذا الطمع هيناً في أول أمره اتخذ مظهر البعثات التبشيرية التي أرسلتها هذه الدول الإستعمارية .

وكانت أول بعثة تصل إلى أنيوبيا هي بعثة الأب كرستيان كوجلر البروتستانتية Christian Kogler ثم بعثة الأب صمويل جوبات الأنجلو كنية Samuel Gobat إذ وصلا إلى ميناء مصوع في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٢٩ ومات كوجلر بعد عام من جرح في زراعته أصيب به من جراء انفجار بندقية حاول إطلاقها ، بينما ظل جوبات في البلاد حتى سنة ١٨٣٣ ، وعاد جوبات إلى إنيوبيا في العام التالي يصحبه الأب أيزنبرج Isenberg ولكنه اضطر إلى العودة إلى أوروبا عام ١٨٣٦ ، بسبب سوء صحته ، ثم جاءت بعد ذلك بعثة لودوفيج كراب Ludwig krapf وحاولوا الاتصال برجال الدين الوطنيين متظاهرين أنهم لا يريدون سوى مساعدتهم على قراءة الانجيل باللغة الأمهرية ، ولكن الأنوبيين نظروا إليهم — كما يقول كراب — ككصوص (يحاولون سرقة الخراف من الحظيرة) ولكنهم رغم ذلك لم يسيئوا إليهم . ولم يجد المبشرون أرضاً سهلة في أنيوبيا كما كانوا يظنون ، فقد اعترف الأب جوبات في تقاريره التي

أرسلها إلى جميعته، أنه وجد جميع كبار الأتيوبيين يرسلون بأولادهم إلى الأديرة لتعلم القراءة والكتابة وبعض أوساط الناس يذهبون من تلقاء أنفسهم إلى الأديرة، بل قبل بعضهم أن يخدم في منازل الكهنة دون أجر لأجل أن تتاح له فرصة التعلم منهم . كما اكتشف الرؤوس أن هذه البعثات لم تكن إلا مقدمة للنفوذ الأجنبي الذي يحاول أن يودى باستقلالهم ، فطردهم . فلم تجد البعثات البروتستانتية من تلقى عليه مسؤولية هذا الطرد سوى البعثات الكاثوليكية التي كانت تنافسهم فلم يسعهم سوى أن يخرجوا معترفين بفشلهم معزين أنفسهم عن هذا الفشل بأنهم وجدوا الاتيوبيين معترفين ببعض الحقائق التي يؤمنون بها مثل التثليث وقدرة الله الخالق ، وسقوط الإنسان في الخطيئة ، وفدائه بواسطة السيد المسيح كما يعتقدون في الروح القدس والملائكة، والكنيسة والأسرار والتجسد والآخرة ثم الجزاء والثواب .

وكان النشل الذي أصاب هذه البعثات التبشيرية هو الذي دفع بالدول الإستعمارية لأن تتقدم خطوة أخرى نحو غايتها . فكانت الدسائس التي احتضنتها كل من إنجلترا وفرنسا المتنافستين على الميدان الأفريقي وكانت انجلترا تمهد على فرنسا نجاحها في مصر وظفرها بمشروع حفر قناة السويس كما كانت فرنسا تمهد على انجلترا نجاحها في إثيوبيا ، وتنصيبها الإمبراطور تيودور وأفلحت هذه الدسائس حين تسمم الجو بين إثيوبيا ومصر من جراء غارات القبائل التي تعيش على الحدود بين إثيوبيا والسودان الشرقي ، وكادت الحرب أن تقع بينهما ، ومال كل من تيودور وسعيد باشا إلى الحرب لولا أن تدخل الباب العالي لدى تابعه سعيد ، وطلب منه أن يستبدل بسياسة القوة سياسة اللين فاتجه سعيد إلى الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط يسأله السفر إلى إثيوبيا من أجل إعادة اللودة إلى ما كانت عليه ونجح البطريرك في ذلك وعاد محملا بالهدايا^(١) .

(١) أنظر مقال « كيرلس الرابع وإثيوبيا » للمؤلف ضمن مجموعة مقالات كتاب « البابا كيرلس الرابع » .

وكان وصول هاتين الجارتين إلى هذه النتيجة ، كان أمراً مؤسفاً لكل من إنجلترا وفرنسا فكان لابد من التقدم نحو أغراضهما الاستعمارية خطوات أكثر إيجابية ، وكانت الحملة البريطانية على أتيويا في سنة ١٨٦٨ من أجل القضاء على حكم تيودور بمد أن انقلب من الصداقة إلى العداء وانقلبت إنجلترا إلى الرأس كاسا تنشد صداقته فاتفقت معه على هذه الحملة التي تضع حداً لحكم تيودور وتسلم العرش إلى صديقه ، وكانت إنجلترا تميل في هذا الوقت إلى سياسة اتساع النفوذ البريطانى عن طريق التجارة والسلم أكثر مما تميل إلى تأسيس امبراطورية قائمة على القوة . وكانت مصر قد اتجهت من جديد إلى معارضة تيودور وذلك منذ أن دخلت مصوع في ساططها في سنة ١٨٦٦ أيام اسماعيل وأخذت في تأمين المواصلات بينها وبين كسلا وفكرت في مد خط حديدى بينهما يمر بسنهيت التي اعتبرها اسماعيل داخلة في حدود (الامبراطورية) وعارضه في ذلك تيودور .

فاذا ما فكرت إنجلترا في إرسال حملة نابير Napier طلبت من اسماعيل أن يأذن لها باجتياز بعض الأراضى المصرية على البحر الأحمر ، فلم يكتف اسماعيل باجابتهم إلى ذلك ، بل وضع الأسطول المصرى الذى كان في هذا البحر تحت تصرفهم ، وأرسل إلى مصوع زهاء ثلاثة آلاف جندى ، وكلف حاكم مصوع بمساعدة الانجليز ، وكان أن نجحت الحملة البريطانية في غرضها كما بينا ، وجلس على العرش الأتيوبى الإمبراطور يوحنا الرابع وكانت الهدية التي تركها البريطانيون ليوحنا هذا ، وهى اثنا عشر مدفعاً وألفاً بنديقية عدا كثير من المؤن إلى جانب المستشار الحربى جون تشارلز كركهام ، هى التي كتبت العصر له .

وقد اشتركت مصر في هذه الحملات الحربية ، فقد أراد اسماعيل أن يؤمن

ميناء مصوع فيستولى على ظهير لها . فأرسل متزنجر حاكما لها وخوله سلطة العمل على استمالة المشايخ الرؤوس تمهيدا للغزو .
حتى إذا كانت سنة ١٨٧٢ وشغل يوحنا في حروب الجلا في الشرق احتلت الجيوش المصرية سنهيت .

وفي سنة ١٨٧٥ تنازل الباب العالي لإسماعيل عن مينائى زيلع وبربرة ، فأراد أن يكون لها ظهير يحميها ، وتطلعت أنظاره إلى منطقة هرر ، لاسيما وقد كتب اليه أهلها يستنجدون به من سلطانهم الذى استبد بهم ، فأرسل اليهم حملة بقيادة رؤوف باشا احتلت هرر في أكتوبر من نفس السنة ، وقبضت على السلطان محمد شجيم وقتلته^(١) .

وكان هذا النجاح داعيا لإسماعيل لأن تزيد أطماعه في هذا الركن ، فعول على أن يستولى على كل إقليم سمي ، وكان يوحنا غير غافل عن الأطماع المصرية فأرسل بجيشه ليستقر في حماسين يحافظ عليها ويرقب مجرى الأمور هناك .
ولم تلبث الحملة المصرية أن خرجت من مصوع في نوفمبر تقصد أسمره حتى إذا استولت عليها بعد مقاومة يسيرة ، أطمعها ذلك فأتجهت إلى عدوة ، وكان يوحنا يراقب هذا التقدم ويتظاهر بالضعف والتراجع ، ولكنه لم يلبث أن تبين الساعة الحاسمة فهجم على المصريين بقوة بلغت أضعاف القوة المصرية ، فما هى إلا نصف ساعة حتى أبيدت القوة الرئيسية المصرية عن آخرها ، وكانت هذه الهزيمة الساحقة هى التى دفعت بالقائد العام للحملة وهو أراكيل نوبار إلى الانتحار فراراً من عار الهزيمة ، وانسحب يوحنا من المعركة بعد أن ترك للراس هايلو ، أمر القضاء على بقية القوة المصرية ، فلما رأت القوة المصرية ذلك انتهزت الفرصة وأخذت في الانسحاب ونجحت فيه رغم صعوبة .

وحاول متزنجر أن يخفف من هول هذه الهزيمة بحملة أخرى صغيرة

(١) كان السلطان شجيم قد انضم إلى القوات المصرية لأنه عاد وقاد ثورة على الحكم

المصرى فشلت وقتل فيها

يكسب فيها بعض النصر ، ولكنه هوجم في الليل وأبيدت قوته كلها وذبح هو وأسرتة .

ووصلت أخبار هذه الهزيمة إلى القاهرة فاندفعت الحكومة إلى فكرة وجوب الانتقام لهذه الحملة الفاشلة ، فجهزت حملة جديدة بقيادة راتب باشا ، ومعه الجنرال لورنج الأمريكي رئيساً لهيئة أركان الحرب . وكان التفكير في هذه الحملة وإعدادها سريعاً بحيث لم تتعد المدة شهراً واحداً .

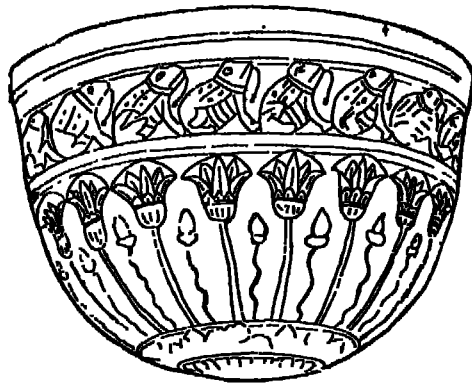
وانحذت هذه الحملة الجديدة مصوع قاعدة لها . وبدأت بالزحف في يناير سنة ١٨٧٦ وجعلت ترسل الرسل إلى الزعماء الأتيوبيين محاولة استمالتهم إلى صفها . بينما تقدم يوحنا بجيوشه نحو الشمال . وفي مارس التقى الجيشان ودارت المعركة ، وكان هجوم الأتيوبيين دافقاً كأمواج البحر ، رغم اشتداد المدفعية المصرية . وكان الأمير حسين بن إسماعيل يشهد المعركة فلم تلبث الحرب أن اقتربت منه وأراد هو ومن معه أن يتفادها فانسحب وشاهد الجند انسحابه فتابعوه ، فكانت فرصة العمر للأتيوبيين فانهزوها ، فكانت هزيمة ثانية أشنع من الهزيمة الأولى . ولكن هذا النصر الذي حازه يوحنا لم يكن هيناً ولا رخيصاً فقد بلغ عدد قتلاه أكثر من خمسة آلاف عدا الجرحى الذين لم تتناولهم الإحصاءات ،

وإذا كانت هذه الحملات قد انتهت بالفوز بالنسبة للأتيوبيين ، إلا أن مؤامرات جوردون وقد عين حكمداراً للسودان لم تقف عند حد فأخذ يحرص كل غاضب على الأمبراطور ويبدل له العون .

ولم تلبث الثورة المهدية أن قامت في السودان ونجحت في إقامة حكم وطني فيه ، ولكن علاقة يوحنا بهذا الحكم الجديد لم تكن أقل سوءاً مما كانت مع الحكم المصري ، ورغم العرض الذي عرضه يوحنا على عبد الله التعايشي



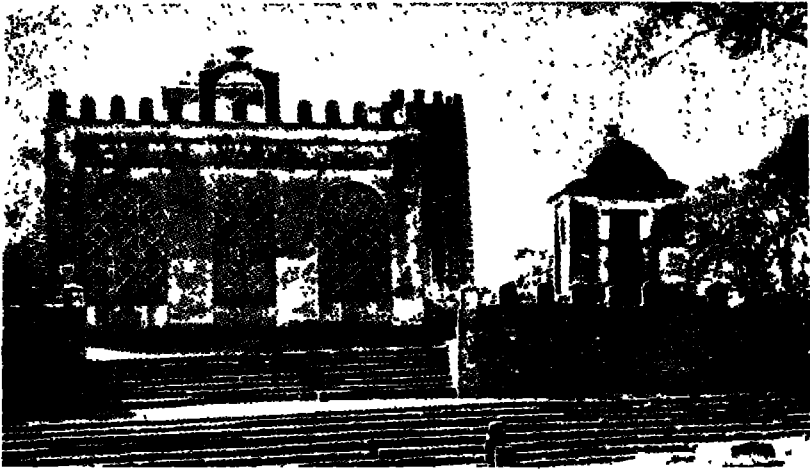
وجها عملة ذهبية للملك أنيلاس (النظر ١٨ سم)



جفنة من البرونز عثر عليها في أزي ديرار وعليها زخارف من زهرة اللوتس
وهي دليل العلاقة بين مصر وإثيوبيا في العصور القديمة



عملة ذهبية للملك عيزانا
ويرى عليها الصليب مكررا ثلاث مرات وهي دليل اعتناقه المسيحية



كنيسة صهيون - وهي أقدم كنائس اكلسوم

أن تتحد القوى الأفريقية للوقوف في وجه الأطماع الأجنبية فإن هذا الأخير لم يكن ليتصور مطلقاً أن يقوم تعاون بين قوة إسلامية وأخرى مسيحية مهما كان مظهر هذا التعاون وهدفه . ولذا استمرت الحرب بين الجارتين رغم عدم وجود مشاكل جدية بينهما ، سوى غارات القبائل المتنقلة التي تعيش على الحدود والتي دأبت على التنقل بين الدولتين لا تعرف ولا تعترف بالحدود السياسية بينهما ، وكان عبد الله قد أرسل إلى الملك يوحنا خطاباً يدعو فيه إلى اعتناق الإسلام والدخول في طاعته ، حتى إذا لم يتلق رداً عليه أرسل إلى يونس الديكم عامله على القلابات بالإغارة على البلاد (الحبشية) فأغار عليها مرتين حيث خرب وقتل وغنم وسبي ، فلم يملك الملك يوحنا إلا أن يستعد للحرب لا سيما وقد رفض التماشي عرضه الخاص بالحلف الأفريقي ضد الخطر الأوربي ، لأن الإيطاليين كانوا قد نزلوا بمصوع منذ أخذتها مصر في سنة ١٨٨٥ وأخذوا في التبوغل غرباً .

وفي مارس سنة ١٨٨٩ دارت الموقعة وانتصر الأثيوبيون على قوات التماشي لولا رصاصة أصابت الإمبراطور يوحنا فانقلب الانتصار هزيمة ، وقتل من الأثيوبيين عدد هائل وغنم السودانيون جثة اعتقدوا أنها جثة الإمبراطور بينما يقول الأثيوبيون أنها جثة هيلامريم أحد قوادهم .

على أن هناك مظهر آخر من مظاهر هذه الفوضى ، كان أبلغ أثراً في أثيوبيا من غيره من العوامل . ذلك هو تكالب الدول الأوروبية على استعمار أجزاء من أفريقيا .

وكانت إيطاليا قد حققت وحدتها أو بعض وحدتها في سنة ١٨٦٦ ورغبت أن تجمعل من نفسها — رغم قصور إمكانياتها — دولة عظمى كغيرها من الدول العظمى التي تملك مستعمرات فيما وراء البحار ، وطافت بأذهان حكامها (م ٨ - أثيوبيا)

أحلام الدولة الرومانية القديمة واستعادة المجد القديم ، وبعد كثير من التردد اتجهت أنظارهم إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر حيث اشترت شركة تجارية إيطالية هى شركة راباتينو للملاحة البحرية من أحد الزعماء المحليين أرضاً حول ميناء عصب وبدأت فى اتخاذها مركز تموين لسفنها . فرأت الحكومة أن تحمل محل الشركة فى هذه الأراضى ، فأرسلت إليها بعثة حررت عقد التنازل نظير ٢٥ ألف جنيه ، ثم صدر مرسوم باعتبار هذه المنطقة مستعمرة إيطالية . وأرسلت إليها أعداداً من المسجونين الذين بدأوا باستغلال ملاحاتها وتموين السفن التجارية التى تقصد الهند .

وغنى عن الذكر أنه لولا ضعف سلطة الحكومة المركزية الأنثوية على الزعماء ، وعدم شعور هؤلاء الزعماء ، وخاصة فى الأماكن المنخفضة من البلاد ، بسلطة الحكومة عليهم ، لما تجرأ زعيم هذه المنطقة عن بيع منطقته .

وفى سنة ١٨٨٥ انتهى حكم المصريين فى السودان كما مر بنا واعتبر أرض خلاء ودعيت إيطاليا لاحتلال ثغر مصوع ففعلت ، وأنتج هذا الاحتلال شبه حى استعمارية وخاصة بين أعضاء مجلس النواب ، وأراد كل إيطالى أن يكون جديراً بشرف الانتساب إلى البنادقة والجنوبيين وأهل ييزا الذين كانوا سادة التجارة فى العصور الوسطى . بل نادى بعضهم بفكرة إيطاليا العظمى تشبهاً ببريطانيا العظمى ، واتجهت أنظارهم إلى ضرورة إحياء هذه المستعمرة ، لاسيما وقد احتلت أيضاً موانئ يبلول وأركيكو وزولا ، وفكرت فى وصل مستعمرة عصب بمستعمرة مصوع وخلق مستعمرة واحدة منهما . بنت على امتلاكها آمالاً عظيمة ، لاسيما وأنجلترا تعضدها ، فعمدت معها برتوكولات ٢٤ مارس و ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ التى حددت النفوذ لكل منهما فى شرق أفريقيا ، فأكدت لإيطاليا حقها فى السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على شرق أفريقيا

الذى يطل على البحر الأحمر وخليج عدن لقاء منح بريطانيا طريقا يشق أثيوبيا على أن لا تتعرض إيطاليا لجرى نهر العطبرة بأى مشروع للرى يؤثر على سير مائه إلى النيل .

وبدأت إيطاليا مشروعات التوسع نحو الأرض الأثيوبية واسكنها هزمت أمام الراس أولا فى دوجالى ، وما كانت هذه الهزيمة لتوقفها عند حدها ، بل ألهمت حماسها إذ تحول أغلب المعارضين للاستعمار إلى ناحية المحافظة على ما بأيديهم إبقاءً على الشرف الإيطالى ، فأرسلت حملة تقترب إلى منليك وقد اعتلى العرش الأثيوبى^(١) على أثر وفاة الإمبراطور يوحنا فى موقعة القلابات أمام الدراويش فحصلت منه على وعد بالمساعدة لقاء هدية هى عشرة آلاف بندقية ونصف مليون طلقة ، فكان أن تقدمت إيطاليا واحتلت كيرين وأسمرة وكسلا وتسيناي ، بل احتلت جميع مقاطعة تجرى . بعد أن عقدوا مع الملك منليك معاهدة اوتشبالى التى نصت على أن يقدموا له هدية قدرها أربعة ملايين من الليرات وبعض الذخيرة والسلاح .

وكان منليك يشعر أنه فى احتياج إلى كل ذلك من أجل المشروع الذى كان يفكر فيه وهو الوصول بحدود دولته إلى النيل غربا وأعلنت إيطاليا للعالم أن (الحبشة) قد أصبحت محمية إيطالية .

(١) على أثر وفاة الإمبراطور يوحنا الرابع فى معركة القلابات ، أسرع منليك إلى الأسقف المصرى فى شوا ، وكان يدمى متاوس ، وسأله أن يتوجه لإمبراطوراً على أثيوبيا ، وكان هذا الأسقف أحد أربعة أساقفة من المصريين ، أقيموا على أربعة مقاطعات أثيوبية لمساعدة المطران المصرى ، ولم يكن أحدهم يملك حق تنصيب الإمبراطور ، لاذ هذا الحق محصور فى يد المطران ، فاعتذر متاوس عن هذا العمل ، فكتب منليك إلى البابا كيرلس الخامس فى القاهرة يسأله أن يأذن لمتاوس بتنصيبه ، فرفع البطريرك درجة الأسقف إلى مطران ونصبه مطراناً على أثيوبيا ، واعتماداً على هذه الترقية ، قام متاوس بتنصيب منليك إمبراطوراً ، فقطع بذلك الطريق أمام الرأس متجاشا بن يوحنا الرابع ، فاعتصم هذا الأخير فى إقليم تجرى ، يقاوم منليك ، حتى إذا تبين خطر الإيطاليين على بلاده ، انضم إلى الإمبراطور منليك ووقفاً معاً أمام الخطر الإيطالى .

ولم يلبث كل من منليك والراس منجاشا ابن الإمبراطور يوحنا ومنافس منليك على العرش أن تبينا خطر الإيطاليين فاتحدا لمقاومتهم وأعلن منليك نقضه لمعاهدة أوتشيانى . وبدأ الاستعداد للحرب ودارت المعركة الأولى فى ديسمبر سنة ١٨٩٥ وهزمت فيها إيطاليا ، إذ قضى على الجيش الإيطالى ولم ينج منه إلا ثلاثمائة جندى .

وكانت هذه الهزيمة سببا فى تصميم الإيطاليين من جديد على كسب الحرب مهما كان الثمن ، لا سيما وقد صمم الإمبراطور منليك فى مفاوضات الصلح التى دارت على أن يتخلى الإيطاليون عن كل ما كسبوه من الأرض ، فتجدد القتال فى أول مارس سنة ١٨٩٦ فى موقعة عدوه الشهيرة التى استطاع فيها الاتيوبيون بهجومهم الساحق ، أن يقتلوا من الإيطاليين ستة آلاف ويأسروا مثلهم ويستولوا على جميع قطع المدفعية فكانت هزيمة من أشنع الهزائم التى منيت بها أمة فى القرن التاسع عشر (١) .

وكانت شناعة الهزيمة سببا فى أن تتردد إيطاليا فى الأخذ بالتأثر لا سيما وقد تردد حلفاؤها (ألمانيا والنمسا) فى معونتها وذهبت صرخات الإيطاليين عبثا فى طلب النجدة . فسقطت الوزارة التى كان يرأسها كرسبى وخلفها أخرى برئاسة رودينى ، قررت محاكمة القائد العام بحجة قيامه بعملية حربية دون الحصول على إذن من حكومته ، وأحيل على الاستيداع رغم براءته. وأسدت إيطاليا الستار على المأساة بعد أن فضلت صداقة منليك على عداوته فعقدت معه فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ معاهدة أديس أبابا ، التى ألغت معاهدة أوتشيانى ، واعترفت بالاستقلال التام لآتيوبيا ، وحددت الحدود النهائية بينه وبين أرتريا ودفعت له تعويضا ماليا قدره مليونان من الريالات .

(١) راجع كتاب « إستعمار القارة الإفريقية واستقلالها » للمؤلف .

الفصل السادس إتيوبيا في العصر الحديث

كان انتصار أتيوبيا في موقعة عدوة ، بمثابة الناقوس الذي دق ليعلم للعالم ميلاد دولة جديدة ، آخذة بأسباب المنعة ، وتصميمها على أن تدخل ميدان الحضارة الأوروبية ، كما كان إنذاراً إلى الدول الأوروبية الاستعمارية بانتهاء أطماعها في هذا الركن من العالم . ولذا بادرت هذه الدول إلى منليك تعلن إليه صداقتها وتصميمها على أن تكون علاقتها معه على قدم المساواة .

وكانت أول الدول سعياً إلى ذلك فرنسا ، التي عرضت عقد معاهدة صداقة نالت بتمتضاها امتياز مد خط حديدي بين جيبوتي (الميناء الفرنسي على ساحل البحر الأحمر) وأديس أبابا ، وكان الجو بين فرنسا وإنجلترا قد تسمم حين انفردت إنجلترا باحتلال مصر ، فصمتت فرنسا على أن تقف دائماً في وجه إنجلترا في كل مشروعاتها لا سيما في قارة أفريقيا . فصمتت فرنسا على أن ترسم من أجل هذا حزاماً فرنسياً أفريقياً يمتد عبر إفريقيا من الشرق إلى الغرب .

ولذا بادرت فرنسا فزينت للامبراطور منليك مشروع مد حدوده الغربية إلى مجرى النيل ، وقدمت له الخبراء الفرنسيين والضباط الفرنسيين من أجل إخضاع المناطق الجنوبية الغربية من أتيوبيا ، وهي المناطق التي تسكنها قبائل الجالا الحامية والشكلا الزنجية ، وبدأ العمل فعلاً في تنفيذ هذا المشروع بعد أن أمدته فرنسا بالأسلحة والذخائر . بينما سيرت فرنسا جيشاً فرنسياً من الكونغو الفرنسي بقيادة الجنرال مارشان ليقايل هذا الجيش الأتيوبي عند أعلى النيل . ووصل الجيش الأتيوبي فعلاً إلى منطقة السوبات ولكنه لم

يلبث أن انسحب عندما وجد نفسه وحيداً في هذه المنطقة ، إذ تأخر مارشان في الوصول إلى نقطة الالتقاء أكثر من ثلاث سنوات حتى إذا وصل أخيراً على رأس مائتين من جنود السنغال إلى منطقة فاشودة ، كان في حالة يرثى لها من الإعياء ، ولم يمض عليه وقت حتى وصل الجنرال ككتشر قائد الجيش المصرى المتقدم من الشمال لاستعادة السودان ، فكان ذلك بدء مفاوضات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية انتهت بانسحاب الفرنسيين ، وقبر مشروع الحزام الأفريقى الفرنسى . ولكن مجبج الجيش الاتيوى في ضم منطقة فازوغلى السودانية إلى نفوذ حكومته ، كما نجح في إخضاع سلطنة كافا المسلمة وإيصال الحدود الأتيوية الجنوبية إلى حدود مستعمرة شرق إفريقية البريطانية وهي كينيا الحالية .

وكانت إنجلترا قد أرسلت إلى منليك الثانى بعثة تسأله الصداقة من أجل الاطمئنان على عملياتها الحربية ، التى كانت تنوى القيام بها من أجل استرداد السودان ، وكذلك فعلت روسيا ، فأرسلت إليه كذلك بعثة عقدت معه معاهدة أعطت الروسين حق بناء دير روسى فى أتيوييا ، نظير مده بالذخيرة التى تلزمه فأعقبها أيضاً معاهدة مع تركيا ، فكانت سلسلة المعاهدات هذه بعد معاهدة أديس أبابا مع إيطاليا ، هى التى أعطت منليك الأمان الكافى ليبدأ سلسلة المشروعات الضخمة التى اتتوى القيام ، بها من أجل نقل بلاده من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .

وجه منليك عنايته نحو الاهتمام بالأحوال الداخلية فابتنى عاصمة جديدة هى أديس أبابا فى الوادى الذى تطل عليه هضبة انطوطو وكان قد تردد طويلاً بين أنطوطو وأديس علم . فابتنى على تل منخفض فى وسط البقعة التى اختارها قصرأ على النظام الحديث وحل منذ هذا الوقت كما هى العادة دائماً لقب (جى)

وهى كلمة تعنى التل لأنه كان من عادة الأتيوبيين أن يبنى الزعماء فى القرى بيوتهم عند قمة التل ، ليشرف على بقية القرية ، وعمل على تشجيع البناء فيها وغرس فيها آلاف من أشجار الكافور ، التى استقدم بذورها من استراليا لتجعل مناخها صالحاً للأوربيين ، وهم الذين اعتمد عليهم منليك فى إقامة صرح دولته الجديدة ، فشجعهم على القدوم والاستقرار ، ومنجهم حق التقاضى أمام محاكمهم الخاصة ، وفقاً لقوانينهم الخاصة ، ورغم ما فى العمل من انتقاص من سيادة بلاده داخل أراضيها ، إلا أنه تحمل وزر هذا العمل مرتاحاً مادام فيه خير أمته .

وكان منشأ هذا النظام المادة السابعة من معاهدة التجارة والصدقة الموقعة فى ١٠ يناير سنة ١٩٠٨ بين الإمبراطور ومسيو كلوبوكوفسكى بصفته وزيراً مفوضاً للحكومة الفرنسية وتنحصر هذه المادة فى أن يحاكم الفرنسيون المقيمون فى اثيوبيا (عم هذا النص فيما بعد حتى شمل جميع الأجانب) أمام قناصلهم فى أحوالهم المدنية والاجتماعية والجنائية طبقاً لقوانين بلادهم ، إذا ما كان الخلاف محصوراً بينهم ، وأحكام هذه المحاكم غير نهائية بل هى أحكام ابتدائية قابلة للاستئناف أمام محاكم الاستئناف فى فرنسا ، ولا يعتبر قيد الأجنبى فى سجلات القنصلية شرطاً لهذا التقاضى بل مجرد الوجود فى اثيوبيا كاف لأن يكسبه هذا الحق .

أما القضايا التى بين أجنب وأتيوبيين أو بين أجنب مختلفى الجنسية ، فهى من اختصاص محكمة أخرى تسمى بالمحكمة الخاصة ، Tribunal Special ، وهى تتكون من قاضى أثيوبى ومن القنصل أو القنصلين التابع لهما المتقاضيان ، ولا يشترك الرئيس فى المناقشة ولكن له حق الاعتراض على الحكم ، وحينئذ لا يكون للحكم قوة التنفيذ إلا إذا استؤنف أمام مجلس الإمبراطور وصودق عليه .

ووجه الإمبراطور منليك عنايته إلى حكام المقاطعات والرموس فعمل على الحد من سلطتهم عن طريق غير طريق الحرب ، فعين موظفين يكونون له عيوناً فيها يحملون أوامره إلى هؤلاء الزعماء ، ويشرفون على تنفيذها ، كما يراقبون تصرف هؤلاء الرؤوس كي تكون كلها متفقة مع ما أراده من وحدة تامة في الوسائل والأهداف ، وبذلك صارت العاصمة للمرة الأولى المركز الحقيقي للقوة في اثيوبيا ، ولم يخل الأمر من بعض القوة يرسلها ضد من لا يخضع له ، وضد من نسى سلطة الإمبراطور عليه لطول عزله ، فكانت حملاته إلى أروسي وكافا وغيرها من الولايات الجنوبية والغربية هي التي أعادت هذه البلاد إلى حظيرة الإمبراطورية ، بعد أن أقصتها عنها الحروب الأهلية الماضية . وفي كل هذه الحروب كان الراس ما كونن ابن عمه وحاكم هرر ، اليد اليمنى للإمبراطور ، والقائد الحقيقي للجيش الإمبراطوري ، بينما وضعت المهمة الفنية على عاتق القائد الروسي الكسندر بنلاتورتس Alexander Benlatouvitche الذي دخل في خدمته وأخذ على عاتقه تدريب الجيش الحديث على النظم الأوروبية الحديثة .

وفي سنة ١٩٠٠ عينت الوزارة الأولى في تاريخ اثيوبيا ، ولم يكن أعضاؤها وإن حلوا القاب الوزراء — ، الا رؤساء لمصالح قسمت إليها الحكومة على نحو ما تفعل الحكومات الأوروبية في بلادها ، ولكن كان رأى منليك وفكره هو المدبر الحقيقي لكل هذه الشبكة المتفرعة ، وهو إجراء وإن كان لا يدل على تقييد لسلطة الإمبراطور إلا أنه يدل على الرغبة في تغيير العقلية الأثيوبية ، التي تنادى دائماً بتركيز السلطة كلها في يد الإمبراطور ، ووجود أى شخص آخر إلى جانبه يحمل جانباً من مسئولية الإضططلاع بشيء منها مضعف لسلطة الحاكم . وكانت هذه الوزارات في أول أمرها تسعاهم العدل والحرية

والداخلية والخارجية والتجارة والمالية والزراعة والتعليم والأشغال العامة . علاوة على وزارة عاشرة هى وزارة القلم أو القصر ، وهى التى كانت بمثابة حلقة اتصال بين منايك ووزرائه مادام ليس هناك رئيس للوزارة ، فكان هذا الوزير أقرب الوزراء إلى الإمبراطور ، وإليه يوكل حفظ الاختام الملكية وقيد الأوامر الإمبراطورية والمراسيم وحفظ جميع المعاهدات وأوراق الدولة الهامة ، كما أنه هو الذى يقدم القوانين والمشروعات إلى الإمبراطور بعد دراستها ، ولذلك جعل له وحده حق توقيع القوانين والمراسيم والتعيينات إلى جانب توقيع الإمبراطور ، ثم تنشر فى الجريدة الرسمية لتدخل فى دور التنفيذ ، كما وكل إليه أمور العائلة المالكة من حيث قيد مواليدها ووفياتها وزواج أفرادها .

وفى سنة ١٩٠٣ أدخل التليفون إلى أديس أبابا ، كما وصل الخط الحديدى إلى ديردوا فى سنة ١٩٠٧ وأثير القصر الملكى بالكهرباء .

وقد أوكل مد الخط الحديدى إلى شركة فرنسية يتكون رأس مالها من ثلاثين ألف سهم . ومات منليك دون أن يصل الخط إلى أديس أبابا . ولما كانت القاطرة قد وصلت مسحوبة بالحبال بأذرع العمال ، فكان عملا جبار قل أن يكون له نظير فى التاريخ . وقد عانت الشركة فى أول أمرها صعوبات مالية كبيرة حتى كادت تياس بعد أن مكثت سنين لا تدفع شيئا من الأرباح لحاملي أسهمها حتى تدخلت الحكومة الفرنسية فتعهدت بسد الخسائر ودفع نسبة معينة من الأرباح .

وفى سنة ١٩٠٦ مات الرأس ماكونن الذى كان الجميع ينظرون إليه كوارث للعرش بسبب أن منليك لم ينبجج ولدا ، فأخذت الأحوال تضطرب والأحزاب الطامعة فى العرش تظهر ، لا سيما وقد مرض الإمبراطور منليك فى سنة ١٩٠٧ وبدا مرضه مميتا ، فخاف منليك أن يهدم البناء الذى تعب فى إقامته ، فعين حفيده لدج ياسو ليكون وارثا له ، وعقد إجتماعا لرؤوس دولته والمطران المصرى والإتشيجى وقدم لهم حفيده ، وكان فتى يافعا لا يتجاوز الحادية عشر من عمره متزوجا من رمانة

حفيدة الملك يوحنا ، ولم يكن سنها يزيد عن السبعة أعوام . وقال لهم (لقد اخترت لكم حفيدى لدج ياسو ليكون خليفنى وأعهد به إليكم ، وليكن محروماً ذلك الذى يرفض طاعته . ملعوناً ذلك الذى لا يخضع له ، فليرزقه الله بكلب أسود ولدا له . وليكن هو أيضاً أميناً لكم . أما إذا خانكم فلتحل عليه لعنة الله) وعين له الراس تساماً معلماً ووصياً .

إزاء عدم الاستقرار الذى بدت بوادره فى اثيوبيا بعد موت الراس ما كونه أخذت الدول الكبرى المتنافسة تتحرك من جديد ، من أجل الظفر بما سمته مناطق النفوذ هناك ، ولم يكن أمامها إلا أن تخفى أغراضها الحقيقية أمام تعبيرات مطاطة من الرغبة فى المحافظة على الحالة الحاضرة .

فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ عقدت الاتفاقية الثلاثية بين إيطاليا وإنجلترا وفرنسا من أجل (المحافظة على سلامة اثيوبيا) ولذلك اتفقوا على التعاون بهدف المحافظة على الوضع القائم فيها من الناحيتين السياسية والأقليمية ، كما تحددها الظروف الراهنة طبقاً للاتفاقات المعقودة بين تلك الدول من قبل . وقد أشارت هذه الاتفاقية إلى الدروتوكولات المعقودة فى سنتى ١٨٩١ ر ١٨٩٤ وهى التى حددت مناطق النفوذ لكل من بريطانيا وإيطاليا . كما نص فى المادة الأولى على أن هذه الاتفاقات المختلفة لا تمس بأى حال من الأحوال حقوق السيادة التى يتمتع بها إمبراطور اثيوبيا فى أراضيه ، وإذا ما طرأ أى اختلال بالوضع القائم تتعهد الدول الموقعه ، بأن تبذل كل منها ما فى وسعها من أجل المحافظة على مصالح اثيوبيا ، وأن تتعاون معاً بهدف المحافظة على مصالح بريطانيا ومصر وفرنسا فى المناطق المحددة ، كذلك مصالح إيطاليا فيما يختص بارتريا والصومال .

وقد أبلغت هذه المعاهدة إلى الإمبراطور منليك يومذاك ، ولعل أظهر ما فى هذه

المعاهدة هو الاعتراف بالحقوق التي كفلتها البروتوكولات السابقة لإيطاليا ، ومنها بروتوكول سنة ١٨٩١ الذي يعطى لإيطاليا نفوذاً في كل اتيوبيا الحالية في الوقت الذي اعترفت فيه إيطاليا بمقتضى معاهدة أديس أبابا في سنة ١٨٩٦ بالاستقلال الكامل لاتيوبيا .

وهذا يدعونا إلى الاعتقاد أن هذا الاتفاق الثلاثي الأخير ، لم يوضع بفرض المحافظة على استقلال اتيوبيا ، بقدر ماوضع من أجل تلافى الخطر الذي قد ينجم من تصادم المصالح بين الدول الثلاث ، في حالة إنهيار اتيوبيا ، وهي الحالة التي كانت منتظرة بعد وفاة الراس ما كونن ، وبعد مرض الإمبراطور منليك ، وعدم وجود الشخصية القوية التي يمكن أن تسيطر على الحالة هناك .

ومات الراس تساما في سنة ١٩١١ فعين ولي العهد مجلس وصاية ترأسه الملكة تايتو زوجة منليك ، وكان الإمبراطور قد بدأ يدخل مرحلة اليأس ، الذي انتهت بوفاته في سنة ١٩١٣ ، فأعلن لدج ياسو نفسه إمبراطوراً وتقبل هذا المنصب بدموع تمزج بين دموع الحزن على جده الذي ترك كل شيء ، ودموع الفرح لتمسكه كل شيء .

ولم يلبث أن انطلقت غرائز الإمبراطور الجديد دون قيد ، إذ انصرف إلى ملاهيته يرتشفها أيما كانت ، فقتل بيده ذات ليلة أحد الجنود في أديس أبابا حين تعرض له . بل تحول عن الديانة المسيحية وأعلن أنه ليس سليل سليمان ولا ملكة سبأ ، بل اخترع لنفسه نسباً يعود به إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وترك زوجته رمانة وتزوج بأخرى مسلمة ، وجعل من المسلمين حاشية له ، وصار يتردد على الجوامع ليصلى فيها وأمر المسلمين في هرر أن يستولوا على ما يشاءون من املاك المسيحيين وكنائسهم ، فكان من أثر ذلك أن قامت الفتنة بين المسلمين والمسيحيين واعتدى على بعض المسيحيين ، وقبضت السلطات على بعض

المسلمين المعتدين لحماكتهم وأرسلوا إلى أديس أبابا لهذا الغرض ، ففعا عنهم ومنحهم الألقاب ، وأصر على أن تكتب الشهاداتان على العلم الأتيوبي بحروف حبشية ، وأهدى العلم إلى قنصل تركيا ، فأرسله هذا إلى استنبول وذكر أن اتيوبيا قد أصبحت تابعة لأمير المؤمنين ، مما سبب الارتباك للقناصل الآخرين وأبرقوا بالأمر إلى حكوماتهم . وكان ذلك في بداية سنة ١٩١٤ . والأمور مضطربة في أوروبا تنذر بقيام الحرب العالمية الأولى . فنظرت إنجلترا وفرنسا إلى الامر على أنه رغبة في الانضمام إلى التحالف بين دول الوسط الأمر الذي يعرض البحر الأحمر وقناة السويس إلى خطر الوقوع في يد الأعداء مما يهدد مركز الحلفاء في الشرق ، فالتقت بذلك مخاوف كل من إنجلترا وفرنسا بمخاوف الاتيوبيين الذين رأوا فيما اتاه الإمبراطور من الأفعال خروجاً على العهد الذي اخذه منليك عليه ، مما يبرر لهم الخروج عليه ، وكذلك من مخاوف المطران ورجال الدين الذين رأوا في هذه الأعمال خروجاً على المبادئ المسيحية ، والإمبراطور بحكم منصبه يعد الحارس الأمين على تراثها في اتيوبيا . وكان المطران هو الانبا متاوس الذي اشترك مع جده منليك في توطيد أركان هذه الإمبراطورية ، وكان رجل الورع والتدين ولكنه في نفس الوقت رجل القوة والحزم .

فلم تجد هذه القوى كلها بدا من أن تعمل لانقاذ البلاد ، لاسيما وقد قامت الحرب العالمية الأولى في أوروبا ، وأصبح موقف الحلفاء ضعيفاً على أثر الانتصار الألماني الأول في كل من أوروبا الغربية والشرقية ، والترك في جاليبولي ، فتجمعت الجيوش الفرنسية في جيبوتي . والبريطانية في بربرة ، والإيطالية في مصوع ، بينما اجتمع الزعماء برئاسة الراس تفرى ابن الرأس ماكونن ، واتجهوا إلى قصر المطران طالبين أن يحلهم من يمين الولاء للإمبراطور ، الذي يقود بلادهم نحو الخراب ، وطلبوا منه أن يصدر قراراً بحرمان لدج ياسو ، وإقامة

الأميرة زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة عليهم ، على أن يكون الرأس تفرى وصياً ووريثاً للعرش ، ووجد هذا الأمر صدى في نفس المطران الذى بدأ منفذا لرغبة الشعب ، التى هى نفس الوقت رغبته ، وفى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٦ ، اصدر الانبا متاوس بصفته مطرانا لانيويا وخادما للصليب ، وممثلاً لبطريك الاسكندرية ، خليفة القديس مرقس ، قراراً بحرمان لدج ياسو ، وآخر بتعيين زاوديتو ابنة منليك إمبراطورة لانيويا ، وشفع هذين القرارين بخطاب إلى أمراء هرر وجميع رجال الجيش والرؤساء وشعب انيويا ، يحلهم فيه من يمين الولاء والطاعة للدج ياسو ، ويدعوهم إلى الاخلاص والولاء لامبراطورتهم الجديدة ، ولعقيدهم الأرثوذكسية الصحيحة ، وهدد من لا يخضع لهذا القرار بأن تنزل عليه لعنة الأب والابن والروح القدس ، وكذلك نقمة الرسل الاثني عشر وآباء الكنيسة الثلاثمائة والثمانية عشر المجتمعين في نيقية ^(١) .

وكان من المنتظر أن يحدث عقب ذلك اضطرابات ، ولكن الأمر مر على خلاف ذلك ، إذ قابله الشعب بالهدوء بل بالاعتباط لأنه رأى فيه صدى لما في نفسه من نقمة على من كان يسعى الى الإضرار بمستقبل بلاده وعقيدته ، فلم يسع لدج ياسو سوى الحرب من اديس أبابا إلى إقليم والو ذى الأغلبية الإسلامية من الجالا حيث اتصل بالمسلمين في الصومال يطلب مجدهم . وجيوش الحكومة تلاحقه ، وهو إذا كان قد نجح في تكتيل جيش أخذ يقاوم به مدة حتى قبض عليه ، إلا أنه لم يحاول مطلقاً أن يطعن في قرار حرمانه الذى صدر من جهة تملك حق اصداره ، وانصرف الشعب إلى الالتفاف حول إمبراطورته الجديدة التى توجهت المطران وفقاً للطقوس المعتادة في ١١ فبراير سنة ١٩١٧ ، ووجهت الى الشعب نداء تبرر فيه إقدامها على هذه الخطوة ، بما بدر من لدج ياسو نحو جده العظيم

(١) يقصد بذلك مجمع نيقية الدين الذى عقد في سنة ٣٢٥ من أجل دحض بدعة أريوس وقد أجمعت جميع المذاهب المسيحية على احترام قرارات هذا المجمع وكذلك احترام جميع الآباء الذين حضروه وقد اعتبروهم وما زالوا يعتبرونهم قادة العالم المسيحي القديسين .

وبلاده وكنيسته ، وعاهدت الشعب على المحافظة على الإيمان الأرثوذكسى طبقاً لعقيدة القديس مرقس السكندرى .

وكان موقفاً غريباً حقاً أن تجلس على العرش إمبراطورة رجعية غير متعلمة لا تؤمن بشيء من الأفكار الحديثة ولا بالاتصال بالعالم الخارجى ، ولا بالحضارة الحديثة ، بينما كان ولى عهدها متعلماً يجيد الفرنسية ، تلقى تعليمه فى مدارس الارساليات الأجنبية فى هرر حيث كان والده حاكماً ، يتطاع إلى الخروج ببلاده من عزلتها والسماح للحضارة الأوروبية أن تجد طريقها إليها فى سرولين أحياناً وفى عنف أحياناً أخرى ، ولذا انقسمت البلاد إلى أكثر من حزب ، والتف الرجعيون منهم حول الإمبراطورة ، بينما التف أنصار الحضارة الأوروبية حول ولى العهد ، بينما التف آخرون حول زعيم آخر ينتهز الفرصة الملائمة لينقض ويخنى من هذا الخلاف مأرباً وإن كان لا يتبينه تماماً .

ولم تحل هذه الأزمة المحدودة ، دون أن يسعى الراس تفرى لتنفيذ برنامج الإصلاحى ، فعمل على إدخال إتيوبيا عضواً فى عصبة الأمم ، فسمى أولاً إلى كسب جبهة تؤيده فى هذا السعى ، ثم إلى إصلاح الأحوال الداخلية بحيث لا تكون مانعة من هذا القبول . فأصدر القوانين بتحرير العبيد وإلغاء تجارة الرق ، وسعى إلى القضاء على الجلابين ، ولم يتردد فى استعمال الجيش من أجل تأمين الطرق والقضاء على الشفتا ، وعصابات قطاع الطريق ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢٣ تقدم بطلبه إلى عصبة الأمم تؤيده إيطاليا ، وعارضت الطلب كل من فرنسا وبريطانيا بحجة وجود تجارة الرقيق هناك ولكنه استطاع أخيراً أن يكسب هذه العضوية بتعزيد إيطاليا .

ولم يكن هذا التعزيد الإيطالى عبثاً . فقد كانت تسعى هذه الدولة لإحياء أطماعها القديمة فى إتيوبيا بعد أن فشلت فى الحصول على أى مستعمرات جديدة عن طريق القوة

رغم انضمامها إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، فتقدمت في نوفمبر سنة ١٩١٩ إلى بريطانيا بمذكرة خلاصتها أن تعاملها كجبهة واحدة في مفاوضات أوسع نطاقاً وذات صبغة استعمارية ناجمة عن معاهدة لندن في سنة ١٩١٥، لتحصل بريطانيا على امتياز بتنفيذ مشروع سد بحيرة طانا داخل منطقة النفوذ الإيطالي. وذلك إلى أن يتم تحديد المنطقة الإقليمية التي تضم إلى بريطانيا بالنسبة لمصالحها المائية، كما تحصل أيضاً على امتياز بإنشاء طريق للسيارات يمتد من شاطئ البحيرة حتى السودان، بينما تحصل إيطاليا على امتياز لإنشاء خط حديدى يصل أرتريا بالصومال (الإيطالي) ويسير إلى الغرب من أديس أبابا، واعتراف صريح من بريطانيا بحق إيطاليا في استغلال غرب أتيوبيا اقتصادياً لصالحها. ولكن بريطانيا رفضت هذا الاقتراح لأنها كانت ترفض السماح لدولة أجنبية بإقامة أى نوع من السيطرة على منابع الأنهار الحيوية لرخاء السودان، لا سيما وقد أثبتت التجارب التي أجريت هناك - منذ أن دخلت إنجلترا السودان في سنة ١٨٩٩ - إمكان زراعة القطن على نطاق واسع، فكان تعضيد إيطاليا لأتيوبيا للدخول إلى عصبة الأمم، محاولة لدفع الثمن مقدماً من أجل الحصول على ما تتمناه في أرضها من امتيازات، حتى إذا بدأت بريطانيا في سنة ١٩٢٤ أن تفتح باب المفاوضات مع الحكومة الأتيوبية من أجل إنشاء خزان بحيرة طانا وجدت إيطاليا الفرصة ملائمة للتدخل وتبادلت مع الحكومة البريطانية المذكرات من جديد بشأن مناطق النفوذ في غرب أتيوبيا.

وفي ديسمبر سنة ١٩٢٥ قبلت بريطانيا الاقتراح الذي سبق أن رفضته في سنة ١٩١٩ واعتبرت هذا الإتفاق متفقاً مع الاتفاق الثلاثي المبرم في سنة ١٩٠٦.

وإذا ما أذيعت نصوص المذكرات المتبادلة أحدث ذلك دويماً كبيراً في كل من أتيوبيا وفرنسا، التي كان يعنينا الأمر أكثر من غيرها، والتي

اعتبرت هذا الاتفاق الجديد خرقاً وتنافياً مع اتفاق سنة ١٩٠٦ ، كما احتجت
أثيوبيا لدى عصبة الأمم فأرسلت في ١٩ يونيو سنة ١٩٢٦ مذكرة إلى سكرتير
عام العصبة لتوزيعها على جميع الدول الأعضاء بأن الغرض من هذا الاتفاق لم
يكن سوى الضغط على حكومة إثيوبيا — العضو في العصبة — بهدف
الحصول على امتيازات اقتصادية ، الأمر الذي يتعارض تعارضاً صريحاً مع
المبادئ الأساسية للعصبة ، التي تفرض المساواة التامة بين الأعضاء . كما أنها
تتعارض تماماً مع استقلال إثيوبيا ، إذ تنص على تبادل دولتين لمنافع وامتيازات
في أراضي لا يسيطر عليها أحد منهما ، فبادرت كل من إيطاليا وبريطانيا
تردان بمذكرات أرسلت أيضاً إلى سكرتارية العصبة تنفيان فيها نية الاعتداء
على استقلال إثيوبيا السياسي والاقتصادي .

على أن المذكرات المتبادلة بين إيطاليا وبريطانيا تكشف لنا عن حقيقة
النوايا التي كانت تنويها إيطاليا تجاه إثيوبيا ، إذ أن انتهاء المحاولة الإيطالية
بالتوسع في أثيوبيا على أثر هزيمة عدوة في سنة ١٨٩٦ لم تترك لها في شرق
أفريقيا سوى مستعمرتين فقيرتين^(١) كانتا في الواقع عبئاً ثقيلاً على إيطاليا الفقيرة ،
كما أنهما معزولتان إحداهما عن الأخرى ، فكان من الطبيعي أن تسعى إيطاليا
إلى توحيدهما وما كانت هذه الوحدة ممكنة ، دون ضم الأراضي الأثيوبية التي
تفصلهما ، ولذا كانت رغبة إيطاليا في مد خط حديدي بينهما يمر غرب
أديس أبابا ، تخفى وراءها أغراضاً استعمارية أكثر منها اقتصادية . ونظرت
إيطاليا إلى اعتراف بريطانيا بحقها في إنشاء هذا الخط على أنه تشجيع ضمني يضمن
مناطق شاسعة من أثيوبيا .

ولما حال تنبه أثيوبيا وفرنسا إلى هذه المحاولة الحزبية من إيطاليا تمخضت
العقيلة الإيطالية عن مشروع جديد ورأت فيه بوادر أمل بتحقيق مشروعها

(١) ما ارتريا في الشمال والصومال الإيطالي في الجنوب

في إتيوبيا وإن كان ذلك عن طريق طويل نوعا ، وهو عقد معاهدة صداقة وتحكيم وتوفيق بينها وبين إتيوبيا ، لمدة عشرين عاما ، نصص على أن يسود السلام والصداقة الدائمة بين البلدين ، عل أن يتعهد كل منهما ، بألا يتخذ أى إجراء من شأنه أن يمس استقلال الدولة الأخرى ، كما تنصص على تنمية العلاقات التجارية بين الدولتين ، وفي حالة حدوث خلاف بينهما يصعب تسويته بالطرق الدبلوماسية العادية ، فإنه يعرض على هيئة دولية للتوفيق والتحكيم دون الالتجاء إلى القوة المسلحة ، ووقع هذا الاتفاق في الثاني من أغسطس سنة ١٩٢٨ ، ووقع في نفس الوقت اتفاق جديد ينصص على منح إيطاليا امتياز انشاء طريق للسيارات من ميناء عصب الى مدينة ديسى (عاصمة اقليم والو) لقاء منح إتيوبيا منطقة حرة في هذه الميناء لمدة ١٣٠ عاما . وبالرغم من توقيع ذلك الاتفاق فإنه ظل حبرا على ورق ، فلم تسع إيطاليا الى البدء بإنشاء هذا الطريق ، كما لم تسع إتيوبيا الى الحصول على المنطقة الحرة وظلت تستغل ميناء جيبوتي الفرنسى الذى يقود اليها الخط الحديدي الوحيد لديها كخروج لتجاريتها .

ولم تحمل سلطة الراس تفرى المحدودة أيضا من أن يعمل جاهدا على تنفيذ برنامج الإصلاحى ، وهو وإن كان يحمل في جنباته برنامجا ثوريا ، يؤدى الى انتقال بلاده الى مصاف الدول المتقدمة ، إلا أنه آثر أن يراعى الظروف التى تجتازها البلاد . كما يراعى هؤلاء الذين يتربصون الفرص ، فأثر التروى بل آثر أن يكون برنامجهم مدرسا دراسة كافية ، فقام بعدة زيارات لمصر والدول الأوروبية بغرض تعريف هذه الدول ببلاده ، وبرغبته في إقامة علاقات وطيدة من المودة تقوم على الاحترام المتبادل ، يتعاون فيها الطرفان من أجل الأغراض الثقافية والعلمية والاقتصادية ، كما أعقب ذلك بتعيين وزراء مفوضين لإتيوبيا في البلاد التى لم تكن له بها علاقات من قبل ، حتى اذا عاد تابع سياسة الدفع ببلاده نحو الحضارة فافتتح أكثر من مدرسة ابتدائية في أديس (١٢ - إتيوبيا)

أبابا - وغيرها من المدن ، بل جعل فيها التعليم مجانيا ، وهى خطوة كبيرة على بلاد لم تكن حتى الآن ذات موارد مالية معروفة ، بل كانت أكثر الضرائب عبارة عن حقوق عينية دورية . وكانت أكبر المدارس مدرسة تفرى ماكونن التى أسندت إدارتها إلى مدير فرنسى ، وجعل التعليم فيها فى الفصول الكبيرة باللغة الفرنسية، فضمت بين جدرانها منذ سنها الأولى أكثر من ألف طالب يتمتع بعضهم بالإقامة الداخلية الكاملة^(١) .

وأنشئت أيضاً محطة للكهرباء لأجل إنارة أديس أبابا ، ومدت أسلاك الكهرباء فى شوارع العاصمة ، وشقت الطرق الرئيسية من أجزاء البلاد المختلفة وقرنت بخطوط التليفون والبرق . فساعد هذا كله على زيادة سلطة الحكومة المركزية ، لا سيما وقد قرنت بجيش مدرب على النظم الأوروبية الحديثة وقوة بوليسية للإشراف على الأمن داخل المدن .

وفى أديس أبابا مهدت كثير من الشوارع ورصفت ، وزيدت قوة بوليسها وأنشئت لها بلدية من أجل تخطيط سياسة انشائية متواصلة ، كما شجع الأجانب على الإقامة وعلى إنشاء الشركات، ومنحت لهم التسهيلات وجعل عبء الضرائب عليهم خفيفاً .

وفى سنة ١٩٣١ توفيت الإمبراطورة زاوديتو فجأة . فارتقى الراس تفرى العرش وأطلق على نفسه اسم هيلاسلاسى الأول (ومعناها قوة الثاوث) فعمل على الإسراع بتنفيذ برنامج غير عابىء بمال أو مجهود .

ولعل أول ما يذكر له بالفخر هو منحه البلاد دستوراً أنشئت بمقتضاه هيئة تشريعية تتكون من مجلسين ، أحدهما للنواب والآخر للشيوخ . وكلاهما معين وبذلك أوضح تقسيم السلطات إلى تشريعية وتنفيذية وقضائية الأمر الذى لم يكن واضحاً من قبل ومركزاً كله فى شخصه^(٢) .

(١) كانت هذه ثانى مدارس إيتيوبيا الحديثة . وكانت الأولى هى التى أنشأها منليك واستعان فيها بسبعة من الأساتذة المصريين يرأسهم الأستاذ حنا صليب
(٢) راجع كتاب « الدستور الإيتيوبى » للمؤلف .

ومما هو جدير بالذكر أن جلالة الأمبراطور منح شعبه هذا الدستور دون أن توجد بالبلاد أحزاب أو هيئات سياسية أو يكتمل لها وعى سياسى ، تطور حتى أحس بحاجة البلاد إلى الحكم الدستورى . ولكنه أراد كما ذكر فى مذكرته التفسيرية ، أن يظهر شكره لله العظيم على ما حباه به من نعمة من جلوسه على عرش آبائه ، بأن يسابق الزمن ويدفع بشعبه إلى طريق التقدم ، ولذا كان هذا الدستور خطوة طيبة نحو تنبيه شعبه إلى ما له من حقوق لدى الإمبراطور ، يستطيع أن يتمتع بها دون أن يكون فى ذلك حرج مطلقاً .

ويعتبر إصدار هذا الدستور نقطة تحول ظاهرة فى تاريخ إتيويا . رغم السلطة المحدودة التى أعطيت للهيئة التشريعية التى كانت لا تملك حق سؤال الوزراء عن أعمالهم ، ومعنى ذلك عدم مسؤولية الحكومة أمام (النواب) وان ملكوا حق مناقشة الوزراء والموافقة على الميزانية ، وتشريع القوانين ، والموافقة على القوانين التى تسنها الحكومة . إلا أنه اعترف بحق الشعب فى التمتع ببعض الحقوق الأمر الذى كان ينكره عليه جميع الأباطرة السابقين . كما اعترف بحق الشعب فى أن يطلع على أعمال الحكومة سواء بسماعه خطاب العرش أو بحضور جلسات المجلسين . كما اعترف بوجود ميزانية ذات موارد ومصارف محددة ، من أجل الصرف على مافيه خير الشعب بعد أن كانت هذه الميزانية غير محددة الموارد ، ومعظم مصارفها بل كلها على الشؤون الإمبراطورية وحدها . وإذا كان هناك من مآخذ كثيرة تؤخذ على هذا الدستور إلا أننا نعلم أن أفضل الدساتير لا الذى يسرف فى منح الحقوق ولكن هو الذى يتمشى مع حالة البلاد الثقافية والاجتماعية ويتلائم مع عادات الشعب وتقاليده .

وبدأ أيضاً بتنظيم الضرائب ، وجعلها ذات مقادير ثابتة ، وفى مواعيد ثابتة ، ثم تحويلها من عينية إلى نقدية ، وبذلك أتيح له أن ينظم مواعيد الصرف . إذ

كان الاضطراب فى صرف الاستحقاقات والمرتبات أكبر ما يوجه إلى النظام السابق من نقد .

وفى سنة ١٩٣٢ توج جلالة الإمبراطور فى حفل كبير دعى لشهوده ممثلو الحكومات المختلفة والبيوت المالكة فكان ذلك فرصة لزيادة تعريف بلاده إلى الدول التى يعينها الأمر، فى تعرف ما تحتاجه بلاده من خدمات . حتى إذا تم التتوج خرج ولى عهدده إلى الدول التى أرسلت وفودها ليشكرها على اشتراكها ، ويوثق علاقات بلاده بها .

ولكن كل هذه الجهود المبذولة ، والتى كان ينتظر لها أن تأتى ثمارها سريعاً ، كتب لها أن تتوقف ، بل أن تتقهقر وتهدم لفترة ليست باليسيرة ، بسبب الاحتلال الايطالى إذ لم يمض على جلوسه على العرش أكثر من أربع سنوات حتى ابتليت البلاد بهذا الاعتداء ، من بلد كان يتوق إلى الأخذ بالتأثر بعد أن هزمت جيوشه مرتين قبل انتهاء القرن الماضى .

الفصل السابع

(١) الاعتداء الإيطالي

كان استيلاء الفاشيين على السلطة في إيطاليا سنة ١٩٢٢ ، نذيرا بتغيير الأحوال فيها واتتهاجها لسياسة جديدة ، طابعا ادعاء العظمة من أجل استعادة (مجد الامبراطورية الرومانية) . وكانت جميع الجهود التي بذلت في الداخل لم تنتج إلا القليل من الخير للشعب الإيطالي ، ولكن كانت الدعاية في الصحف وغير الصحف هي التي تحاول إبرازه عظيما جباراً ، إذ كان البؤس مازال ما يستشري في السواد الأعظم من السكان سواء كانوا من العمال أو الزراع ، فكان من الضروري تحويل الرأي العام من البؤس الداخلي الى البحث عن مجد سريع التحقيق في الخارج ، ولم يكن هناك من مجال لهذا المجد سوى جيران المستعمرات الإيطالية في شرق إفريقيا حيث الجيوش الضعيفة غير المستعدة ، وكان العملاء الإيطاليون قد مهدوا السبيل . وكان هؤلاء العملاء من القناصل المزيفين الذين انبثوا في أجزاء إثيوبيا ، يمسخون أجزائها ويتصلون بمن خيل اليهم أنهم من الزعماء لشراء ضمائرهم ، أو من المبشرين الذين تظاهروا بإسداء الخدمات الطبية للاهالي ، وكانت حالة إثيوبيا وأهلها تجعل من الصعب رفض هذه المساعدات ، ولذا لم تتم الشكوك حول أهداف هؤلاء الناس .

وكان من الواضح إذن أن ليس هناك من سبب لهذه الحرب، سوى الشعور بالنقص ، وهو الشعور الذي تملك الشعب الإيطالي ومعه الحكومات الإيطالية

(١) أنظر كتاب « استعمار القارة الإفريقية واستقلالها » للدؤلف .

المتعاقبة ، منذ بداية القرن التاسع عشر، وبدا أظهر ما يكون، بعد استكمال الوحدة الإيطالية في سنة ١٨٧٠ تدفعهم — منذ سنة ١٨٨٠ — إلى سلسلة المغامرات الاستعمارية التي قاموا بها سواء في شرق أفريقيا أو شمالها ، وهي المغامرات التي لم يكسب منها الإيطاليون شيئا سوى ازدياد هذا الشعور زسوخا ، وهو نفس الشعور ، الذي دفعهم إلى التحالف مع ألمانيا قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم نقض هذا التحالف في سنة ١٩١٥ ، ثم إلى المطالبة بتملك المستعمرات بعد سنة ١٩١٩ بعد أن حرموا من أن يغالوا شيئا منها خلال التسوية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى .

وبدت النذر الأولى لهذا الاعتداء في حادثة (ولول) التي تتلخص في أن البعثة البريطانية الإثيوبية لتعيين الحدود بين منطقة الأوجادين والصومال البريطاني قد أنهت مهمتها وأخذت طريقها نحو هرر للوصول إلى ديردوا لركوب القطار إلى أديس أبابا ، وعند منطقة بر ولول ، وهي نقطة تبعد ٦٠ ميلا في الداخل عن الحدود بين إثيوبيا والصومال (الإيطالي) ، شاهدت كتيبة إيطالية معسكرة . فأمرها رئيس الفرقة الإثيوبية التي كانت ترافق البعثة بالرحيل عن هذه الأرض الإثيوبية ، وسرعان ما اصطدمت القوتان ، وطلبت القوة الإيطالية النجدة باللاسلكي ، فوصلت في أقل من نصف ساعة ، مما يدل على وجود هذه النجدة أيضا في أرض إثيوبية، وكان من الطبيعي أن تثار هذه المسألة بين الدولتين، وكان من الطبيعي أيضا أن تسوى بالطرق الودية في مدى أسبوع أو أكثر طبقا لاتفاق سنة ١٩٢٧ إذا حسنت النيات، فاقترحت إثيوبيا إقامة لجنة تحكيم لفض النزاع ، ولكن الحكومة الإيطالية رفضت التوسط وطلبت التعويض . هذا بينما لجأت إثيوبيا إلى عصبة الأمم تلفت نظرها إلى خطورة الحالة ، بسبب ما فعلته إيطاليا من اتخاذ هذا الحادث البسيط ، فرصة لحملات قاسية من الجرائد الإيطالية والخطب الرنانة المملوءة بالتهديد ، ولم تنس الجرائد الإيطالية في مجال

التهديد أن تشير على عصبة الأمم بإخراج إتيوبيا (البربرية) من نطاق عضويتها ، بسبب عدم استحقاقها لهذه العضوية^(١) .

ويبدو أن عصبة الأمم لم تتحرك منذ تاريخ الحادثة في ١٤ ديسمبر ١٩٣٤ ، مما دعا الحكومة الإتيوبية إلى إرسال نداء آخر إلى العصبة في يناير ١٩٣٥ ، تلقت نظرها إلى رفض إيطاليا أى تسوية سلمية للنزاع ، وقد يعود هذا الرفض إلى التقارب الفرنسي الإيطالي ، الذى حدث على أثر زيارة السيول لافال وزير الخارجية الفرنسية لروما ، حيث عقد اتفاق صداقة بين الدولتين ، وقد عرف لافال منذ ذلك الوقت بميله إلى النظام الفاشي ، وكان من أثر هذا الاتفاق أن بدأت الصحف الفرنسية حملتها التأييدية لسياسة إيطاليا الفاشية .

وكانت فرنسا قد بدأت تشك في نيات ألمانيا ، بعد أن نجح هتلر في تقلد السلطة خلفاً للمارشال هيندنبيرج في يوليو سنة ١٩٣٤ ، وكانت سياسته ترمي إلى التخلص من كل أثار معاهدة فرساي التى ختمت بها الحرب العالمية الأولى ، فسعت إلى عقد الإتفاق الفرنسي الإيطالي بل إلى تعضيد المطالب الإيطالية في عصبة الأمم ، وكانت إيطاليا منذ أن اقترحت طرد إتيوبيا من عضويتها ترفض حضور الجلسات التى يحضرها الأعضاء الإتيوبيون .

وكانت بريطانيا تقف في وجه الأطماع الإيطالية وتساند إتيوبيا ، ولكنها في نفس الوقت لم تتردد في أن تحاول تسوية الأمر سلمياً ، وقد قام بهذه المحاولة السير صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية ، الذى قابل السيول لافال ثم خرجا إلى العالم بمشروع تسوية يتجه إلى إعطاء إيطاليا نصف إتيوبيا الجنوبي ، الأمر الذى رفضه الطرفان ، إلا أن شدة معارضة إنجلترا في مناقشات العصبة لإيطاليا مكنتها من تكوين جبهة من الأعضاء وافقت على منع توريد السلاح إلى طرفي الخصومة ، ثم توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا بسبب عدم ميلها إلى

(١) نسبت إيطاليا أنها هي التى وقفت إلى جانب إتيوبيا في الانضمام إلى العصبة

احترام قرارات العصبة وإمعانها في الاعتداء ، وكان من الواضح أن عدم
توريد السلاح إلى طرفي الخصومة كان ضاراً بإثيوبيا ، أكثر من ضرره على
إيطاليا لأنه كانت هناك صناعة لبعض قطع السلاح وكذلك وسائل المواصلات
والنقل في إيطاليا بينما كانت إثيوبيا محرومة من هذا كله . كما أن قرار فرض
العقوبات الاقتصادية على إيطاليا كان حراً على ورق إذ أنه كان الأول من نوعه
في تاريخ عصبة الأمم ، ولم تخلص أكثر الدول الأعضاء في تنفيذه .

وأخذ السلاح والمؤونة والرجال تتدفق على ارتريا ، عبر قناة السويس التي
لم يكن من الممكن اغلاقها في وجه السفن الإيطالية بسبب مانصت عليه اتفاقية
سنة ١٨٨١ من حياد القناة في وجه جميع الدول . لاسيما وأن مصر لم تكن
طرفاً في النزاع ، كما أن الحرب لم تكن قد أعلنت بصفة رسمية . وقد نجحت
فرنسا في تأمين مركزها في أوروبا بعقد الاتفاق الفرنسي الروسي في مايو سنة ١٩٣٥ .
هذا بينما قررت العصبة وضع المسألة الإثيوبية في يد لجنة عليا مكونة من إيطاليا
وبريطانيا وفرنسا وكان من الواضح إنها لجنة صورية ما دامت إيطاليا وفرنسا
متفقتين منذ بنابر ، وبريطانيا لا يعنيتها سوى المحافظة على المصالح البريطانية في إثيوبيا
والبحر الأحمر ، فكانت إثيوبيا في الواقع موضع خدعة دولية كبيرة سواء
من ناحية الدول الكبرى أو عصبة الأمم ، إذا بينما كان مندوبو بريطانيا
يرفعون أصواتهم بالتنديد بإيطاليا . والدفاع عن إثيوبيا وعصبة الأمم باسم
الدفاع عن الأمن الدولي الجماعي ، كان السفير البريطاني في روما يؤكد للحكومة
الإيطالية أن بريطانيا لن تغلق قناة السويس في وجه سفن نقل الجنود والأسلحة
الإيطالية المتجهة إلى شرق أفريقيا ، بينما كان موسوليني يهدد بغزو مالطة ومصر ،
وإنجلترا ترسل بجزم من أسطولها إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهي في
نفس الوقت تحشى انتصار إثيوبيا في تسوية الأزمة ، إذ قد يؤدي ذلك إلى

انهيار سمة إيطاليا بل الى انهيار النظام الفاشى كله ، وهو نظام قد استقر فعلا في إيطاليا . نجح في حمايتها من النفوذ الشيوعى ، الذى كان قد بدأ يقسرب إليها منذ سنة ١٩٢٠ ، وظهر في شكل مظاهرات وإضرابات بين عمال المصانع في ميلان وتورين ، هذا إلى أن إنجلترا كانت تخشى انتصار دولة سوداء في إفريقيا مما قد يرفع الروح المعنوية للأفريقيين ومعظمهم وخاصة في شرق إفريقيا كالسودان وكينيا وتنجانيقا وأوغندا والصومال البريطانى ، خاضع للنفوذ البريطانى ، وهناك كانت بريطانيا تحاول أن تبنى إمبراطوريتها الثالثة بعد أن هدد نفوذها في الهند وبدأ للعيان أن أئمن جوهرة في التاج البريطانى سوف تستقل آجلاً أو عاجلاً . وكذلك مصر بعد أن اعترف باستقلالها رسمياً في سنة ١٩٢٢ . وقد كان لهذه الأزمة صدى كبير في العالم أجمع من حيث كونها اعتداءاً صريحاً من دولة غربية على دولة شرقية ، أو من حيث كونها اعتداءً صريحاً من دولة بيضاء على أخرى سوداء ، ولذا كانت جميع الدول الشرقية عامة والسوداء خاصة تعطف على إثيوبيا ، وتكتب جرائدها محذرة من مغبة هذا الاعتداء الذى سوف يثير مكانا من العداوة بين البيض والسود في العالم كله ، أو بين الشرق والغرب . بل إن زنوج أمريكا كتبوا يحثون حكومتهم على ضرورة الوقوف في صف إثيوبيا والأخذ بفاصرها . حتى إذا لم تتحرك - لأنها كانت بعيدة عن عصبة الأمم من ناحية وتتجه سياستها إلى انتهاج سياسة العزلة من ناحية أخرى - قام شعور زنجى أمريكى يرجو نصرته هذه الدولة التى تنسب إليهم ، وتكونت جمعيات كثيرة أخذت في جمع الاشتراكات من أجل إرسال معونة زنجية إلى إثيوبيا ، وأبدى كثيرون منهم رغبتهم في التطوع في الجيوش الإثيوبية المدافعة عن استقلال دولة إفريقية .

وفي خلال هذه الاستعدادات عين الجنرال دى بونو قائداً عاماً للقوات الإيطالية في شرق إفريقيا وكان هذا لقباً جديداً قصد به التأثير المعنوى أكثر

من أى شيء آخر ، من أجل إيهام العالم أن مستعمرات إيطاليا فى شرق إفريقيا يكونان وحدة واحدة ، ولكن هذه الوحدة لن تتم إلا باستيلاء إيطاليا على إثيوبيا .

ولم يكبد ينتهى فصل المطر فى سنة ١٩٣٥ حتى صدرت الأوامر إلى الجيوش الإيطالية فى كل من أرتريا والصومال (الإيطالى) بالتحرك فدخلتها فعلا من خمسة مواضع فى الثانى من أكتوبر بعد أن سبقتها مظاهرة صاحبة فى ميدان فينيسيا العام فى روما .

وكان يبدو منذ اللحظة الأولى أنها معركة من جانب واحد ، إذ كان الإيطاليون يملكون كل شيء ، بينما لم يملك الإثيوبيون شيئاً ، فقد كنت فى أديس أبابا آنذاك ورأيت كيف كان الحاس يدفع بالإثيوبيين إلى التطوع دفاعاً عن بلادهم ، فتدفع بهم حكومتهم إلى الميدان بعد فترة تدريب لا تزيد عن أسبوع أو أسبوعين ، وكان أغلب هذه المدة ينقضى فى تدريب على السير عسكرياً فى الشوارع ، ثم تدريب بسيط على إطلاق الرصاص ببنادق قديمة ، وفترة أقل منها على إطلاق المدافع المضادة للدبابات ، ولم يكن نصيب قوادهم من القيادة العسكرية الصحيحة بأفضل من نصيب الجنود ، مما دفع بالامبراطور إلى الاستعانة ببعثة سويدية للتحرك الجيوش تحت إرشاداتها ، ولم يتردد الامبراطور فى الاشتراك بنفسه فى المعركة فكان يأخذ مكانه بين الجنود فى الخنادق والمغاور ، تمسك يده بالمدافع والبنادق يطلقها كما يفعل الجنود .

ورغم ذلك كان يبدو على الإيطاليين منذ اللحظة الأولى أنهم خائفون أن تتكرر موقعة عدوة الأولى ، فكان تقدمهم بطيئاً رغم تفوقهم الظاهر ، ورغم تقهر الجيوش الإثيوبية بناء على أوامر الامبراطور ، فحتى منتصف نوفمبر لم تكن الجيوش الإيطالية قد تقدمت أكثر من منطقة عدوة التى هلك الإيطاليون

لها حين احتلوها، فذكروا أنهم غسلوا عارعدوة الأولى وقد عللوا هذا البطء برداءة الطرق وضرورة تهيتها وحراستها وأمنها قبل ان تتقدم الجيوش المحاربة، ولكن هذه الحجة لم تقنع موسوليني الذي كان متعجلا النصر قبل أن تفعل العقوبات الاقتصادية فعلها . فعزل دى بونو من قيادة الجيش وعين بدله بادوليو في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ على أن يغادر نابولي إلى شرق أفريقيا بعد ثلاثة أيام

ويقول الماريشال بادوليو أن تقدم القوات الإيطالية لم يكن سهلا بسبب وعورة الأرض ورداءة المناخ ، ولكن رغم ذلك فإن الموقف كان رائعا ولكنه كان يرى ان هناك مشكلتين تتطلبان دائما أن يضعهما القائد أمام عينيه ، وهما تطور التنظيم الناقص بسبب قلة القوات التي يمكن الحصول عليها ، والتي كان يمكن ارسالها إلى القاعدة ، والثانية هي مشكلة النقص في الكفايات التي تتطلب كثرة العمل للإصلاح والتحسين ، بينما كانت القوات الإيطالية آخذة في التفوق والتدريب .

ولذا اتجهت سياسته الى خطة ذات وجهين أولها تكوين خط دفاعي خلفي يمكن ان ترتكن اليه القوات ، ثم التقدم السريع نحو الأهداف أو ما يسمى بالغزو الخاطف . وحدث فعلا أن وجدنا تقدما سريعا في الشمال ، ففيما بين ١٠ فبراير و ٢ مارس سنة ١٩٣٦ اكتسحت القوات الإيطالية إقليم تجرى ووصلت إلى جونداد العاصمة القديمة ، وفي ٢ أبريل دارت موقعة ماي كو التي كان يقودها الامبراطور ولكن جيوشه هزمت واضطرت الى التقهقر نحو ديسى . ولم يمر عليها وقت طويل هناك لتعيد تنظيم صفوفها ، وقبل ١٥ أبريل داهمتها الجيوش الإيطالية واستولت على المدينة ، وبسقوطها فتح الطريق أمام القوات الإيطالية إلى أديس أبابا .

هذا بينما كانت القوات الإيطالية الجنوبية يقودها الجنرال جرازاني

تعانى قلة الطرق المتسعة لمروور السيارات الثقيلة ، وكذلك قلة الموارد المائية مما أدى الى بطء العمليات في هذه الجبهة .

وفي ٣٠ ابريل انتقل الماريشال بادوليو الى ديسي واتخذها مركزا لقيادته واستطاع أن يستخدم الإتيوبيين بالقوة في شق الطرق وأعمال النقل من أجل الوصول إلى العاصمة قبل أن يدهمهم فصل المطر الجديد، وتم له فعلا ما أراد ودخلت جيوشه العاصمة في الخامس من مايو سنة ١٩٣٦ في الساعة الرابعة بعد الظهر .

ومنذ أن سقطت ديسي رأى الإمبراطور عقم المقاومة ، فعرض الأمر على وزرائه وقواده ورؤوس دولته ، فقرر رأيهم بالاجماع على أن استمرار الحرب ليس معناه إلا فداء الإتيوبيين دون نتيجة ، لا سيما وأن القيادة الإيطالية من أجل كسب نصر عاجل لم تتوقف عن استعمال الغازات السامة والسوائل الحارقة مما عرض الإتيوبيين للإبادة ، كما لجأت إلى سياسة القتل والتدمير على نطاق واسع ، فكانت قاذفات الالهب تسبق الجيوش الغازية لتمهد لها الطريق بحرق القرى وفيها أهلها ومعظمهم من النساء والأطفال والشيوخ ، ومن ثم قرر المجلس ان يخرج الامبراطور ومعه حكومته الى حيث يستطيع الدفاع عن حقوق بلده في المجالات الدولية ، عسى يستطيع أن يهز ضمير العالم بعد أن ترك للجيش الوطني حربة العمل في مقاومة العدو ، تحت قيادة بضعة من الرؤوس الذين فضلو البقاء والاستمرار في المقاومة على طريقة حرب العصابات .

وما أن سمع سكان العاصمة هذا النبأ حتى اشتعل فيهم الشعور بالغضب فاندفعوا يريدون أن يجعلوا استيلاء الغزاة على العاصمة غير ذات منفعة لهم ، فاشتعلت آلاف الحرائق من أجل تدمير كل ما يستطيع العدو الاستفادة منه ، كما دارت آلاف الجماعات نحو البيوت تحطم كل ما تجده أمامها كي لا يستفيد العدو من شيء مطلقاً . وانتشر في نفس الوقت فزع وهلع متمسكا من يعيش

من الأجانب فى العاصمة فلجأوا إلى دور المفوضيات ويطلبون الأمان فى رحابها ،
ولكن انتهى كل هذا بدخول الإيطاليين إلى العاصمة . فى الخامس من مايو
كما ذكرنا .

وكان الإيطاليون يمنون أنفسهم بالراحة بعد أن قاسوا الحرب السريعة ،
فإذا بهم يجدون للمدينة أمامهم خراباً . وكان الجيش الإيطالى مكوناً من فريقين
هما الجيش النظامى والمتطوعون من قوات الميليشيا . وظل الأولون يعيشون
وفق نظامهم وإن بدأوا يقاسون انعدام الطعام فى العاصمة بينما خلعت عن
الآخرين ملابسهم الحربية وتركوا لحالهم يتدبرون أمرهم . فلم يلبثوا أن بدأوا
يقاسون أضعاف ما قاسى الأولون ، فلم تمض عليهم أيام حتى كانت جماعاتهم
تطوف شوارع اديس أبابا — وقد بدأ فصل المطر — جوعاً عراة يبحثون
عن الطعام واللباس والسكن .

وكان لم يتوقع الإيطاليون هذا النصر السريع الباهر . فلم يسع موسوليني
إزاء ذلك سوى أن يتحدى العالم كله، ويهزأ بالدول التى وقفت فى وجهه فى عصبة
الأمم وبالعقوبات التى فرضت عليه فأعلن قيام الإمبراطورية الإيطالية ، فأضاف
إلى لقب ملك إيطاليا كلمتا امبراطور إتيواليا . كما أعلن تنصيب الماريشال بادوليو
نائباً للملك وحاكماً على امبراطورية شرق إفريقيا الإيطالية .

لم يكد الفاشيون يدخلون البلاد حتى بدأوا بتنفيذ سياستهم التى وضعوها
لحكم البلاد وكانت هذه السياسة تقوم على أسس محدودة أهمها :

١ — صبغ البلاد بالصبغة الفاشية ،

٢ — سياسة (فرق تسد) بين السكان من المسيحيين والمسلمين

٣ — القضاء على التعليم والتمليين .

٣ — جعل إتيواليا جزءاً من الوطن الإيطالى .

٥ — التفرقة العنصرية بين البيض والملونين .

٦ — القضاء على العناصر الوطنية .

١ — صبغ البلاد بالصبغة الفاشية :

أعلن المارشال بادوليو غداة دخول العاصمة الإتيوبية أنه قد سكن الجبي Gebbi القديم (القصر الملكي كما يسميه الإتيوبيون) واتخذ الجبي الجديد مكتباً له وأنه سينتقل فيما بينهما أربع مرات كل يوم فعلى الراكبين أن يترجلوا وعلى السائرين أن يتوقفوا وأن يلتفتوا بوجوههم إلى ناحية موكبه وأن يرفعوا أيديهم بالتحية الفاشية ولم يمض على دخولهم العاصمة أسبوع حتى افتتحت مراكز الحزب الفاشي وخرج موظفوه ورعااته يجوبون الأحياء الوطنية في عملية إحصاء لتعداد السكان، وجاءت السيارات تحمل إليهم الدقيق والأرز هدية من الدوتشي، واستقبل مراكز الحزب فتيان الإتيوبيين وفتياتهم لتدريبهم وتنظيمهم في مواكب تذرع شوارع العاصمة هاتفة « دوتشي ! دوتشي ! » بعد أن وزعت عليهم القمصان السود والسرابيل القصيرة والقبعات السوداء ذات الزر الصغير، وذهب الدعاة إلى المناطق النائية حيث تقيم القبائل البدائية لتعليم أفرادها التحية الفاشية برفع اليد « اليمنى » إلى أعلى .

ورفع العلم الإيطالي على سارية عالية أمام المباني الحكومية وجعلت محيته فرضاً على كل داخل أو سائر برفع القبة، أما غير المتقبع من الإتيوبيين فعليه واجب الانحناء .

٢ — سياسة فرق تسد بين السكان :

عزم الإيطاليون غداة دخولهم العاصمة على انتهاج سياسة التفرقة بين السكان من المسلمين والمسيحيين وأعلن بادوليو تبرع الدولة الإيطالية بمبلغ كبير من المال لبناء مسجد في العاصمة يليق بالسكان المسلمين الذين يكونون غالبية

تجاهلتها الحكومة الإيطالية، وبدأ العمل في إرساء قواعد البناء، وفي المناطق ذات الأغلبية الإسلامية تعرض المسيحيون لاضطهاد الفاشيين حيث طردوهم من وظائف الدولة واستبدل بهم المسلمون وحدث العكس في المناطق ذات الأغلبية المسيحية حيث طرد المسلمون واستبدل بهم المسيحيون وألغى تدريس اللغة الأمهرية في المدارس الإسلامية واستقدم المدرسون من ليبيا لتدريس الدين الإسلامي .

٣ - القضاء على التعليم والمتعلمين :

أغلقت المدارس التي كانت قائمة قبيل دخول إيطاليا وألحق من كان بها من المدرسين الوطنيين أو الأجانب بدور الإذاعة والجريدة الإيطالية التي أصدروها، وبعد عام من احتلالهم أعيد فتح المدارس وجعلت اللغة الإيطالية لغة التعليم وحرم الإنثيوبيون من الالتحاق بها، كما أغلقت الصحف الإنثيوبية وعزل جميع الموظفين الذين كانوا يشغلون الوظائف الكبرى وأخذت الفاشست في استدعاء هؤلاء الموظفين الكبار فريقاً إثر فريق لسبب أو لغيره ، وكان هذا الاستدعاء نذيراً باختفائهم إلى الأبد، وحرص الإيطاليون حين فتحوا مدارسهم الجديدة على أن تكون في أماكن جديدة وجعلت المدارس القديمة مخازن ومعسكرات .

٤ - جعل إثيوبيا جزءاً من الوطن الإيطالي :

ألغيت الرسوم الجمركية على المصنوعات الإيطالية وخفضت الرسوم البريدية إلى إيطاليا إلى واقع الفئة المحلية واستولت الحكومة على الأراضي الزراعية التي كانت ملكاً للحكومة أو لأفراد الأسر المالكة أو الأمراء الذين هجروا البلاد أو الأهالي الذين قتلوا وأخذت في إعداد هجرات الفلاحين الإيطاليين للعمل في تلك الأراضي وسرعان ما قسمت إلى عدة قرى يرأس كل منها (Capo Labori) مهمته مراقبة تقسيم الأراضي وتوزيعها على المهاجرين .

وأقبلت الشركات الإيطالية على افتتاح فروع لها وجعل جميع موظفيها من الطليان واهتموا بإنشاء بعض الصناعات الاستهلاكية التي لا يستغنى عنها الإيطاليون أو التي تلزمهم في مرحلة الإنشاء كضارب الطوب ومصانع الكرونة والزيوت والصابون وعمال جميع هذه المؤسسات من الطليان، ولم يترفع الإيطاليون ترفع المستعمرين من الدول الأخرى بل أقبلوا على احتراف المهن المختلفة مهما كانت مكانة أصحابها الاجتماعية كالجزارين والحلاقين والبقالين وعمالوا أيضاً في تبييد الطرق .

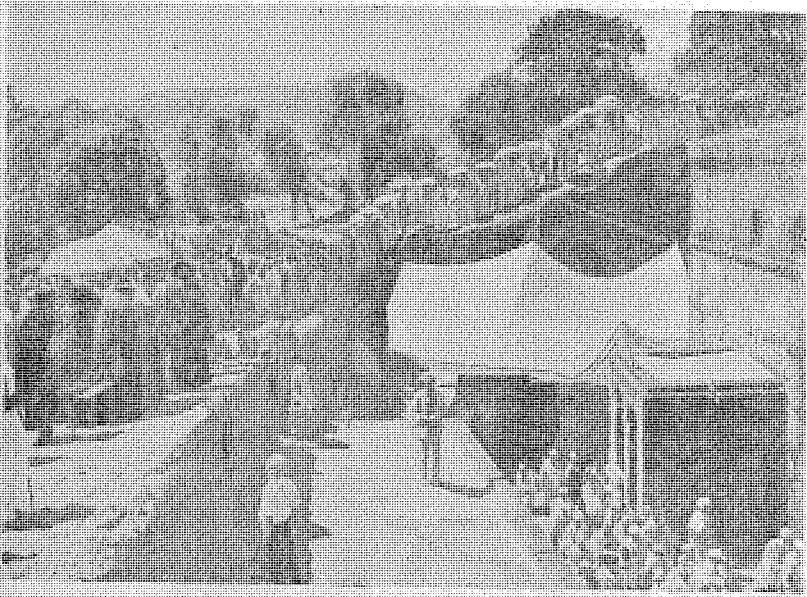
٥ — التفرقة العنصرية بين البيض والسود :

صدر في يناير سنة ١٩٣٧ قانون بمنع اختلاط الإيطاليين بالأتيوبيين ومنع رجال الدين من عقد الزواج المختلط . كما خصصت أتويسات البيض وأخرى للسود . ومن الطبيعي أن تكون الأولى كبيرة نظيفة ذات مقاعد مريحة ، على عكس الثانية التي كانت صغيرة قذرة ذات مقاعد خشبية نصيب الواقفين فيها أكبر من نصيب الجالسين . وحرّم الوطنيون من غشيان الأماكن التي يتردد عليها البيض .

٦ — القضاء على العنصر الوطني : (أنظر شكل ١٣)

كان الفتك بالوطنيين يتبع بالجملة في مناطق عدة في آن واحد ، ففي الثامن من مارس سنة ١٩٣٨ جمع الإيطاليون ستة من شيوخ قرية صغيرة شمال جونداد وذكروا لهم أنهم سيحملونهم إلى روما لزيارة الملك . وفي اليوم الثاني خرجت فتاة إلى الغابة لجمع الخشب من أجل الوقود . فوجدت جثث هؤلاء الستة مهشمة على الصخور التي تحف بمجرى النهر — ومنذ هذا اليوم أصبح تعبير (الذهاب إلى روما) رمزاً للموت .

ولعل أفظع ما حدث في سبيل هذا الهدف هذه المذبحة التي حدثت في



قبيلة البابا كراس السادس يلقب أمام إحدى كنائس أنبوسيا المحفورة في الصخور
أثناء زيارته الأخيرة لأنبوسيا ويرى الكهنة الألبانيون يحيطون بالكنيسة
من أعلى ومن أسفل وبأيديهم المثلثات

አንደኛው ምዕራፍ ሆኖ ማለቱን ያሳያል

አን - ደ : ቸ - ር - ነ

ከ - ቤ - ቱ : ማ - ረ - ኝ :

አ - ቤ - ቱ : ማ - ረ - ኝ

አን - ደ : ምዕራፍ - ረ - ት - ህም : ደ -

ቸር - ታ : ስ - ጠ - ኝ : ደ - ቸር - ታ :

ስ - ጠ ኝ

ATO ISAIAS ALEME
ETHIOPIAN COMPOSER

الصفحة الأولى من الألحان الدينية الأمهرية
التي وضعها الفنان الأثيوبي اساياس علم



صورة الفنان الأتيوبي الملحن للالحان الكنسية الأمهرية
اساياس علم يعرض ألحانه على نيافة أبا ناوفيلس مطران هرر
Bishop Theophilos وهو القائم بأعمال قداسة بطريرك جاتليق
اتيوبيا وأتواكلا ورك هبت ولد Ato Akklé Werk Habt Weld
وزير التعليم والفنون الجميلة الحالي



قصر الملك تاشيلاداس في جوندلار

أديس أبابا في المدة بين التاسع عشر والحادي والعشرين من فبراير سنة ١٩٣٧ .

فقد كان من عادة الإمبراطور السابق أن يوزع الإحسان على الفقراء يوم التاسع عشر من فبراير كل عام - فأراد المارشال جرازيانى وقد خلف بادوليو في منصب نائب الملك أن يجرى على نفس العادة - فأعلن عن اجتماع بالميدان العام - وأقبل هو بموكب كبير يصحبه المطران المصرى الأنبا كيرلس ، وكان الأعيان قد سبقوه . وما كاد الاحتفال يبدأ ويقف المارشال يلقي كلمته - حتى سمع صوت قنبلة زمنية قريبة من المكان الذى جلس فيه المارشال والمطران - فانطرح الضباط الإيطاليون أرضاً - ومرت برهة صمت يسيرة تحقق فيها الجميع أن ليست هناك قنبلة أخرى . قام الإيطاليون على أثرها ليخرج كل منهم مسدسه ويصوبه إلى الأتيوبيين الذين أمامه وبدأ هذه الحركة الضابط (كورتز Cortes) رئيس الشباب الفاشى ، وحذا الباقون حذوه في سرعة عجيبة وفي أقل من دقيقة واحدة كان هناك أكثر من ثلاثمائة قتيل . وكان عدد الذين نجوا من المذبحة يسيراً . هذا بينما اندفع أصحاب القمصان السوداء الذين كانوا يحيطون بالمكان إلى حيث يحدون شخصاً أتيوبياً أينما كان ليطلقوا عليه الرصاص دون سبب . ما .

ولكن هذه المذبحة النهارية لا تقاس في قليل أو كثير بمذبحة الليل ، حين دارت السيارات الكبيرة لتجمع كل من يشقه فيه من الوطنيين ، يحرسهم ذوو القمصان السوداء وأية إشارة من أحدهم حتى وإن كانت لطرده ذبابة من على وجهه كافية لإرساله إلى العالم الآخر .

وكان من الطبيعى أن كل ملون كان موضع الشبهة . ومن بقى منهم حياً أوصل إلى الساحة الكبرى أمام القصر الملكى الجديد (سدست كيلو) حيث حرس مدخل الميدان ، حتى إذا تجمعت السيارات أشعلت النار فيها (١٠٢ - إتيوبيا)

بمحملتها من الآدميين ، ولذا سمي هذا الميدان عند عودة الحكم الوطنى بميدان الشهداء . وكذلك دارت فرق النار لتحرق ما تشاء من المنازل وفيها أهلها . ومن جرأ من أهل المنزل على الخروج أطلقت عليه النار لساعته .

وفى خلال ذلك كانت السيارات الفضة يركبها عدد من الضباط ذوى المناصب الكبيرة تجوس خلال الطرق ليشاهدوا ما لذه لهم من هذه المناظر — وكان المارشال جرازانى — وقد نقل جريحاً إلى المستشفى الإيطالى — يشاهد هذا كله من خلال زجاج نافذته .

وقد كتب أحد المسلمين فى جما إلى الدكتور مارتن الذى كان ممثلاً لآتيوبيا فى لندن حتى سنة ١٩٣٦ يقول ، أنها كانت لحظة سجدت فيها لله شكراً على أنى لم أكن مسيحياً — حين شاهدت بعينى يوم الأحد الماضى أحد الإيطاليين البيض يدخل كنيسة القرية ويقرع جرسها فأقبل المسيحيون إليها . وما أن تجمعوا أمام بابها حتى خرج هذا الإيطالى ووقف عند المدخل وظهره إلى الكنيسة وركز مدفعه الرشاش فى سرعة وفتحه فحصد جميع القادمين — كما كانت الأوامر الأولى لدى الإيطاليين هى قتل كل من يحمل صليفاً .

وقد فشلت إيطاليا فى السيطرة على البلاد أثر احتلالها فشلاً ذريعاً ، ثم أرادت أن تتخذ الدين وسيلة إلى هذه السيطرة وإن لم يكن فشلها فيه دون فشلها فى الحملات الأخرى فالدين دائماً إذا أريد استغلاله فى سبيل السياسة إنما هو سبيل العاجزين . وقد اتجهت السياسة الفاشية إلى استغلال الدين من أجل إخضاع الإتيوبيين ، وهم يعرفون ما يمكنه الأتيوبيون من الاحترام لرجال الدين عامة والمطران خاصة — فإذا أسبغ الإيطاليون عطفهم على هذا المطران واستألوه إلى ناحيتهم فأصدر منشوراً يبارك فيه الحكم الإيطالى — ويطلب إلى الشعب الخضوع له ، كان ذلك كسباً كبيراً لهم ولأرواحهم وراحة من كثير من المتاعب .

فما كاد الجيش الإيطالى يدخل أديس أبابا فى السادس من مايو سنة ١٩٣٦ حتى أرسل المارشال بادوليو إلى المطران « كيرلس » رسولا يطلب منه مقابلته، فإذا ما ذهب إليه أحسن القائد لقاءه وأبدى له استعداد الحكومة الإيطالية لمساعدته فى كل ما يرى القيام به من مشروعات، وكرر له الوعد المارشال جرازيانى كل ذلك مقابل منشور رعى من نيافته يطلب فيه من الشعب الخضوع للحكم الجديد والإخلاص له— ولكن المطران لم يقبل لأنه كان يرى (أن خضوع الشعب للحكومة الجديدة والإخلاص لها أو عدم خضوعه لها مسألة سياسية لا دخل للكنيسة فيها وهى يجب أن تكون بعيدة عن السياسة من أجل أداء رسالتها الروحية) .

فإذا ما رأوا منه امتناعاً عن أداء هذا الطلب حاولوا إغراءه بفصل الكنيسة الأثيوبية عن المصرية، على أن يكون هو رئيساً للكنيسة الجديدة أى بطريركاً ليس عليه من رئيس آخر وله حق رسامة الأساقفة ، وجميع إرادات الكنيسة سوف تنصب إلى خزانته وليس عليه من رقيب ، فيمكنه بفضل هذا الإيراد المتدفق أن يقيم ما يشاء من المنشآت أو المشروعات فيما يكفل للكنيسة الخير كل الخير . وأبدوا له غضبهم من أن يكون رأس الكنيسة الأثيوبية فى بلد يسيطر عليه البريطانيون أعداؤهم . فأبدى المطران موافقته على هذا الفصل اذا بادرت إيطاليا بفصل جميع الكنائس الكاثوليكية الموجودة فى بلاد يسيطر عليها الإنجليز كذلك — فعرفوا منذ ذلك الوقت أن الرجل لن يكون هيناً فحاولوا أن يلجأوا إلى التهديد .

وكان هذا التهديد على درجات — هدد جرازيانى وحده أول الأمر — حتى إذا فشل هده معه وزير المستعمرات وقواد الجيش ثم هده موسولينى بنفسه حين أتى به إلى روما لمقابلته — حتى إذا فشلت كل هذه الوسائل — اتجهوا إلى تغيير سياستهم بعض الشيء .

وكان هذا التغيير الجديد الذى تتق عنه ذهنهم هو فصل الكنيسة الأثيوبية عن المصرية تحت رئاسة أتيوبية بدلا من الرئاسة المصرية، وحينئذ سوف يكون ذلك أكثر قرباً إلى نفوس الأثيوبيين فسوف يجدون من بينهم من يتطلع إلى شغل هذا المنصب الذى كانوا محرومين منه. كما أن الشعب سوف يرى في هذه الخطوات إرضاء لكرامته وإشباعاً لعزته القومية، وحينئذ سوف يعرف هذا الشعب المنكر للجميل ما فعله الحكم الجديد لأجلهم.

ولكن لا بد من التمهيد لهذه الخطوة - وكان هذا التمهيد هو طرد جميع المبشرين الأجانب من أتيوبيا حتى ولو كان كاثوليكاً، وسوف يغضب هذا الإجراء البابا ولسكهم الآن أحرص على إرضاء الأثيوبيين من إرضاء البابا رغم سياسة حسن التفاهم بينه وبين الحكومة الإيطالية. ثم سلسلة من المقالات في الصحف بأن استقلال الكنائس الفرعية عن الأم لا يعنى الابتعاد عن الدين ولا المروق منه، فقد سبق أن انفصلت كنيسة روسيا ثم كنيستا رومانيا وبلغاريا عن كنيسة القسطنطينية فلم يعن ذلك مروقاً من الدين ولا خروجاً على العقيدة.

ومن ثم انتهز الإيطاليون فرصة غياب المطران في مصر فأعلنوا في سبتمبر سنة ١٩٣٧ انفصال الكنيسة الأثيوبية وأقاموا أحد أساقفتها - هو الأنبا أبرام - بطريركاً، وخولوه حق رسامة الأساقفة - وفرض عليه رسم إثني عشر أسقفاً قبل أن يموت في سبتمبر سنة ١٩٣٩ ثم عين مكانه الأنبا يؤنس أحد هؤلاء الإثني عشر - واستكتبوه بياناً يشكر فيه الإيطاليين على هذه السياسة الجديدة - فأعلنت إيطاليا ضمانها لحقوق الكنيسة واحترامها لأملها معها إعلان العفو عن كل من يخضع للحكومة الجديدة خلال خمسة عشر يوماً - والتهديد لمن بقى على مقاومته، بل وصل هذا التهديد إلى حد الحرمان - ورغم ما في هذه الخطوة من إرضاء للنزعة الاستقلالية عند الأثيوبيين فإنهم لم يخضعوا، بل نظروا

إلى هذا البطريك الجديد نظرة الخائن لأمتة وكنيسته . وكانوا يقاومونه ، بل يقاومون كل من يسانده . فلم يجد الإيطاليون بداً من اللجوء إلى الشدة فأعدوا عدداً هائلاً من القسس والرهبان وكان نصيب دير « دبراليانوس » من هذه المذبحة كبيراً بدعوى اشتراك رهبانه في مؤامرة الاعتداء على جرازياي . ولم تكف يد الإيطاليين عن ذبح القسس مطاقماً ، بل بلغت منتهىها حين اجتمع الكهنة للاحتفال بعيد القديس تكلا هيمانوت فقتلوا المجتمعين جميعاً . كما حدثت مذبحة أخرى في زكوالا لا تقل شناعة عن مذبحة عيد تكلا هيمانوت ، فن بين الأساقفة الأربعة الذين نصبتهم مصر قتل اثنان كان أولهما الأنبا بطرس الذى شق في السوق العامة في أديس أبابا ، وكان الثانى الأنبا ميخائيل بتهمة معاضدتهما لحركة المقاومة ، وفي سنة ١٩٤٠ أصدر نائب الملك (دوق داوستا) التنظيمات الجديدة التى اتفق على إجرائها مع السلطة الدينية ، فقسمت أتيوبيا إلى عشر أسقفيات يرأس كلا منها أسقف يملك حق رسامة القسس نظير رسوم معينة يستولى عليها الأسقف - ولكنهم في الوقت نفسه لم يبذلوا أى مجهود لرفع المستوى الثقافى للكهنة الأتيوبيين وهو الشيء الوحيد الذى كانت الكنيسة تنتظره .

ولعل أبلغ ما يعبر عن محنة الاحتلال الإيطالى لأتيوبيا هذه المذكرة التى قدمتها الحكومة الأتيوبية إلى مؤتمر باريس تقدر فيها قيمة الخسائر التى تحملتها البلاد خلال فترة الاحتلال الإيطالى بمبلغ ٢٣.٠٢٦.٧٤٤.١٨٤ جنيهاً ، وعدد من قتلوا في المعارك ٨٧.٥٠٠ ، وعدد من قتلوا بالقنابل ١٧.٨٠٠ ، ومن مات في مذبحة فبراير بثلاثين ألفاً . ومن قتلوا بأحكام عسكرية بعشرين ألفاً ، ومن قتلوا في معسكرات الاعتقال خمسة وثلاثين ألفاً ، ومن قتل خلال حرق القرى بثلاثة آلاف أى ما يعادل ٢ ٪ من عدد السكان . أما نصيب المتعلمين فتهددت الحكومة الأتيوبية عدد المتعلمين الذين قتلوا بـ ٧٥ ٪ منهم .

على أن العدل يقتضينا أن نقرر أن الحكم الإيطالي قد أفاد البلاد من بعض النواحي .

فإلى جانب البؤس الذى نشره الإيطاليون على الأتيوبيين فيجب أن نوضح موضع التقدير هذه المنشئات التى أقاموها، فهى لم تعط البلاد أساساً اقتصادياً هاما فحسب ولكنها فتحت الطريق أمام مستقبل صناعى تقدمى وأقامت أمامهم مثالا لحياة ذات مستوى رفيع، وأباحت لبعض الأتيوبيين أن ينعموا بأشياء هيأها لهم الإيطاليون . فقد صرف الإيطاليون مبالغ هائلة لم يكن من الممكن أن تصرف دون أن يستفيد منها الأتيوبيون . فقد ارتفعت أجرة العامل وظهرت بضائع جديدة حتى لقد زادت قيمة الواردات الأتيوبية إلى ٣٠٠ ٪ من قيمتها قبل الحرب، وكان نصيب الأتيوبيين منها ضئيلا ولا شك إلا أنه رفع من مستوى حياتهم ارتفاعاً ظهر أثره فيما يستهلكونه من منسوجات قطنية .

ولعل أهم ما نفذه الإيطاليون خلال احتلالهم هو نظام الطرق . إذ لم يكن هناك قبل مجيئهم سوى طريق واحد من أديس أبابا إلى ديسى فبحيرة أشانجى عمل خلال الغزو الإيطالى . وكان هناك طريق آخر إلى جما فجورى وثالث إلى كينيا ولكنها كانت لا تصلح إلا فى أوقات الجفاف . فهد الإيطاليون أكثر من أربعة آلاف ميل من الطرق منها ٢١٤٥ ميلا بالمكدام وبلغت تكاليفها بين ٨٠ و ١٠٠ مليون جنيه وبلغ عدد العمال الإيطاليين الذين عملوا فى هذه الطرق فى بعض الأحوال أكثر من ستين ألف عامل، فهدت الطرق إلى أسمرة وإلى جمبلا وإلى دوالى ولكمى وعصب وكلها متسعة صالحة للسيارات تجتاز عدة طرق وكبارى على أساس صخرى .

الفصل العاشر

عودة إثيوبيا المستقلة

لم تلبث الأحوال الدولية أن اضطرت منذ سنة ١٩٣٥ ، يوم اعتدت إيطاليا على أثيوبيا، وعجزت عصبة الأمم بإجراءاتها العقيدة عن منع هذا الاعتداء، ثم يوم قيام الحكم النازي في ألمانيا ، وإعلان زعيم هذا النظام عن رغبته في التخلص من كل آثار معاهدة فرساي .

وتأزم الموقف الدولي عقب إعلان محور روما برلين طوكيو في سنة ١٩٣٧ ووصلت الأزمة ذروتها في سنة ١٩٣٨ ، حين اعتدى هتلر على استقلال النمسا ثم ضمها إلى ألمانيا فكون وحدة المتكلمين بالألمانية ، ثم اشتد تأزمه في أغسطس من تلك السنة ، حين طلب هتلر ضم إقليم السودان التشيكوسلوفاكي ، وهدد بإعلان الحرب . ولكن تسوية ميونخ أرجأت الانفجار إلى حين ، ثم قبلت إنجلترا وفرنسا هذا الضم ، الذي في غداته أقيمت حكومة تشيكوسلوفاكيا ، وقبلت الحكومة الجديدة الحماية الألمانية ، التي في ظلها قسمت تشيكوسلوفاكيا بين حكومتين ، إحداهما للتشيك والأخرى للسلاف . وحينئذ أيقن العالم أن الحرب قادمة لا محالة ، وتهب الجميع للانفجار المرتقب ، ومن ثم أخذ كل فريق يكون الحلف الذي يخيّل إلى أفرادهم مصالحهم أكثر تقاربا ، فأعلنت كل من إنجلترا وفرنسا ضمانها لحدود بولندا ، وقبلت حكومتها هذا الضمان ، وتقربتا إلى الاتحاد السوفيتي الذي أعلن النظام النازي منذ قيامه في سنة ١٩٣٤ عداؤه له ، فاشتراط حرية المرور لجيوشه في أراضي بولندا ، على أن الأزمة بلغت منتهاها حين أعلن هتلر رغبته في ضم الممر البولندي في أغسطس سنة ١٩٣٩ ، من أجل وصل بروسيا الشرقية

بالأراضي الألمانية ، كما أعلن إلغاء الاتفاق البحري البريطاني الذي يقيد حملة الأسطول الألماني بنسبة خاصة ، فاذا ما أعلن عقد اتفاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفيتي وألمانيا في نهاية أغسطس بادر هتلر في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ بالسير نحو الشرق لضم الممر البولندي وبذلك بدأت الحرب العالمية الثانية.

وظلت ألمانيا تحارب وحدها ، وتكسب الانتصارات المتوالية فاكتمست جيوشها بولندية واقتسمتها مع الاتحاد السوفيتي وأعلنت إيطاليا في نفس الوقت تأييدها لألمانيا وتصميمها على الدخول في الحرب في الوقت الملائم ، ولم يأت مايو سنة ١٩٤٠ حتى اكتمست القوات الألمانية بلاد النرويج والدانمرك وهولندا وبلجيكا .

وفي يونيو ١٩٤٠ سلمت بلجيكا فاكشف الجناح الأيمن لقوات الحلفاء وهددت جميع جيوشها في غرب أوروبا بالتطويق ، فلم تملك إلا الانسحاب من دنكرك بينما اندفعت الجيوش الألمانية إلى قلب فرنسا .

وفي خلال ذلك كانت كل من إنجلترا وفرنسا ومعهما الولايات المتحدة الأمريكية تحاول الاتصال بإيطاليا من أجل التأثير عليها لترك محور روما برلين طوكيو ، وتنضم إلى الحلفاء ، كما فعلت في الحرب العالمية الأولى . على أن يكون نصيبها من غنيمة الحرب هذه المرة أفضل من نصيبها في الأولى . وإيطاليا تتدلل عليهم حتى إذا كان يونيو سنة ١٩٤٠ واكتمست الجيوش الألمانية شمال وغرب فرنسا ، وخيل لكل واحد أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت وأن استمرارها لا يعدو بضعة أيام ، تطلب في خلالها كل من إنجلترا وفرنسا التسليم دون قيد أو شرط ، أعلنت إيطاليا الحرب على كل من إنجلترا وفرنسا في صف ألمانيا .

كان الإمبراطور هيتلر منذ أن خرج من إتيوييه في سنة ١٩٣٦ يقيم

في إنجلترا يرقب كل هذه الأحداث بصبر وإيمان ، ليرى إلى أى حد يستطيع أن يستغلها لتستفيد إتيوبيا منها ، ومن الطبيعي أن إيطاليا لو كانت قد قبلت ما عرضه عليها الحلفاء ، من ترك جانب المحور والانضمام إلى الحلفاء لكان احتفاظها بكل ما في يدها من مستعمرات في أفريقيا ، ثم طلب مستعمرات جديدة هو الشرط الأول لهذا الإنضمام .

وكان إعلان إنضمام إيطاليا إلى ألمانيا ، يعنى ولا شك بدء الهجوم على الأملاك الإيطالية أينما كانت ، وكانت إتيوبيا ولا شك واحدة منها . وكانت إيطاليا قد ركزت في إمبراطوريتها الشرقية الأفريقية كل وسائل الدفاع بقيادة نائب الملك هناك الدوق داوستا ، الذى كان يدرك أن وصول إمدادات جديدة عن طريق قناة السويس ، أو أى طريق بحرى آخر لا يعدو حلماً من الأحلام .

في هذا الظروف اتصل الإمبراطور هيلاسلاسى بالحكومة البريطانية ، وأقنعها أنه يستطيع أن يساهم في الهجوم على الإمبراطورية الإيطالية في شرق أفريقيا ، وهو وإن كان لا يملك المال اللازم للقيام بهذا الجهد إلا أنه يملك القوة التى يستطيع تجنيدها ، والتى تتمثل في الاتيوبيين الذين يعيشون خارج إتيوبيا ، على أن تتكفل إنجلترا بدمهم بالسلاح والمال السلازمين لهم ، إلى جانب قوة أخرى من قواتها لتعمل إلى جانبهم .

واقترنت إنجلترا بهذا رأى ، فانتقل جلالته الإمبراطور إلى الخرطوم ، ومعه القلة من أتباعه التى مازالت تؤمن بحق بلادها ، وجمع حوله جميع الاتيوبيين المشتتين في جميع أنحاء العالم ، وأخذ في تدريبهم هناك ، ليخلق منهم قوة ضاربة ، تستطيع أن تحقق استقلال بلادها . وفي نهاية سنة ١٩٤٠ خرجت الحملة الاتيوبية من الخرطوم بقيادة الإمبراطور لتدخل ثانية إلى إتيوبيا تؤيدها قوة من قوات جنوب أفريقيا .

وشقت الحملة طريقها متتبعة نهر الرهد لتدخل إلى إقليم جودچام ، وما أن وصلت الحملة الحدود الاثيوبية السودانية حتى أعلن قيام حكومة إتيوبيا الحديثة ، فتقاطر أبناء البلاد يعاونون جيشهم وإمبراطورهم في استعادة استقلالهم المفقود. ونجحت الحملة في التقدم متغلبة على كل القوات الإيطالية التي وقفت في وجهها ، حتى وصلت دبراماركوس عاصمة جودچام في مارس سنة ١٩٤١ ثم عبرت النيل الأزرق وقبل أن ينتهى شهر أبريل ، أشرفت على أديس أبابا حتى وصلت إلى جبل انطوطو ودخلت العاصمة في الخامس من مايو، وهو نفس اليوم الذى دخلتها فيه الجيوش الإيطالية منذ خمس سنوات .

وبذلك عادت إتيوبيا المستقلة إلى عالم الوجود ، بفضل إمبراطورها وأبنائها المغترين ، الذين كانوا يعيشون في الخارج يغذيتهم أمل واحد، وهو العودة إلى بلادهم بعد أن يطردوا منها الغزاة المستعمرين ، وهو أمل بدا في أيام كثيرة حلماً بعيد التحقيق لا سيما بعد أن دعت إنجلترا العالم في سنة ١٩٣٧ إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، وإلغاء العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، مخافة خطر الحرب ، وعقدت في بداية سنة ١٩٣٨ اتفاق الجنتلمان ، الذى يعترف بالاحتلال الإيطالى لإثيوبيا ، بل بأحقيتها في تحقيق الأحلام الإيطالية .

وكانت عودة إتيوبيا المستقلة على رأسها الإمبراطور هيلاسلاسى الأول ، إيداناً بهدم كل مافلته إيطاليا هناك للقضاء على القومية الإثيوبية، ثم بدء السياسة الجديدة التى ترمى إلى إحياء القومية الإثيوبية ، وإعادة النظام الإثيوبى القديم بل بناء أتيوبيا الجديدة ، على أسس جديدة أقرب ما تكون إلى الأسس الأوروبية ، وإن كانت لا تعارض التقاليد الإثيوبية التى ورثها الإثيوبيون . .

ومن أجل مساعدة الدولة الجديدة على العمل عقد الإمبراطور هيلاسلاسى

مع إنجلترا معاهدة الصداقة الإتيوبية البريطانية في سنة ١٩٤٢ لمدة عامين ، نصت على أن تقدم بريطانيا إلى إتيوبيا كل مساعدة ممكنة في سبيل إعادة البناء القديم ، وأخذت هذه المساعدة شكل مبالغ سنوية قدرها مليونان من الجنيهات ، تدفعها الحكومة البريطانية إلى الحكومة الإتيوبية ، كما تقدم إليها المستشارين والموظفين الذين تستطيع بهم إتيوبيا دفع هجلة الإدارة إلى العمل ، على أن ينشئ الإمبراطور نظاماً قضائياً حديثاً . وبمقتضى هذه المعاهدة احتل الجيش البريطانى إقليم أوجادين ، ومنح بعض الإمتيازات في سكة الحديد الأتيوبية ، وجمدت المعاهدة في سنة ١٩٤٤ ، وبمقتضى هذا التجديد قدمت بريطانيا لإتيوبيا قرضاً قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، تسدد بنفس شروط الإعارة والتأجير الذى تقدمه أمريكا كما تجلو الجنود البريطانية عن أرضها .

وأخذت الحكومة الجديدة منذ اللحظة الأولى في تنظيم الإدارة ، فأبعد جميع المستوطنين الإيطاليين ، إلا من أرادت إتيوبيا الاستفادة من خبرته كالأطباء والمهندسين ، واستولت على جميع ما ملكوه هناك ، حتى تنتهى الحرب فتسوى مسألة التعويضات عن كل ما تكبدته إتيوبيا في حربيها مع إيطاليا .

وبدء بالتقسيم الإدارى فالنقى التقسيم الإدارى الإيطالى ، كما النقى التقسيم الوطنى القديم وقسمت البلاد إلى اثنتى عشرة مقاطعة إدارية Province تنقسم كل منها بدورها إلى مديريات Sub-Province ، ثم تنقسم هذه إلى District و Sub district وأصغر وحدة هى القرية التى يرأسها (شوما) ، وجعل لكل مقاطعة عاصمة يقيم فيها حاكم عام يعينه الإمبراطور ، بعد رأى وزارة الداخلية على أن يمثل هذا المدير جميع فروع الحكومة هناك . وتجهلت سلطة الرسوم تجاهلاً تاماً . ومن كان منهم معارضاً للحكومة الجديدة اعتقل إلى حين ، ومن كان منهم موالياً للحكومة اعترف بمكانته وإن لم يعترف بنفوذه .

وأعيد العمل بالدستور القديم بعد أن عدلت طريقة الانتخاب وأعطى الشعب حق انتخاب نوابه بطريقة غير مباشرة، وجعل انعقاد الهيئة التشريعية إجبارياً مرتين كل عام، وخلق منصب رئيس الوزراء وأصبح يمثل الصلة بين الإمبراطور والوزراء، وجعل الجميع مسؤولين أمام الإمبراطور عن تنفيذ الأوامر التي يصدرها اليهم، وأخذت سلسلة من المراسيم والأوامر الوزارية تصدر من أجل تنظيم فروع الإدارة الحكومية والكنيسة، استناداً على ما للإمبراطور من حق التشريع في أثناء غيبة البرلمان، ونظمت الضرائب على أساس جديد، وجعلت كلها نقدية، وأوكل إلى موظفي وزارة المالية أمر جبايتها وتوريدها إلى الخزانة العامة، تؤيدهم سلطة الحكومة. وجعلت الضرائب على الأرض والعقار في المقاطعات التي يستقر أهلها، بينما جعلت على الرعوس في المناطق التي ما زال أهلها يعيشون معيشة يدوية. كما فرضت ضريبة الدخل على الموظفين والتجار وأصحاب المهن.

وأرسلت قوات الحكومة للقضاء على عصابات الشفتا وقطاع الطريق. من أجل إقرار سلطة الحكومة، ونظمت الرسوم الجمركية على أساس أن تكون مورداً من موارد الدولة، وحامية لما تركه الإيطاليون من صناعات عمل على بقائها وإتمامها من أجل الاستفادة منها.

وإذا ما أنشئت هيئة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٥ انضمت إتيوبيا إلى عضويتها لتأخذ مكانها إلى جانب دول العالم، ولتستفيد قدر الطاقة من كل ماتبذل هذه المؤسسة العالمية من الجهد لمعاونة الدول المتخلفة، وسمح للبشرين الذين طردهم الاحتلال الإيطالي بالعودة إلى البلاد ليباشروا نشاطهم. ولكن الحق أن مركزهم لم يعد سهلاً، إذ ازدادت المعارضة الدينية السابقة لهم بسبب ما أثار عن موقفهم تجاه القومية الإتيوبية، من أنهم كانوا سبباً في أضعافها لإظهارهم الأوروبيين دائماً بمظهر أصحاب السيادة والسلطان. ولذلك أخذت الحكومة

الجديدة في الحد من نشاطهم منذ سنة ١٩٤٤ حين صدر القانون الذي نص في مذكرته التفسيرية على أن الحكومة راغبة في أن لا تبأشر الجمعيات التبشيرية نشاطها لتحويل الإتيوبيين عن عقيدتهم الأرثوذكسية التي اعتنقوها منذ بدء المسيحية بل لأجل تركيز نشاطهم في الجهات والعناصر غير المسيحية) ولذا حددت بواسطة وزارة التربية منطقة لكل بعثة تزاوّل فيه نشاطها ، وحمّ على كل جمعية أن ترسل إلى الوزارة كشفًا بأسماء أعضائها ، ومؤهلاتهم ومناطقهم ومدى نشاطهم ، أما المناطق التي لا يجوز لهم مباشرة نشاطهم فيها فسميت (مناطق مغلقة) ، لا يجوز أن يزاولوا فيها نشاطًا غير النشاط الطبي والتعليم غير الديني على أن تكون الأمهرية لغة التعليم .

ووجهت العناية إلى التعليم فحددت واجبات الوزارة تحديدا واضحا ، وأنشئ مجلس أعلى للتعليم ، وفرضت ضريبة خاصة تصرف حصيلتها على التعليم ، كما جعلت بعض واجبات التعليم على المجالس الإقليمية تخفيفًا لعبئته عن كاهل الميزانية ، وأنشئ عدد كبير من المدارس الابتدائية والثانوية ، ووصل مستوى الأخيرة إلى مستوى الشهادة الثانوية في إنجلترا ، كما أنشئت في أديس أبابا كلية جامعية^(١) حوت ست كليات هي الآداب والعلوم والتجارة والزراعة والطب والادارة ، كما اتجه إلى النشاط الإقتصادي ، خصوصًا بعد أن توقفت المعونة البريطانية ، فاتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعقد معها اتفاقا على أساس قانون الإعارة والتأجير ، كما استفاد من النقطة الرابعة التي تبذل العون الفني للدول المتخلفة ، وأصدر عملة جديدة ، ولن أحاول هنا أن أسرد تفصيلا ما بذل من الجهد في الميدان الإقتصادي بل يكفي أن ألقى نظرة سريعة على أحوال البلاد الإقتصادية في الوقت الحاضر لأعرف مقدار ما بذل في هذه الناحية من جهد ملحوظ . وفي نوفمبر سنة ١٩٥٥ احتفل جلالة الإمبراطور باليوبيل الفضي لاعتلائه

(١) تمحلت بعد ذلك الى جامعة كاملة

العرش ، ففتح شعبه دستوراً جديداً من أجل (تدعيم التقدم الذى حصلنا عليه ووضع أساس متين لسعادة الأجيال الحاضرة والمستقبلية) وقد منح الإمبراطور لشعبه فى هذا الدستور مزيداً من الحقوق التى لم يعترف بها إمبراطور قبله ، كحق حماية القانون لكل فرد من الشعب ، وحرية الكلام والمراسلة والامتلاك ، والإجتماع والسفر والعمل وكانت هذه الحقوق كلها - إلى ما قبل صدور هذا القانون - غير معترف بها . كما جعلت عضوية مجلس النواب بالإنتخاب الذى جعل من حق جميع الإتيوبيين الحائزين لشروطه من الذكور والإناث ، ولكنه خلق إلى جانب الهيئة التشريعية مجلس التاج ، المكون من الإمبراطور والمطران مع من يرى الإمبراطور تعيينه من الأعيان لمعالجة المسائل الكبرى . وكان إصدار هذا الدستور الجديد خطوة تقدمية فى سبيل تطوير نظام الحكم نحو ديمقراطية صحيحة ، وقد استمدت معظم مبادئ هذا الدستور من الدستور الأمريكى ، رغم اختلاف شكل الحكم فى كل منهما^(١) .

أما عن السياسة الخارجية فإن الحكومة الإتيوبية تميل كل الميل انتهاز سياسة الحياد بين العسكرات المتصارعة ، رغم الاتجاه الغربى الأمريكى وقبول الحكومة لجملة معونات أمريكية وخاصة من النقطة الرابعة ، إلا أن اتفاقات أخرى عقدت من دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد السوفيتى ، من أجل تنمية التبادل التجارى ، وكذلك مع دول الحياد ، فقد منحت يوغوسلافيا امتياز تمهيد الطريق بين عصب وأديس أبابا ، وهو الطريق الذى تبغى الحكومة من ورأته تنمية ميناء عصب من أجل أن تخلق منه ميناء لوسط إتيوبيا ، تنافس به ميناء جيبوتى الصومالى بل الفرنسى ، كما عقد اتفاق آخر مع الجمهورية العربية المتحدة من أجل التبادل التجارى تحصل بمقتضاه مصر على ما تريد من اللحوم واللبن

(١) أنظر « الدستور الإتيوبى » للدؤلف .

والجلود والتمح ، اثناء ما تحصل عليه إتيويا من الأرز والقطن ، علاوة على إطارات السيارات والسجاير وعربات السكك الحديدية ، وقد زار جلالة الإمبراطور مصر في شهر يونيو سنة ١٩٥٩ زيارة صدر على أثرها بيان مشترك ، يعبر عن جو الصداقة والود الذي دارت في خلاله المباحثات والذي يربط البلدين ، وأكد اتفاق البلدين من القضايا المالية عامة والأفريقية خاصة .

وتنهج الحكومة الإتيوية سياسة التشجيع لما أطلق عليه الإمبراطور (خلق الشخصية الأفريقية) وهي سياسة ترمى إلى تشجيع الحركات التحريرية الأفريقية .

وقد عقد في أديس أبابا في يوليو سنة ١٩٦٠ مؤتمر الشعوب الأفريقية المستقلة ، عبرت فيه الدول المجتمعة عن أمانيتها في التعاون الكامل بين الشعوب الأفريقية وخاصة في مجال مساعدة الشعوب غير المستقلة في سعيها نحو الاستقلال والتحرر .

هذا وقد تزعم الإمبراطور هيلاسلاسى منذ سنة ١٩٦٤ حركة الدعوة الى إقامة منظمة الدول الأفريقية ، وأثمرت الدعوة ثمرتها سريعاً . فاجتمعت الدول الأفريقية اجتماعها الأول في تلك السنة في أديس أبابا ، لوضع الميثاق وتوقيعه وهو مكون من ثلاث وثلاثين مادة (١)

واجتمع مؤتمر القمة الأفريقي اجتماعه الثاني في القاهرة في السابع عشر من يوليو سنة ١٩٦٤ وتحدث فيه جميع رؤساء الدول الأفريقية عن أملهم في أن يروا هذه المنظمة ، وقد عكست آمال الشعوب الأفريقية كلها . وقامت هي بدورها في تنظيم التعاون بينهما ، ومساعدة الشعوب الأفريقية الأخرى التي لا تزال ترزخ تحت نير الإستعمار الأوروبي .

(١) أنظر « إستعمار القارة الأفريقية واستغلالها » للمؤلف .

ولما كانت الزراعة هي أساس الاقتصاد الإثيوبي . إذ تملك من الإمكانيات ما يجعلها يوماً (سلة خبز) للشرق الأوسط كله فمنها ما معتدل وترتبطها خصوبة ومطرها كاف ، يؤهلها لنمو المحاصيل على طول السنة ولكن بعض العيوب تعرقل نهضتها فالملك الإثيوبي مازال يفضل أن يؤجر أرضه لمن يشرف عليها أثناء غيابه ، وكثير من المعلمين يأتون من العمل في الحقل ، وقد وجهت الحكومة عناية كبيرة لتنمية الزراعة وتعاون في هذا السبيل مع منظمة النقطة الرابعة وقد افتتحت أكثر من مدرسة زراعية كان آخرها التي أنشئت في امبو سنة ١٩٥٧ وهي تؤهل طلبتها لحل درجة البكالوريوس في الزراعة .

وما يزرع من أرض إثيوبيا الصالحة للزراعة لا يعدو حالياً ١٠ ٪ بينما تغطي المراعى ٣٠ ٪ ، والباقي إما غابات أو أراضي مهملة . ومعظم الأراضي الزراعية يوجد في المرتفعات الشمالية حيث الموطن التقليدي للإثيوبيين وهناك أيضاً المنحدرات الجنوبية للاخدود الأفريقي حول مجرى نهر أوأش الأعلى والأوسط . ولكن كثرة المطر خلال الموسم الكبير تجعل عملية التعرية قوية ومستمرة وهي أكبر المشاكل التي تواجهها إثيوبيا .

وما زال البذر وجنى المحصول يجري على الطرق البدائية وبأبسط الآلات ولا يبيع الإثيوبي سوى ١٠ — ٢٠ ٪ ما ينتجه ، ومحصوله منخفض رغم التربة الجيدة ، والفلاح الإثيوبي مازال مصمماً على حرث الأرض بعد البذر عندما يبدأ النبات في النمو مما يؤدي إلى إتلاف عدد كبير من النباتات الغضة ، كما أن ممارسة البذر على نطاق واسع وبدون نظام ما ثم مباشرة حرث الأرض يجعل العرق صعباً وعديم القيمة .

ويتم الدرس بواسطة الحيوانات التي تسير مرات على المحصول ولذا كان المحصول النهائي ذا مستوى منخفض ونظافته لا تعدو ١٥ ٪ من درجة النظافة

للطوبية . وقد أوصت النقطة الرابعة باستعمال النورج ، كما أوصت باستعمال العربات من أجل نقل المحصول، ولكن هذه كلها مازالت بعيدة عن التنفيذ ، بسبب شدة ميل الفلاح الإتيوبي إلى المحافظة .

وأكثر المحاصيل انتشاراً هو الطيف^(١) وهو يستهلك محلياً، وهناك أيضاً القمح والشوفان والذرة والبن وهذا الأخير لا يزرع ولكنه ينمو برياً ، وهناك أيضاً كميات من القطن والخضر والفاكهة ولكنها قليلة وتزرع حبوب الزيت بكثرة من أجل الاستهلاك المحلي .

وليست هناك مناطق خاصة بمحاصيل خاصة بل كلها مختلطة ببعضها، وإن كانت هناك بعض المحاصيل التي لا تنمو إلا في مناطق خاصة من أجل صلاحية مناخها، فالحبوب الصغيرة على الجملة تنمو في المرتفعات العالية وتنمو الذرة والطيف وبعض الحبوب في المرتفعات المتوسطة بينما ينمو القطن في المنخفضات .

وأهم المحاصيل إطلاقاً هو البن وهو يكون ٦٢ر٤ ٪ من صادرات إتيوبيا وقد بلغت قيمة المصدر منه في سنة ١٩٦٢ ٦١٣ مليوناً من الريالات وهو— كما ذكرنا— ينمو برياً وتحاول زراعته بعض الشركات الأوربية. والبن الإتيوبي ذو قيمة عالية ، فهو ينتج قهوة ممتازة كما شهد بذلك خبراء النقطة الرابعة ، ولكن الوسائل الاتيوبية البدائية في التجهيف والتنظيف والاعداد ، تنتج بنا ضعيفاً . إذ تقطف الحبوب مرة واحدة في السنة ، دون مراعاة لامتلأها أو نضوجها ، بينما يترك الساقط على الأرض فيتعفن ، ثم يفرش المحصول على الأرض ليجف ويجمع بعد بضعة أيام مخلوطاً بالحصى، ولا يبذل أى مجهود للمحافظة على جفافه أو تنقيته . ومناطق البن في الوقت الحاضر تكاد تكون معزولة ، ولذا أوصت النقطة الرابعة — بشق مجموعة من الطرق الممهدة، للوصول إلى هذه المناطق ولتقل المحصول نقلاً سريعاً دون كثير من التكلفة .

(١) حبوب صغيرة تشبه البرسيم ولكنها حمراء اللون تستعمل في عمل الخبز الوطني .
(١١ م — إتيوبيا)

ولعل أهم ما تبذله إتيوبيا في الوقت الحاضر . في ناحية التقدم الزراعى يتم في ميدان إنتاج القطن ، فإن عمليات المسح التى تمت حتى الآن تؤكد وجود مناطق واسعة صالحة لإنتاجه . ولا شك أن هناك كثيراً من الأسواق تنتظره . ومعظم ما يزرع الآن ، وهو يبلغ بضعة آلاف من البالات ، يستهلك محلياً . وهى تستورد فوق ذلك قطناً خاماً من أجل مصانع النسيج الثلاثة فى أسمرة ودير دوا وأديس أبابا .

ومن بين الأسباب التى تعوق نهضة إتيوبيا الزراعية قلة رؤوس الأموال ، وقد صرحت الجرائد الإتيوبية أكثر من مرة أنها ترحب برؤوس الأموال الأجنبية التى تعمل فى الميدان الزراعى . ولا شك أن هذه سياسة حسنة من الحكومة تدل على بعد النظر .

ويمثل الرعى قطاعاً كبيراً من حياة إتيوبيا الاقتصادية وقد قدرت النقطة الرابعة ثروتها الحيوانية فى ديسمبر سنة ١٩٥٤ بخمسة عشر مليوناً من الماشية ، وإثنى عشر مليوناً من الخراف ، وثلاثة عشر مليوناً من الماعز ، وثلاثة ملايين من الخيول والبغال والحير ، ثم ستمائة ألف جمل . والماشية — علاوة على كونها ثروة كبيرة ، فهى فى بعض أجزاء الجنوب مقدسة لا تؤكل ، وفى بعض الأجزاء الرعوية يعتبر اللبن الغذاء الوحيد لأهلها ، مادامت الزراعة غير معروفة لديهم ، والأرض جرداء لا تساعد على قيامها . وتحاول الحكومة جادة المحافظة على هذه الثروة فأصدرت قانوناً بالزام الفلاحين بتطعيم الماشية ضد الجدرى ، فطعم ثلاثة ملايين من الماشية فى مدى ست سنوات . ولكن يعوقه جهل الفلاحين بأهمية التطعيم قبل هجوم المرض . ولكن إنشاء كلية للطب البيطرى فى سنة ١٩٦٢ قد يؤدى فى المستقبل إلى الإهتمام بالثروة الحيوانية .

وماشية إتيوبيا على العموم ضعيفة إذ تؤجر الحيوانات القوية للعمل فى

الحقل ، فتنهك قوتها ، والخراف صغيرة ، وصوفها قصير كثير التجاعيد ولذا لا تنتج صوفاً جيداً أو كثيراً ، يستهلك كله في الغزل اليدوي لتصنع منه أنواع رديئة من البطاطين أو للعاطف ، ولكن تبذل الآن جهود كبيرة من أجل الاهتمام بالثروة الحيوانية وحفظ صحتها وزيادة إنتاجها ، لا سيما تربية خراف المارينو إلا أن عددها مازال ضئيلاً ويعزو الخبراء ذلك إلى سرعة جفاف الحشائش عقب فصل المطر .

وما تنتجه إتيوبيا من الجلود يفوق ما يطلبه السوق المحلي ، ويقدر ما تنتجه سنوياً بخمسة وعشرين مليوناً من الريالات ، وقد بذلت الجهود من أجل تحسين الجلود لتصديرها ولكن مازالت عيوبها كثيرة ويوجد في الوقت الحاضر أكثر من مائة سوق محلي لتجارة الجلود . والمذابح قليلة ولا توجد إلا في بعض المدن وقد أنشأت إحدى الشركات مذبحاً حديثاً في أسمرة وآخر في جيبوتي وحاولت ذلك في ديردوا وأنشئ البنك التجاري برأس مال قدره مليون ريال في سنة ١٩٤٥ من أجل مساعدة الزراعة وهو يعطى سلفاً صغيرة للزراع .

وتقوم في إتيوبيا حالياً بعض الصناعات مثل الأحذية والأسمنت والسجائر وحفظ اللحوم وتقطيع الأخشاب والزيارات والكبريت واللائث والصابون ويبلغ رأس المال المستثمر في الصناعة حالياً بمبلغ يتراوح بين ٧٥ و ١٠٠ مليون ريالاً إتيوبيياً أي ما يعادل ٥ ٪ من المال المستثمر في البلاد وهو يقدر بمليارين .

وأكبر الصناعات في الوقت الحاضر زراعة السكر وصناعاته ، فهناك شركة هولندية تبشر نشاطها في منطقة تبعد عن العاصمة بستين ميلاً ورأس مالها عشرون مليوناً من الدولارات الإتيوبية . وهي توسع أعمالها سنوياً لتصل به إلى ٥٢ ألف طنناً من السكر المكرر والناجح الحالي نصف هذا الرقم .

وكانت معظم الصناعات تتركز حول أديس أبابا وأسمرة وديردوا ومصنوع إلا إنها امتدت في الوقت الحاضر إلى أجزاء أخرى بديعة مثل جما وديردوا وهرر .

والمعلومات قليلة عن جنسية الأموال المستثمرة في الصناعة ويبدو من أسماء الشركات في ارتريا أن نصفها إيطالي . أما في أديس أبابا فمعظمها أرمني ويوناني . وهناك أيضاً بعض الإيطاليين الذين يعملون في تعبئة الطماطم ، وهناك بعض الشركات الأمريكية التي تعمل في الأبحاث وأهمها شركة سنكلر للزيوت وقد ظلت تبحث عن البترول مدى عشر سنوات ، ففرت سبعة عشر بئراً دون الوصول إلى نتيجة . وقد جاء في الجرائد أخيراً أنها انسحبت من الميدان تاركة أعمالها لشركة ألمانية حديثة .

والمال الإتيوبي الذي يعمل في الصناعة مازال قليلاً فمعظم الإتيوبيين مازالوا عازفين عن الصناعة ، ولذا كان معظم المال الإتيوبي الذي يعمل فيها حكومياً وهو في ميدان السجائر والخبز والأسمت ، وهناك أيضاً مصنع حكومي لصنع الذخيرة الحربية .

وفي سنة ١٩٦٢ أنشئ مصنع للسكر في شوا ، وهو ينتج أربعين ألف طنًا سنوياً . كما أنشئ مصنع للحلوى ينتج خمسة وثمانين طنًا ، ومصنع لحفظ اللحوم في ديردوا ، يعلب سنوياً لحوم ٢٥٠ ألفاً من رموس الماشية ، وتقدر قيمتها بخمسة عشر مليوناً من الريالات . أما نسج القطن فله الآن ثلاثة مصانع في بحر دار . وديردوا وأسمرة والأول برأس مال هندي إتيوبي وبه عشرون ألف مغزل . وأنشئ مصنع لتجميد اللحوم برأس مال قدره مليون ريال بواسطة شركة بلغارية .

وقد بلغ عدد المؤسسات الصناعية — طبقاً لإحصاء وزارة التجارة والصناعة — في سنة ١٩٥١ مائة وسبعة مؤسسة زادت في سنة ١٩٥٤ إلى مائة واثنين وسبعين ويبلغ عدد العمال المشتغلين بالصناعة طبقاً لإحصاء الوزارة أيضاً اثني عشر ألفاً ، منهم ٥٠٠ أجنبي معظمهم في مراكز رئيسية بسبب كفاءتهم الخاصة .

وبلغ مقدار المبيعات من منتجات الصناعة في سنة ١٩٥٤ ، ٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ريالاً

إتيوبيا وكان في سنة ١٩٥١ لا يعدو ٢٨١٠٠٠٠٠٠ رايالا .

وتبلغ نسبة الأموال التي تعمل في صناعة المواد الغذائية ٣٧٪ من مجموع الأموال المستثمرة تعمل في معظمها استخراج الزيت وطحن الفلال وصناعة السكر وحفظ الطماطم واللحوم .

وقد كان إنتاج الكهرباء إلى سنة ١٩٤٨ لا يتعدى ١٣٤ مليون كيلووات فارتفع في سنة ١٩٥٥ إلى ضعف ذلك وتنتج منها أرتريا ٢٢ مايون كيلووات .

وقد انتهت إتيوبيا حديثاً من إنشاء خزان كوكا على نهر أوأش على ارتفاع ١٦٠٠ متراً من سطح البحر على بعد ثمانين كيلومتراً جنوبى شرق أديس أبابا وهو يكون أمامه بحيرة مساحتها ٢٦٠ كيلو متراً مربعاً . وقد وصلت تكاليفه إلى ٣٤٥ مليوناً من الدولارات الإتيوبية (أنظر شكلى ١٦ ، ١٧) .

والغرض من إنشائه استصلاح مساحة من الأرض تبلغ مساحتها ١٥٠ ألف هكتار، ثم توليد الكهرباء لإدارة مجموعة من المصانع أنشئت بالقرب منه . وقوة التيار المولد منه ٨٢٣٠ فولتا وقيمة هذه القوة ٤٢٥٠٠ كيلووات ساعة .

وهذا السد هو أحد مجموعة من السدود تنوى الحكومة إقامتها على مايجرى بها من أنهار أحدها على نهر أبابى (النيل الأزرق) تصل قوته إلى ٦٠ مليون كيلووات ساعة، وآخر على الوبى شبلى ثم خزانات أخرى على أنهار أومو وتكاز وأوأس وبارو وجوبا ومأرب والجاش . وتقدر الحكومة ما سيتخرج منها من قوة كهربية بما يأتى .

سد أبابى	٧٩٨٦٣	كيلووات ساعة
وبى شبلى	٢١٥٦٢	» »
أومو	١٦٠٦٧	» »

تكاز	١٤٨٤٦	كيلو واط ساعة
أواش	٤١٠٦	» »
بارو	٣٠١٧	» »
جوبا	٢٢٧٣	» »
مأرب	١٧٤٥	» »

وقد أقيم بها أيضاً في السنوات الأخيرة عدد من المصانع التي تستهلك جزءاً كبيراً من المواد الخام المحلية . كمصنع الأحذية المطاطية الذي ينتج نصف مليون من الأحذية سنوياً ، ومصنع الحديد في أكاكى ينتج عشرة آلاف طنّاً من الحديد و ١٨ ألفاً من أسياخ الحديد .

وقد عقدت الحكومة جملة قروض بلغ مجموعها خمسة ملايين من الدولارات الأمريكية من أجل تحسين الطرق فأنشئت لأجل ذلك (هيئة الطرق الإمبراطورية)، للإشراف على شق الطرق وصيانتها واشتركت الحكومة في جزء من رأس المال . وجعل الجزء الأجنبي من النقد لشراء الأدوات من الخارج بينما خصص الجزء الوطني لدفع المصاريف في الداخل ، وقد قدر طول الطرق التي تحتاجها إتيوبيا بستة عشر ألفاً من الكيلو مترات لطرق الدرجة الأولى وهو يعادل أربعة أمثال ما مهد حتى الآن . كما تعمل الحكومة من ناحيتها على تمهيد مجموعة أخرى على نفقتها فتعاقدت مع حكومة الولايات المتحدة على مساعدتها في ذلك فصرفت حتى فبراير ١٩٥٥ / ٤٢ مليوناً من الدولارات الإتيوبية منها ٥٥٪ نقداً أحنياً كما أنفقت الحكومة أيضاً عشرين مليوناً من الدولارات في مدى سنتين لصيانة طرق إرتريا وبلغ طولها ٩٠٠ كيلومتراً .

وأهم ما تواجهه إتيوبيا في ناحية شق الطرق هي مشكلة العامل . فالجبال حول لكنتى وفي طريق عصب يرفضون العمل ، بينما يفضل الصوماليون العمل

كسواقين ، وسرعان ما ظهر أثر ما شق من الطرق في انخفاض أجور النقل بالسكة الحديد فقد بلغ ما نقل بطريق عصب البرى ٨٠٪ من حركة ميناء جيبوتى رغم اتصال الأخيرة بالسكة الحديد .

وقد عمل البنك التجارى على تمويل بعض الصناعات مما أدى إلى زيادة إنتاجها، والتجارة فى بلد كإثيوبيا تنعكس تطورات عادات أهلها ديناميكياً ، فهى بالطبع تصور قدرتهم الشرائية ، وهى القوة الناتجة عن إنتاجهم ثم احتياجاتهم . فإذا كانت المنتجات الزراعية تكون الجزء الأكبر من صادرات إثيوبيا، بينما تمثل المنسوجات القطنية الجزء الأكبر من وارداتها فهى تصور إذن زيادة فى احتياجاتهم إلى البضائع المصنوعة .

وقبل سنة ١٩٣٥ كانت تجارة إثيوبيا ضئيلة لا تعدو العشرة ملايين من الريالات الإثيوبية وكان أغلبها مع ما يجاورها من الدول الأفريقية ثم الهند وكانت البن والحبوب والجلود غير المدبوغة والشمع تمثل أغلب الصادرات .

وفى خلال الحكم الإيطالى ارتفعت الواردات ارتفاعاً هائلاً بسبب البرنامج الإنشائى الذى اتبعته الحكومة آنذاك ، فوصلت إلى ٣٠٠٠٪ من قيمتها الأولى لكثرة احتياجات الجالية الإيطالية التى وردت مع الفتح بينما هبطت الصادرات إلى ما دون رقها الأول .

ولإذا ما انتهى الاحتلال ابتداءً دور جديد فقد عدل النظام الجركى وجعلت الضريبة على أساس أن تكون الرسوم دخلاً للحكومة ، إذ لم تكن هناك صناعات تستحق الحماية فسجلت الصادرات رقماً جديداً هو ٢٩ مليون دولاراً (غير جمر ك جمبىلا على الحدود السودانية) فى سنة ١٩٤٤ ، هبط فى السنة التالية إلى ٢٦ مليوناً . ولكنه عاد إلى الارتفاع مرة أخرى حتى وصل إلى ٣٦ مليوناً وهو الآن يكون ٤٠٪ من إيرادات الحكومة .

ويعود سبب هذه الزيادة إلى جملة أسباب لعل أولها شبكة الطرق البرية التي شقها الإيطاليون والتي حملت منتجات البلاد إلى الخارج ، كما سهلت توزيع الواردات. وثانيها انهيار نظام الحكم القديم وحلول نظام حديث مكانه . كما زادت مصاريف الحكومة وزاد إقبال الأجانب على البلاد كما زادت أيضاً مطالب الإتيوبيين بسبب ارتفاع مستواهم الاجتماعى .

وتمثلت معظم هذه الزيادة فى ارتفاع أسعار البن فى الأسواق الأجنبية فقد ارتفع إلى ثلاثة أمثال سعره الأول بين سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٥ علاوة على زيادة الإنتاج منه . فارتفع من ١٥ ألف طناً إلى ٤٣ ألف طناً كما ذكرنا من قبل . كما زادت صادرات أخرى مثل الحبوب والزيوت .

وكانت الصادرات الإتيوبية فى سنة ١٩٥٥ هى البن وكانت نسبته إلى مجموع الصادرات تمثل ٥٦ ٪ ، ويليه الزيوت وكانت ١١ ٪ ، ثم الجلود وكانت ١٠ ٪ ، ثم الحبوب وكانت ٦ ٪ ، وبينما هبط الصادر من شمع العسل حتى أصبح لا يكاد يذكر ارتفع الصادر من الماشية المذبوحة ارتفاعاً كبيراً .

أما الواردات فكانت كلها كميات صغيرة من منتجات زراعية كثيرة هى الزبد والعسل والخضروات والأسمت والؤلؤ والسكك الثلج والمخفوظ والبيرة والملح ومعظمها من ارتريا .

ولعل أظهر ما يميز تجارة إتيوبيا فى الوقت الحاضر هبوط الوارد من المنسوجات القطنية فقد كانت قبل سنة ١٩٣٥ تكون أربعة أخماس الواردات فسيطت فى سنة ١٩٥٠ إلى النصف وإلى أقل من الثلث فى سنة ١٩٥٥ ، كما ظهر عنصر آخر هو زيادة الواردات من احتياجات الصناعة والتصنيع والنقل فقد كانت لا تزيد عن ١٠ ٪ فى سنة ١٩٤٥ فارتفعت إلى ٣٥ ٪ فى سنة ١٩٥٦ ،

وهذه هي أهم الصادرات الإتيوبية وقيمتها بالريال الإتيوبى وفقاً لإحصاء سنة ١٩٦٤ .

البن وكميته ٦٩٩٩٨٠٠٠ كيلو جراما وقيمته ١٥٦٦٧٣٠٠٠ ريالا
الجلود وكميتها ٥٨٣٨٠٠٠ قطعة وقيمتها ١٣٩٠٢٠٠٠ ريالا
الشمع وكميته ٣١٤٤٠٠٠ كيلو جراما وقيمته ٣٣٦٩٠٠٠ ريالا
الخضروات الجافة وكميتها ١٧٨٠٠٠ ر٥١ » وقيمتها ١١٤٧٢٠٠٠ ريالا
الحبوب وكميتها ٦٣٠٨٣٠٠٠ كيلو جراما وقيمتها ٣٢١٩٣٠٠٠ ريالا

أما الواردات فتتضمن في :

النسوجات القطنية والصوفية وتبلغ قيمتها ٣٧١٩٣٠٠٠ ريالا
الآلات » » ٢٥٩٩٤٠٠٠ ريالا
مواد البناء » » ١٨٣٩٦٠٠٠ ريالا
الأدوات الكهربائية » » ٨٤٤٨٠٠٠ ريالا
الأدوات الكيماوية » » ١٨٤١٣٠٠٠ ريالا
السيارات والجرارات » » ٢٨٥١٣٠٠٠ ريالا
أدوات التنظيف والتشحيم » » ١١٦٧٣٠٠٠ ريالا
الأدوات الطبية » » ٣٥٥٣٠٠٠ ريالا
القطن الخام » قيمته ٢٧٦٣٠٠٠ ريالا

والولايات المتحدة الأمريكية التي تشتري البن هي العميل الأول لإتيوبيا حتى الوقت الحاضر، ثم إيطاليا، فالمملكة المتحدة وهي تقبل أيضاً على شراء البن والحبوب، ثم يلي ذلك ألمانيا التي تقبل على شراء الجلود والحبوب والبن وأوراق القهات . بينما ترتب الدول الموردة هو إيطاليا فالولايات المتحدة فالمملكة المتحدة

فاليابان ، فألمانيا الغربية وفرنسا . وكانت هذه الدول تغطي إتيوبيا ٧٥٪ من وارداتها، ولا يمكن تحديد نسبة كل واحدة منها لأن جزءاً كبيراً من هذه الواردات يعاد تصديره إلى عدن وجيبوتي ولكن مع ذلك نستطيع أن نقول أن البن يكون ٣٠٪ من صادرات البلاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وهو يعادل ٧٥٪ من الإنتاج الكلى . كما تحظى إيطاليا، وهى العدو السابقة، بالمركز الثانى فى الصادرات والأول فى الواردات، وهى تستورد ما تقدر نسبته ١٧٪ من مجموع الصادرات وأرقام الواردات تتجه نحو الصعود فى سرعة مذهشة على حدة .

ومعظم تجارة إتيوبيا فى يد قلة من الأرمن والهنود واليونانيين والعرب وليس لدينا أرقام دقيقة من مقدار الأموال المستثمرة فى التجارة سواء الأجنبية أو الوطنية .

وتشمل إحصاءات وزارة التجارة فى سنة ١٩٥٥ أسماء ١٠٥ بين مصدر ومستورد وهذا الكشف لا يشمل إلا الشركات التى يصل رأس مالها إلى ٣٥ ألف ريال على الأقل . أما الشركات التى تملك مؤسسات صناعية فهى بين ٢٠٠ و ٢٥٠ فى إتيوبيا ويتراوح المبلغ المستثمر فى التجارة بين خمسين وخمسة وسبعين مليون ريالاً .

وليس لدينا أرقام عن عدد الإتيوبيين المشتغلين بالتجارة ، ولكن من المؤكد أن عددهم ليس كبيراً إذ ما زال الإتيوبيون يجمعون عن العمل فى هذا الميدان وربما لا يزيد عددهم عن عشرين ألفاً ، وفى الصناعة عن ٢٥ ألفاً بما فى ذلك إرتريا، ومجموع المشتغلين فى هاتين الداهيتين لا يصل إلى ١٪ من السكان . ولا شك أن أكبر عدد من الإتيوبيين الذين يعملون خارج نطاق الزراعة إنما يعمل فى الحكومة . ثم يلى ذلك ميدان النقل ثم البناء .

وتجار القطاعى كثيرون فى أديس أبابا وأسمرة ومعظم تجار الداخل من اليونان والعرب وهم يشترون بضائعهم من أديس أبابا وينقلونها على ظهور الدواب والسيارات إلى الداخل.

وتمثل الرسوم الجركية أهم موارد الميزانية وهى تمثل ٤٠٪ من الإيرادات وقد وضع النظام الجركى الأول فى يونيو سنة ١٩٤٣ وعدل أكثر من مرة . ويبيح القانون لوزير المالية بموافقة مجلس الوزراء إعفاء بعض الواردات إعفاء جزئياً أو كلياً ، والقانون رقم ١٥٤ لسنة ١٩٥٤ يعفى جميع الآلات الزراعية والصناعية وقطع الغيار . وإلى جانب الرسوم الجركية تجبى ضريبة أخرى مقدارها ١٠٪ من قيمتها من أجل المساعدة على سد مصاريف الاتحاد الفدرالى^(١) وأخرى لنفس الغرض على الملح، ثم ١٪ عن البضائع الداخلة إلى أديس أبابا من أجل البلدية وفرضت ضريبة على الصادر من البن فى سنة ١٩٥٤ حينما ارتفع سعره، وكان الغرض منها الحد من الريج حتى إذا انخفض السعر انخفضت معه الضريبة .

والضرائب التصاعدية على الدخل تكون المورد الثانى للميزانية ثم الضرائب الشخصية وضريبة العمل وضريبة الأرض الزراعية ، ثم ضريبة الماشية وضريبة التعليم وتكون كلها ٣٣٪ من مجموع الإيرادات . ثم الضرائب غير المباشرة على الكحول والدخان والوقود وتكون ١٢٪ من الإيرادات وتأتى فى النهاية رسوم البريد والتلغراف والتليفون ، ثم مكاسب الحكومة من إنتاج الذهب ورسوم التقاضى .

ولا تطبق الضرائب الشخصية وكسب العمل على الزراعة أو الحرف اليدوية وهى التى يحترفها ٩٠٪ من الشعب . ولذا لا يدفع الإيرادات

(١) ألغيت هذه الضريبة بعد أن انتهى الاتحاد الفدرالى مع لارتريا :

إلا قلة من التجار وموظفو الحكومة الذين يصل إيرادهم إلى ٣٦٠ ريالاً في العام .

وكانت ضريبة الأرض قبل سنة ١٩٣٥ تجمع عينا إلى أن صدر لها قانون في سنة ١٩٤٢، عدل في سنة ١٩٤٤ ومرات أخرى بعد ذلك ، ووحدة الأرض هي الجاشا ومساحتها من ٨٠ إلى ١٠٠ فدان وتقدر ضريبتها بما يعادل ١٠٪ من المحصول، وأرض الكنيسة معفاة من ضريبة الأرض وإن كانت تدفع ضرائب أخرى بينما تعتبر الأراضي التي يملكها الإمبراطور والعائلة المالكة كغيرها من الأراضي دون أى امتياز مطلقاً .

وهناك ضريبة التعليم من أجل سد مصاريف التعليم الأولى في الأقاليم، حيث تجمع هذه الضريبة وهي على الأرض وتختلف باختلاف خصوبتها — وليس هناك من أرض معفاة منها . ومن لا يدفع ضريبة الأرض يدفع ضريبة الماشية .

وهناك ميزانيتان للحكومة ، إحداهما العادية التي تحوى الإيرادات والمصروفات وهي تقدم إلى البرلمان الذى يشترط الدستور ضرورة موافقته عليها قبل العمل بها . أما الأخرى فهى ميزانية الديون وتسديد أقساطها السنوية (المدفوعات) .

وتبلغ ميزانية إتيويا وفقاً لتقديرات سنة ١٩٦٢ ٣٩٨٠١٦٨٠٣٥ ريالاً من الريالات الأتيوبية منها ٢١٢٠٦٣٤٠٥٨ ريالاً للإيرادات و١٨٥٠٥٣٣٩٧٧ ريالاً للمصروفات أى أن لديها فائضاً يبلغ ١٨١٠١٠١٠٢٧٧ ريالاً .

ويأتى أكبر الإيرادات من الرسوم الجمركية كما ذكرنا ويبلغ ٦٠٥٠٠٠٠٠٠ ريالاً ويليه الضرائب للباشة التي تبلغ ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ ريالاً ثم احتكار الدخان الذى يبلغ ١٨٥٠٠٠٠٠٠ ريالاً . أما الضرائب غير المباشرة فلا تزيد

عن الستة ملايين أما أكبر أبواب المصروفات فهي مصاريف وزارة الدفاع وتبلغ اثنين وأربعين مليوناً، يليها وزارة الداخلية وتبلغ ستة وعشرين مليوناً ثم الأشغال العامة وتبلغ اثنين وعشرين مليوناً كما تبلغ مصاريف وزارة التعليم ثمان عشرة مليوناً من الريالات .

وفي سبيل تشجيع حركة التصنيع ترحب إتيوبيا بزموس الأموال الأجنبية للاستثمار كما ذكرنا . وتبلغ في مجملها حتى سنة ١٩٦٤ ثمان وثمانين مليوناً وربع المليون من الدولارات الأمريكية موزعة على النحو الآتي .

- ١ — قطاع النسيج وتعمل فيه خمس شركات تستثمر ١٧٤٠.٠٠٠ ريالاً
- ٢ — قطاع الجلود وتعمل فيه أيضاً خمس شركات تستثمر ٢٨٤٠.٠٠٠ ريالاً
- ٣ — قطاع الخشب وتعمل فيه شركتان تستثمران ٢٠٨٠.٠٠٠ ريالاً
- ٤ — القطاع غير المعدني وتعمل فيه ست شركات تستثمر ٩٨٠.٠٠٠ ريالاً
- ٥ — قطاع الكيماويات وتعمل فيه أربع عشرة شركة وتستثمر ٢٣٨٢٠.٠٠٠ ريالاً .

- ٦ — قطاع الصلب والمعادن والأدوات الكهربائية . وتعمل فيه أربع عشرة شركة وتستثمر ٢٩٨٠٠.٠٠٠ ريالاً .

وقد بدأت ديون إتيوبيا بالدين البريطاني في سنة ١٩٤١ ومقداره ٣٢٥٠.٠٠٠ جنيه من أجل إعادة الاستقرار إلى البلاد . ثم قدمت الولايات المتحدة الأمريكية خمسة مليون دولاراً، ثم ٧٥٠٠.٠٠٠ كراون سويدي من أجل سهولة تصدير مرتبات الموظفين السويديين في إتيوبيا، ثم مليون ريال أخرى من الولايات المتحدة من أجل تمويل عملية بيع فائض الحبوب . ثم قدم بنك الإستيراد والتصدير سلفة مقدارها نصف مليون ريال في نهاية سنة ١٩٤٤ ثم

سلسلة أخرى من الديون بلغ مجموعها ثلاثة ملايين من الدولارات حتى نهاية سنة ١٩٤٦ وقدم بنك Mational City قرضاً مقداره ٩٠٠ ألف ريال لأجل سك العملة الجديدة ونقلها . وفي أكتوبر سنة ١٩٤٩ اشتركت إثيوبيا في مؤسسة العملة الدولية من أجل ضمان مبلغ ٩٠٠ ألف ريال أمريكي من عملتها . وبين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١ قدم لها البنك الدولي ثلاثة قروض من أجل إنشاء بنوك مختلفة كانت فائدتها ٤ ٪ لمدة عشرين سنة يبدأ استهلاكها في سنة ١٩٥٦ .

وقد لعبت هذه القروض دوراً هاماً في الاقتصاد الإثيوبي إذ قد بلغ مجموعها في سنة ١٩٥٥ ثمانية وعشرين مليوناً من الريالات الإثيوبية ولم يمنع ذلك بنك الاستيراد والتصدير من تقديم قرض جديد في سنة ١٩٥٧ مقداره أربعة وعشرون مليون ريال من أجل تحسين خدمة الطيران والتوسع فيها .

وفي سنة ١٩٥٧ وقعت إثيوبيا مع يوغوسلافيا عقداً من أجل إنشاء أرصفة في ميناء عصب وبلغ مقدار هذا العقد ستاً وعشرين مليون ريال تقدم الشركة بنصفه قرضاً بفائدة ٣ ٪ .

وهذه القروض تبين إلى حد كبير الثقة بمالية إثيوبيا ومستقبلها وقدرتها على السداد .

وثرثرة البلاد من المعادن مازالت في طي الغيب، ولا تباشر الحكومة حالياً سوى استخراج الذهب من إقليم ولاجا في الغرب ، ولم تزد الكمية المستخرجة عن بضعة آلاف من الأوقيات سنوياً منذ الحرب الأوروبية الثانية، فقد اكتنف للمشروع صعوبات جمة من جميع الوجوه فقطع الغيار لم يتوفر مطلقاً وصعوبات التنظيم والإدارة لم تتوقف، والتعاون مع المشتغلين بالتعدين لم يتوفر .

وقد رسمت الحكومة في سنة ١٩٥٧ أول خطة خمسية بعد أن عبر

جلالة الإمبراطور عن هذه الرغبة في خطبة يوم الثالث من نوفمبر سنة ١٩٥٩ وهي تنهج إلى التوسع في وسائل المواصلات . وإنشاء محطات كهربائية . والتوسع في طرق الري . وخصص لها مبلغ خمسة ملايين من الدولارات في ميزانية سنة ١٩٦٠ .

وهناك خطة أخرى ترمى إلى تحسين الإنتاج الزراعى تتجه إلى الاهتمام بالتعليم الزراعى والبيطرى والإدارة الزراعية ثم دراسة التربة ومحاولة تحسين الإنتاج عن طريق خلق دورة زراعية، ورفع إنتاج البن والقطن والحبوب وقصب السكر عن طريق توزيع البنور الجيدة ومقاومة التعرية ، وتخزين الماء وحفر عدد كبير من الآبار إلى جانب تحسين وسائل المواصلات وخلق أسواق جديدة كوسيلة لرفع الأسعار علاوة على تشجيع الزراع على الزراعة عن طريق إقراضهم القروض الزراعية ذات الفوائد القليلة .

وقد أجهت إلى نفس الاتجاه الخطة الخمسية الثانية التى أعلنت قبل انتهاء سنة ١٩٦٢ ومقدار اعتمادها بليون من الريالات كون قرض سوفيتى بأربعمائة مليون روبل لغرض إنشاء معمل تكرير البترول فى عصب جزءاً من هذا الاعتماد.

الفصل التاسع

الكنيسة^(١)

عرفنا أن المسيحية قدمت إلى إتيوبيا في القرن الرابع الميلادي ، حين علمها التاجر المصري فرومنتيوس للملك عيزانا ، قال اليها واعتنقها ، وطلب منه أن يعلمها رجال القصر والشعب ، وسافر فرومنتيوس إلى مصر حيث قابل الأنبا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية العشرين ، وطلب منه تعيين أسقف يرعى هذا الحقل الناشئ ، فلم يجد البطريرك خيراً من فرومنتيوس نفسه ، فرسمه أسقفاً باسم الأب سلامه ، وسافر إلى هناك ، حيث فرح به الإتيوبيون ولقبوه بكاشف النور (كشاف برهان) ومنذ هذا اليوم أصبحت الكنيسة الإتيوبية جزءاً من الكنيسة للصيرية . وقد أثار هذا الامتداد حسد كثيرين من الأساقفة في العالم المسيحي آنذاك ، لأن سلطة أسقف الاسكندرية امتدت إلى أجزاء خارج الإمبراطورية الرومانية ، فكان ذلك سبباً من الأسباب الكثيرة التي أثارت أساقفة القسطنطينية وروما ضد أثناسيوس ، الذي كان قد ذاع اسمه منذ وقف في وجه أريوس في مجمع نيقية يدافع عن الإيمان الصحيح ، مما جعلهم يحقدون عليه فيلقون له مختلف النهم فينفي بسببها أكثر من مرة .

وقد أبى الحاسدون إلا أن يشككوا في كل شيء يختص بعلاقة كنيسة إتيوبيا بالكنيسة المصرية ، فزعموا أولاً أن تبعية إتيوبيا لكنيسة مصر قد فرضت فرضاً على الإتيوبيين رغم مشيئتهم ، كنتيجة لقرارات

(١) أنظر كتاب « كنيسة الاسكندرية في أفريقيا » للمؤلف .

مجمع نيقية ، حين نص في قراره الرابع والمشرين على أن (الحبش لا يبطرك عليهم بطرك من علمائهم ولا باختيار منهم في أنفسهم إنما بطركهم يكون من تحت يد صاحب الاسكندرية) وتناسوا أن هذا القرار مزيف على هذا المجمع ، لأن المسيحية لم تكن قد دخلت بعد إلى إثيوبيا في سنة ٣٢٥ حين عقد مجمع نيقية ، ولا يمكن أن يصدر المجمع قراراً بشأن شيء لم يحدث . كما شككوا أيضاً في جنسية فرومنتيوس ، وقالوا أنه غير مصري لأن أخاه سافر بعد عودته إلى صور لا إلى الاسكندرية ، كما اتخذوا من اسمه دليلاً على عدم مصريته ، متناسين أن عودة أخيه إلى صور إنما كانت لأغراض تجارية ، إذ كان فرومنتيوس وأخاه قبل تنصيب الأول أسقفاً ، من التجار ولهما مصالح تجارية في أكثر من ميناء ، وأنهما كانا في رحلة تجارية لهما في البحر الأحمر حين تحطمت سفينتهما وحلا إلى قصر ملك أكسوم ، كما أن الأسماء اليونانية قد انتشرت في مصر منذ القرن الثاني الميلادي ، بل قبل ذلك وأن مثل هذه الأسماء ما زالت حية حتى الآن في مصر . ولو لم يكن مصرياً لما ذهب إلى بطريك الاسكندرية ليطلب منه هذا الطلب بل لسافر إلى أنطاكية أو القسطنطينية أو غير ذلك .

ولعل أغرب ما نرى عن هذا الحسد ما ذكره أحد المؤرخين الفرنسيين ، من أن فرومنتيوس حين عاد إلى مصر قصد مقابلة البطريك الكاثوليكي ، ولكنه أخطأ وذهب إلى البطريك الأرثوذكسي بسبب شهرته ، وأسرع هذا فنصب فرومنتيوس نفسه أسقفاً كي يغريه بقباعته له ؛ ونسى هذا المؤرخ أن المذاهب الدينية لم تكن قد ظهرت في القرن الرابع الميلادي . وأن هذه الأسماء (الأرثوذكسية والكاثوليكية) ، لم تظهر إلا في القرن الثاني عشر وما بعده نتيجة للاختلافات التي حدثت بين كنيستي روما والقسطنطينية .

ومنذ هذا اليوم المبكر حتى سنة ١٩٥٠ والبطريك المصري هو الذي ينصب المطران المصري ليرأس الكنيسة الاثيوبية ، وقد وافق المجمع المقدس للكنيسة القبطية

الأرثوذكسية في جلسته المنعقدة يوم الخميس ٢٣ طوبة سنة ١٦٦٢ (٣١ يناير سنة ١٩٤٦) على قرار جاء فيه (أن الكنيسة القبطية تعفى من ناحيتها كل العناية بتحقيق كل ما فيه مصلحة الكنيسة الانبوية ورفاهيتها . ويسرها أن توفرها كل الأسباب التي تساعد على رفاهيتها وتقدمها . فهو لذلك (المجمع) يوافق على أن يكون مطران الامبراطورية الانبوية الذي يخلف الأنبا كيرلس راهباً إتيوبياً يحوله البطريك جميع ما للمطران المصري من اختصاصات) كما وافق أيضاً على أن يكون (عدد الأساقفة الاتيوبيين الذين يساعدون المطران في الاشراف على أحوال الدين هناك سبعة بدلا من خمسة) يعينهم المطران بعد أن يحصل من كل واحد منهم على تعهد أن لا يعمل وحده ولا يشترك مع غيره في تنصيب بطريك مستقل .

وتوفي المطران المصري الأنبا كيرلس في سنة ١٩٥٠، فنصب الأنبا باسيليوس أول مطران إتيوبي .

وقد جرت العادة أن يكون تنصيب المطران بعد اختيار دقيق من البطريك الذي كان دائماً يهتم باختيار راهب صالح ورع مثقف لهذا المنصب الرفيع ، ويجرى هذا الاختيار بمجرد معرفة البطريك بوفاة المطران القائم ، ويحمل اليه نبأ شغور المنصب في العادة وفد إتيوبي يحضر من هناك ، يحمل هدية ثمينة الى البطريك، وأخرى الى صاحب السلطة في مصر ، مع كتاب يرجو فيه تنصيب المطران ، وكانت هذه الهدايا في العادة قدراً من الذهب والعطور وسن الفيل وريش النعام وبعض الرقيق والمال ، مع كتاب يحمل رجاء الامبراطور مع حسن تمنياته وطلب بركاته الرسولية . وكان البطريك في العادة يحرص على ارضاء الاتيوبيين بأن لا يفرض عليهم شخصاً معيناً ، بل كان لا يعين الا من يحوز رضى الوفد حتى كان هذا التعيين أشبه بالاختيار .

وقد قامت الكنيسة بواجبها ككنيسة تبشيرية في بلاد وثنية فأرسلت في القرن الخامس بعثة من الرهبان المصريين ، أخذت على عاتقها تعليم الاتيويين المبادئ المسيحية الصحيحة ، كما عملت على نشر الرهبة وتأسيس الأديرة ، ولقد وجد نظام الديرية في إنيويا ترحيباً منقطع النظير ، فأخذت الكنيسة في إنشاء الأديرة في الأماكن البعيدة ، وعلى قمم الجبال وفي وسط البحيرات ، وصارت هذه الأديرة كخلايا نحل تعج بالرهبان الذين يعملون على ترجمة الكتب القبطية واليونانية إلى (الحبشية) ، وكان من الطبيعي أن تكون من أوائل ما نقل إلى الحبشية الأناجيل الأربعة . وكذلك الأسفار المقدسة ثم أسفار مختلفة من المهددين القديم والحديث ، وقد نقلت الأسفار المحذوفة واعتبرها الاتيويون قانونية وضموها إلى الكتاب المقدس ، فصار الكتاب عندهم يشمل واحداً وثمانين سفرًا ، ستة وأربعون منها في العهد القديم وخمسة وثلاثون في العهد الجديد . ويظهر أن آخر الأسفار المنقولة في ذلك العهد هو سفر يشوع بن شيرايخ الذي نقل سنة ٦٧٨ م .

ونقل في هذا العهد أيضاً إلى جانب الكتاب المقدس بعض الكتب القبطية الهامة مثل تشريع باخوم^(١) المسمى عندهم (شرعات با كوميس) كما نقلت عدة رسائل لآباء الكنيسة وتعرف هناك باسم (كيرلوس) ، لأنها تبدأ برسالة لكيرلس السكندري عن الايمان الحقيقي ، ونقلوا أيضاً الكتاب المسمى (فسيولوجوس) ، وهو مجموعة قصص عن الحيوانات ووصف خصائص بعض الحيوانات والأحجار والنبات ، وقد عرف هذا الكتاب في الأديين السرياني واليوناني . ولكن الأقباط جعلوا منه كتاباً ذا رموز مسيحية ، مثل قصة الطائر (الوى) الذى يستريح في جحره ثلاثة أيام فيجعلونه رمزاً للمسيح .

وبسبب تعرض اتيويا للحروب الكثيرة التى لم تنقطع طوال تاريخها ، ضاع معظم هذه الكتب وكانوا يكتبونها في كتب مصنوعة من جلد الحيوان

(١) وهو الحاس بقوانين الرهبة والأديرة .

على كلا الوجهين ، ثم يحفظون الكتاب في محفظة من الجلد أيضاً ذات حامل من الجلد ليعلق منه إلى الكتف ، وقد احتوى كل دير في العادة على مجموعة من الكتب التي ترجمها أو كتبها رهبان هذا الدير ، أو اشتراها مؤسس هذا الدير من الخطاطين المختلفين والرهبان المنقطعين للترجمة أو الكتابة .

وقد قامت الأديرة بنصيبها في تنقيف الشعب ، فقد كان ولا يزال يلحق بكل دير مدرسة يقوم الرهبان بالتعليم فيها لمن يقبل من الصبيان ، فيعلمونهم القراءة والكتابة وبعض الأناشيد الدينية ويسمحون لهم بالمساعدة في خدمة القديس ، وقد أقبل الاتيوبيون على الالتحاق بهذه المدارس في كثرة ملحوظة ، حتى كان الصبي يفضل أن يقوم بخدمة الكهنة مجاناً لقاء السماح له بالالتحاق بالمدرسة للتعليم .

وقد كان للمساعدة القيمة التي بذلها رجال الدين الاتيوبيون ، وعلى رأسهم القديس تكلاهيمانوت ، للامبراطور يكونوا أملاكاً في القرن الثالث عشر من أجل ارتقاء العرش أثرها في الكنيسة ورجال الدين ، فكان أن أصبحت الكنيسة الاتيوبية ذات شخصية مستقلة عن الدولة والحكومة ، مما مكّنها من القيام برسالتها على أتم وجه .

وقد قاد الأب سلامة الثاني حركة الترجمة الثانية في القرن الثالث عشر من العربية إلى (الحبشية) فروجع الكتاب المقدس على النص العربي ، ونقلت كتب الطقوس والليامر وصحف الرهبنة وحياة الشهداء والقديسين ، وقد استمرت حركة النقل بعد الأب سلامة ، فكتاب الأجيبة^(١) المعروف في إتيوبيا باسم (ساعاتات) نقل في منتصف القرن الرابع عشر - وكتاب التجنيز ولبس الاسكيم^(٢) والتاودوكيات وحياة الرسل نقلت في نهاية القرن الرابع عشر ، كما نقل أيضاً كتاب تاريخ اليهود ليوסף بن جوربون الذي يعتبره الاتيوبيون أحد الكتب الثلاثة الملحقه بالكتاب المقدس .

(١) وهو كتاب خدمه القديس .

(٢) وهو يحتوي على طقوس سيامة الرهبان .

وفى أيام الامبراطور زراء يعقوب استأنفت الكنيسة نشاطها كما ذكرنا ،
فبثت رجالها فى القرى والمدن من أجل القضاء على الخرافات والمعتقدات الوثنية ،
التي كانت منتشرة بين الإتيوبيين فوضعت الرسائل الدينية التى من شأنها تعليم
الدين الصحيح ، كما فتحت الكنائس عصر كل يوم أحد لاستقبال الأطفال
وتعليمهم أصول الدين وواجبات المسيحيين ، كما استؤنفت حركة الترجمة
فترجم من العربية عجائب العذراء ثم عجائب العذراء ويسوع ، كما ترجم
السكسار^(١) ونقل الكثير من تواريخ آباء الكنيسة الأرثوذكسية وأقوالهم ،
منها سير الآباء القديسين (جدلا أبوقدوسيان) ، وفى عصر لبنا دنجل نقل
كتاب جرجس المكين المعروف بابن العميد ، وهو كتاب فى تاريخ العالم يعرف
فى إتيوبيا باسم (ولد عميدا) ، وكذلك أمر الإمبراطور بنقل رسالة الشيخ
الروحانى فى الرهبة ، وشرح رسائل العبرانيين ليوحنا فم الذهب ، وشرح
الأنجيل لديونسيوس ، ورسالة الشيخ الروحانى مركز خاص لدى الإتيوبيين ،
فهى أحد الكتب الثلاثة التى يتكون منها الكتاب المسمى صحف الرهبة .
وإذا كانت هذه الكتب قد أفادت الإتيوبيين فى حياتهم الدينية وساعدتهم
على فهم ، دينهم إلا أن هناك من الكتب التى ترجمت ما أفادهم فى حياتهم
الدينية والمدنية ، وأثر فيها تأثيراً مباشراً طويلاً استمر أكثر من سبعة قرون ،
مثل كتاب المجموع الصفوى الذى ألفه صفي الدين بن العسال الذى كان كاتماً لأسرار
الجمع المقدس ، وهو يبحث فى جزئه الثانى عما يجب أن تقوم عليه العلاقات
بين الأفراد المسيحيين فى كل شؤونهم المدنية ، وقد أعجب به الإتيوبيون إعجاباً
شديداً دفعهم إلى ترجمته فى القرن الرابع عشر ولم يمض وقت طويل على تأليفه ،
حتى اتخذوه فى بداية القرن الخامس عشر أساس حياتهم الدينية والمدنية ، والناموس
الذى يسرون بمقتضاه فى حياتهم العامة والخاصة بعد أن سمو اسمه
(فتوح نجست) .

(١) وهو كتاب يحوى تاريخ حياة القديسين الذين تعترف بهم الكنيسة المصرية .

وكان من عادة البطارقة المصريين أن يكتبوا مرتين كل عام إلى إمبراطور إتيوبيا، يسألونه عن أحوال رعاياهم وإلى المطران، ويوجهون إليهما بعض وصاياهم وإرشاداتهم الأبوية، ولم يكونوا يترددون في شرح العقيدة الأرثوذكسية شرحاً وافياً مستفيضاً، إذ حملت إليهم أنباء عن خروج أحد سواء من رجال الدين أو العلمانيين عن العقيدة الصحيحة، فقد كتب الأنبا يونس السابع عشر (١٧٧٠ — ١٧٩٦) إلى الإمبراطور يقول « الذى نذكر به الخواطر الشريفة أن تكونوا ثابتين على الصخرة غير المتزعزعة والأمانة التى تسلمناها من أبائنا الرسل وخلفائهم القديسين التى هى معلومة عندكم وعند كافة المسيحيين جميعاً » .

« والثانى الذى نذكر به الخواطر الشريفة أنه بلغنا أن فى بلاد (الحبشة) جماعات من الطوائف الذين يقولون بالطبعيتين والمشيئتين القائلين بالجمع الخلقدونى الخالف المحروم من أبائنا ، وهراطقة آخرون والذين يصفرون الابن ، والذين يصفرون الروح القدس ، من المساواة مع الآب ، والذين يقولون أن الروح القدس منبثق من الابن والآب ، هؤلاء المكتوب عنهم أنهم يأتون بلباس الحملان وداخلهم دياب خاطفة) ، (فابعدهم عنك وأغربهم منك ، واطردهم من أرضك ولا تدع أحداً يقول بقولهم ، ولا تدع أحداً من شيعتهم ولا من يعتقد بها) .

وفى عهد الولاية ذوى الأفق الضيق الذين كانوا ينزلون الأذى بمسيحي مصر ، كان البطريرك يضمن كتابه وصف ما كان يقع بالمسيحيين من ضيق ويطلب من الإمبراطور التدخل لمصلحة أخوته فى الدين ، فلم يكن الإمبراطور يتردد فى ذلك .

وإذا ما تم انتخاب المطران الجديد وتنصيبه استعد للسفر مصطحباً الوفد وحمل معه خطابين أحدهما من السلطان إلى الإمبراطور رداً على رسالته إليه ،

والآخر من البطريرك وهو يتضمن في العادة وصايا للإمبراطور للسير بمقتضاها طبقاً لقوانين الدين المسيحي ودستوراً للمطران ورجال الكنيسة الإثيوبية وقد يلقى هذا الخطاب شفويًا في حفلة رسامة المطران .

وقد جاء في خطاب البطريرك يؤنس التاسع عشر في حفلة تنصيب الأنبا كيرلس في سنة ١٩٢٧ ما نستطيع أن نتخذه مثالا لهذه الكتب إذ قال (وليس لاسقف منهم (من الانثيوبين) منفرداً ، ولا لهم مجتمعين أن يمسحوا أحداً بمسحة الملك المقدسة فإن ذلك من حقوق المطران خاصة . ولا أن يرسموا مطراناً أو أسقفاً فإن ذلك من أخص حقوق البطريرك حسب القوانين الكنسية دون غيره ، ولا يجوز لأحد منهم أن ينفرد بالرئاسة في جهة ما من جهات إثيوبيا ، ولا أن يتحزب تحزباً سياسياً ، ولا أن يبرح دائرة أبرشيته إلا بتفويض من المطران وإذن من الحكومة . ولا يجوز لأحد من أرباب الكهنوت سواء كان مطراناً أم أسقفاً أم كاهناً في اثيوبيا ولا لأحد من أرباب السلطة سواء كان ملكاً أو وزيراً أو حاكماً أو أميراً أو راساً أو معلماً أو قائداً أو غيره أن يبطل نصاً من نصوص هذا القرار) .

ويعتز الانثوبيون برابطتهم بالكنيسة المصرية اعتزازاً كبيراً ، ويظهر هذا الاعتزاز في تكريمهم المطران تكريماً يفوق كل تكريم ، فما أن تأتي الأخبار بقرب وصوله حتى تصدر الأوامر بأن يستقبله حكام مقاطعات الحدود بكل مظاهر التكريم الرسمية ومعهم رجال الأكليروس . وكلما تقدم الموكب إلى العاصمة انضم إليه حكام المقاطعات التي يمر بها ومعهم بعض الجيش والأعيان والاكليروس فما يكاد يهل الموكب على العاصمة حتى يكون قد وصل إلى عدد هائل من الرجال سواء من الرسميين أو المدنيين أو الاكليروس ، ويكون الإمبراطور وأسرته وحرسه ورجال دولته في إستقباله على مشارف العاصمة .

فيقصد الموكب إلى الكنيسة رأساً حيث يقام القداس الأول ، ولا يكاد ينتهى حتى ينثر الامبراطور على رأس الحاضرين الذهب الكثير . وينتهز الفرصة فيهب أعيان دولته الرتب والألقاب ، وترفع على رأس المطران مظلة كبيرة حمراء مطرزة بخيوط الذهب تماثل مظلة الإمبراطور ويطلق تصرفه في كل أموال الكنيسة ومخازنها ، ويحرص الإمبراطور على زيارته في مواعيد متقاربة جداً بينما تحرص الإمبراطورة على زيارته يومياً التماساً لبركته . وهم يقدرّون ما يبيده نيافته من رغبات ويعتبرونها أوامر واجبة التنفيذ ، فقد روى أن تاجراً من مصر حمل أحد عماله مبلغاً من المال وأرسله إلى إثيوبيا . وحدث أن مات الرجل . ولم يجد التاجر وسيلة يسترد بها ماله . فتقدم إلى السلطان طالباً السعى لاسترداد ماله . فكتب السلطان إلى البطريرك القبطى ، فأرسل هذا خطاباً إلى امبراطور إثيوبيا يكلفه الإهتمام بالأمر وأرسل التاجر من جهته رجلاً يثق به وسرعان ما عاد الرجل حاملاً المبلغ وأرباحه ، وهو يروى أنه حال وصوله كتب الإمبراطور إلى حكام المقاطعات التى يمر بها الرسول لامتقباله وإكرامه . فركب ومن معه الخيول المطهّمة النشطة وما زال الرسول يقطع الوهاد حتى وصل إلى العاصمة حيث استقبله الامبراطور بكل مظاهر التبجيل .

وفي يوم الأحد التالى طلب منه الخطاب ، وقرأه في الكنيسة وأمر الامبراطور بإحضار المال ووضع تحت تصرف الرسول ، ولم يترك الإمبراطور مكانه قبل أن يتم هذا كله ، ثم حمل الرسول كثيراً من الهدايا القيمة وشيع بكل تجلّة وإحترام ، وأعطيت الأوامر إلى جميع الحكام الذين يمر بهم لإكرامه وإطعامه وإسكانه حتى اجتاز الحدود بسلام .

وقد كتب كثير من الكتاب عن سر هذه العلاقة التى استطالت إلى ستة عشر قرناً والتي غلبت الزمن فقلبتّه ، وإذا كانت قد وهنت أو انقطعت في

بعض أوقاتها فإنها ما كانت تنقطع ألا لتعود أقوى مما كانت ، ولكن التتبع لهذه العلاقة لا يجد فيها سرّاً يستعصى على الباحث فهمه ، فهي علاقة بين شعبين يريان في هذه الكنيسة رمزاً لقوة عليا هي التي تلهمهم الرشد في هذه الحياة بل تلهمهم الحياة نفسها . وهي التي تبارك خطواتها وهي في كل مرة لا تقودهم إلا إلى الطريق الصحيح .

هذا إلى أن الاتيوبيين رأوا في الشعب المصري وفي الكنيسة المصرية أخوة صادقة لا ترمى إلى سيادة ولا إستعمار ولا خلق نوع من التبعية بين سيد ومسود ، فهم لم يروا جيشاً مصرياً يتقدم يوماً إلى بلادهم غازياً معتمداً على ذراع الكنيسة ، بل وقفت الكنيسة دائماً في صف الشعب تدافع عن استقلال بلاده كما فعلت في القرن السادس عشر والسابع عشر حين حاولت البرتغال التسلل إلى هذا الركن من أفريقيا لتتخذ منه مستعمرات لها ، كما تسلت إلى أجزاء أخرى من هذه القارة واتخذت من أبنائها مادة لتجارها المقوتة لتقتنى من ورأسها الثروة والغنى . وكما وقفت إلى صف الشعب حين حاول الايطاليون ذلك الاستعمار في القرن العشرين . فقد حاول نائب الملك أن يفرى المطران المصري بأن يفصل عن كنيسة مصر وأن ينصب بطريركاً لكنيسة إتيوبيا يملك كل سلطات البطريرك إذا بارك الاستعمار الايطالى وتعاون معه ، ولكنه أبى ورفض المطران أن يكون طعنه موجهة إلى صدر الشعب في جهاده الوطنى ، ورفض هذا العرض . حتى إذا نفذ المستعمر ما يريده بفصل الكنيسة الاتيوبية عن الكنيسة المصرية وتنصيب بطريرك إتيوبى عليها بادرت الكنيسة المصرية بحرمان البطريرك وكل من يتعاون معه ، وبذلك ظلت هذه الساطة الجديدة غير شرعية حتى انتهى الاحتلال الإيطالى وعادت المياه إلى مجاريها . كما لم ير الاتيوبيون يوماً زحفاً اقتصادياً مصرياً الغرض منه الاستيلاء على الأراضى الإتيوبية لوضعها في أيدي مصريين

قادمين، بل ظلت أراضيهم في أيديهم وأمورهم في أيديهم بصرفونها وفق تقاليدهم دون أى تدخل من الكنيسة المصرية . كما لم يروا ممثل الكنيسة المصرية يمثل يوماً سلطة أجنبية تتسلم أوامرها من الخارج لتمثيل وجهة نظر أجنبية تتعارض مع مصالح الشعب الإتيوبي ، بل كان المطران المصرى دائماً لا يكاد يصل إلى إتيوبيا حتى ينسى صفته المصرية ويتصرف فى كل الأمور كإتيوبي لا يرمى إلا مصالح الحكومة الإتيوبية والشعب الإتيوبي على أحسن ما تكون الرعاية كما لم يجد الإتيوبيون يوماً أوقاف الكنيسة ولا أموالها تخرج من إتيوبيا لتوضع فى يد البطريرك المصرى على شكل ضرائب أو هبات ، ليتصرف فيها البطريرك وفق أهوائه، وفى مصالح غير إتيوبية بل ظلت أموال الأوقاف الدينية فى إتيوبيا وأوقاف الكنيسة كلها لا يصرفها المطران إلا على المصالح الإتيوبية لخير إتيوبيا وشعبها .

ومنذ أن تولى يكونو أملاك أصبح تتويج المطران للامبراطور ضرورة من ضرورات الحكم ، فقد حرصت الوثائق دائماً على أن تؤكد قيام المطران بهذا العمل، وربما نستطيع أن نقول أن الأسرة السلطانية قد حرصت على هذا التقليد لتؤكد أحقيتها فى العرش استناداً إلى أساس دينى ، يجعل قيام منافس لها أمراً مستحيلاً ، ولذا أصبح المطران هو الوحيد الذى يتوج الامبراطور وليس لأحد آخر أن يفعل ذلك، ولا يستطيع الامبراطور أن يحكم أو يضمن الطاعة من شعبه إلا إذا توجه المطران .

وليس لدينا من المصادر ما يصف لنا مراسم التتويج ولكن يحدثنا أبو صالح الأرمنى أن جميع الملوك يتوجون فى كنيسة الملك ميخائيل أو القديس جورجيس وتحت صورتها . والمطران هو الذى يضع التاج على رأس الامبراطور ويباركه بوضع اليد على رأسه ويثبتته حول ذقنه كما يلبسه البرنس .

كما يذكر لنا بروس أن تتويج الإمبراطور الجديد كان يحدث قبل دفن الإمبراطور المتوفى. حيث يجلس على العرش في قاعة التتويج حيث الكهنة والقضاة والإشراف ويصب المطران زيت الزيتون من قرن على رأسه ويتوجه قائلاً (مات الملك . عاش ملكنا . الحزن على الميت والفرح لأجل الحي) ويصبح الرجال علامة الفرحة ويتقدمون فيقبلون يده بينما يكون الفناء الخارجى يعج بالحرس . فتقرع الطبول كوسيلة لإعلان الخبر فيصبح الشعب فرحاً ويلعب الفرسان بأسلحتهم .

ولا بد أن هذه المراسم قد جرى عليها ما جرى على غيرها من التطور فلا بد أنها كانت أبسط من ذلك، ولكن الشيء الهام هو أن دور المطران ظل رئيسياً في جميع الأوقات، ليس في مراسم التتويج وطقوسه فحسب ، بل في الخوض على طاعة الإمبراطور والخضوع له، إذ يجلس الإمبراطور على الكرسي المعد له وعلى مائدة قريبة منه ملابس التتويج وهى درع محلى بالجواهر وصولجان وكرة وكلاهما من ذهب وخاتم ثمين من ماس وحرثان لها سن من ذهب وحلة ملكية وتاج ثم الكتاب المقدس .

ويبدأ الاحتفال بكلمة يلقيها المطران يوجهها إلى الأمراء والوزراء والأعيان ورؤساء الجيش ورجال الدين والكهنة وشعب انيوييا، يقول فيها (أركى لكم الإمبراطور (فلان) كى تطيعوه وتعاونوه على القيام بواجبه سواء من الناحية الروحية أو المادية كى يعمل على تقدم البلاد والحفاظة على ديارها) .

ثم يتقدم المطران ويرفع الكتاب المقدس ويلتفت إلى الإمبراطور ليسأله أسئلة يجيب عليها منها هذان السؤالان

هل تعد بالحفاظة على المذهب الأرثوذكسى الذى هو عقيدة شعب إنويويا ؟

فيجيب الإمبراطور نعم أعد بذلك

هل تعد بالحفاظة على الشعب الأتيوبي ؟

فيجيب الامبراطور . نعم أعد بأن أبذل في ذلك جهد استطاعتي .

والفرق بين الاجابتين واضح

وعقب الانتهاء من هذه الأسئلة يبدأ رجال الدين المساعدون في قراءة الصلوات والأدعية ، بينما يتوعد المطران المخالفين له بأنهم يخالفون إرادة الله . ويستحقون غضبه وأن واجب كل إتيوبي هو طاعته والامتثال لأوامره ودفع الضرائب المستحقة عليه لا خوفاً من العقاب بل طاعة لحكم الله . والضمير والواجب .

فاذا ما تم قراءة ما اصطلح على قراءته ، يتقدم أسقف لاستا بالملابس الامبراطورية إلى المطران ليباركها ثم يدفعها إلى أحد مساعديه ليبدأ بالباسها للامبراطور ، فيبدأون بالدرع وإذا ما انتهى منه يرفع مساعد آخر الصولجان وهكذا . ولكن إذا جاء دور التاج رفعه المطران بنفسه بين يديه وهو يقول (ندعوك يا الله . يا من وضعنا فيك كل ثقتنا . أن تبارك هذا التاج وتبارك حامله الامبراطور (اسمه) كي يكون أهلاً للجله ثم يقترب من الامبراطور ويضعه بيده على رأسه وهو يقول « ليجعل الله هذا التاج تاج قداسة ومجد »

ومن الطبيعي أن من يملك حق التتويج يملك أيضاً حق العزل عن طريق الحرمان ، إذا أساء الامبراطور التصرف أو خرج على الكنيسة الأرثوذكسية المصرية أو أتى ما يضر بمصالح الامبراطورية أو الشعب . ولا يحق للشعب الخروج على الامبراطور إلا إذا أمره المطران بذلك .

ولذلك حرص الأباطرة على خروج المطران معهم في الحرب كي يعلم الشعب أن هذا الامبراطور هو الوحيد الذي تؤيده الكنيسة وأنه يرضى عن هذه الحرب وقد سجل خروج المطران للحرب في صورة موقعة عدوة المحفوظة الآن بمعهد الدراسات القبطية بالقاهرة .

والمطران هو رأس الكنيسة الانثيوبية ويليهِ في الرتبة الأسقي، وكان صاحب هذا المنصب هو الحلقة التي تربط المطران المصري بالاكليروس الانثيوبي، ويلي ذلك الأكلبي ساعات أو القيم على الأوقات لأنه المكلف بتنبيه الامبراطور إلى أوقات الخدمة الدينية، وقد أوكلت اليه مهمة تعقب الوثنيين والمخالفين لقواعد الدين ولذلك كان عقد الصلة بين المطران والقصر . فهو دائماً قريب من الامبراطور وحجرتة بمحور حجرته وإذا خرج الامبراطور كانت خيمته بمحور خيمة الامبراطور ثم يلي ذلك رؤساء الأديرة وأكبرهم شأنًا هم رئيس دير دير البانوس لأنه خليفة القديس تكلا هيمانوت ثم الرهبان والكهنة .

وقد تعجب كثيرون من السياح من كثرة عدد الكهنة ، ويقدر بعضهم نسبتهم إلى مجموع المسيحيين بربعهم ولا شك أن ذلك مبالغ فيه، وهناك من يكتفي بأنهم خمس الذكور وإن كان كل من هؤلاء لا يعتمد على إحصائية رسمية، وإن كان الثابت أن هناك أكثر من سبع عشرة ألف كنيسة ودير . وفي بعض الكنائس يصل عدد الكهنة إلى خمسمائة ومائتي شماس . وكان ولا يزال الأباطرة يهتمون ببناء الكنائس ووقف الأوقاف عليها تاركين أمر بناء الأديرة والصرف عليها إلى الكنيسة، وآخر كنيسة بناها الامبراطور الحالي هي كنيسة سلاسي (الثالث) في أديس أبابا وقد بدأها قبل الغزو الايطالي وأتمها بعد عودته .

والكنائس هناك مستديرة الشكل تنقسم إلى ثلاثة أقسام : الداخلي منها هيكل مستدير محاط بحجاب غالباً ما يزين بالموزايكو والصور الملونة، ويقال أن ذلك من أثر الفنان الايطالي برانكا ليوني الذي عاش في أيام زرء يعقوب وراه الفارز هناك . وفيه يحفظ التابوت مغطى بالأقشة المطرزة الغالية كي لا يراه العلمانيون . ولا يباح دخول هذا الهيكل إلا لرجال الدين والامبراطور، ويلي الهيكل القسم الأوسط وهو يدور حول الهيكل ثم القسم الخارجي الذي ينتهي بالسور الخارجي للكنيسة ويفصل كل قسم عن الآخر حائط دائري به باب .

والى جانب الكهنة يوجد الشماسة والأخرون يهيئون لهذه الرتبة صفاراً، ثم يوجد أيضاً الدفترى وهم المرتلون ولا يرسمون، وهم يقابلون العرفاء عندنا وهم يكونون الطبقة المتعلمة فى الكنيسة واليهـم يرجع الكهنة وبقية رجال الدين فى كل ما يودون السؤال عنه فى طقوس الكنيسة وعلومها . وهم يشتركون فى جميع القداسات .

ولا يجد الكهنة الأنثوييون حرجاً فى استعمال الطبل والشستر فى بعض الطقوس، بل يزاولون الرقص فى بعض أعيادهم وحجتهم فى ذلك أن داود النبى كان يرقص أمام مذبح الرب ولم تحاول الكنيسة المصرية أن تتدخل فى ذلك طالما الأمر لا يمس العقيدة .

وجميع القداسات والكتب الدينية ما زالت مكتوبة باللغة الجعزية التى لا يفهمها الكثيرون، وما زال هناك من يعتقد أن كتابتها بلغة أخرى نوع من الكفر، ولكنهم يميلون الآن إلى كتابتها بالأهرية كى يفهمها الشعب .

وقد عنى الايطاليون خلال احتلالهم لأنثيوبيا (بتنظيم) الكنيسة بعد انفصالها عن كنيسة مصر فقسمت البلاد فى سنة ١٩٤٠ إلى عشر أسقفيات ونصب لكل أسقفية مطران واختير من بينهم البطريرك الثانى والثالث . وإن كانوا لم يبذلوا أى مجهود لرفع المستوى الثقافى للكهنة وهو الشىء الوحيد لنهضة الكنيسة .

وإذا ما عاد الحكم الوطنى إلى أنثيوبيا كانت الكنيسة موضع اهتمام من جلالة الامبراطور فأنشأ الكلية الإكليريكية (منفس قدوس تمارى بيت) واستقدم لها مديراً وأربعة من الأساتذة من مصر قاموا بعبء التدريس فيها إلى جانب إخوانهم الانثوبيين وكان ذلك فى بداية سنة ١٩٤٤ .

وفي ٣٠ نوفمبر من نفس السنة صدر أول قانون خاص بالكنيسة وقد صدر بناء على المقترحات التي اقترحها (المجلس الأكليريكي في الشئون الكنسية) وكان الغرض من هذا المرسوم تنظيم الأمور المالية لأجل خلق خزانة مركزية .

وتبين المادة الأولى من هذا المرسوم الفئات المختلفة للأرض التي وهبت للكنيسة ويخضعها للضرائب العامة ولكنها تدفع إلى هيئة خاصة سميت بخزانة الكنيسة ويخصص ما يجمع منها لأغراض الكنيسة والتعليم والاحسان والصرف على الأديرة والكهنة الذين يقومون بدورهم بدفع جميع الهبات والرسوم التي تصلهم نظير الخدمات الدينية إلى الخزانة العامة .

وحدد هذا القانون الشروط التي يجب توافرها في الكاهن ودرجة الكفاءة وكذلك عدد الكهنة الملحقين بكل كنيسة بما يطابق احتياجاتها . ووكلت إليهم الأعمال التي يقومون بها على أن يتسلموا مرتبات نظير ذلك . والكاهن مسئول عن دوام الاتصال بالأسقفية التي عين في دائرتها ويتم التعيين في جميع المناصب الكبيرة بواسطة المجمع الأكليريكي على أن يوافق الامبراطور على هذا التعيين .

وجعل هذا القانون للكنيسة نظامها القضائي الخاص بها واقتصرت العقوبات فيه على العقوبات الروحية .

ولا شك أن هذا القانون يحقق إصلاحاً حقيقياً محسوساً .

وقبل إنشاء الكلية اللاهوتية كان إعداد رجال الدين يتم بواسطة المدارس الملحقة بالكنائس والأديرة ، وكان التعليم فيها بالجماع ويقوم الكهنة انفسهم بالتدريس فيها . حيث يتعلم الصبيان القديس والألحان الكنسية ثم المبادئ المسيحية ، وقراءة المزامير إلى جانب القراءة والكتابة الأهلية . ولم تكن سنو

الدراسة في هذه المدارس محدودة بل تتناسب مع كفاءة الطالب واستعداده ولكنها على كل حال كانت طويلة لاتقل عن سبع سنوات .

ويلبس الكهنة والدفتر هناك ملابس بيضاء وعمامة بيضاء أيضاً ، ويحرصون على أن يمسكوا العصا في أيديهم ومعها الصليب الذى يهتم بتقريبه كل من سلم عليهم ، وهم يعتمدون على هذه العصا فى الاعتماد عليها خلال القداس لأنهم لا يجلسون مطلقاً كما لا يجلس الشعب أيضاً . ولكن تستبدل بهذه الملابس البيضاء ملابس سوداء وقبعة سوداء غالية لمن يقصد منهم زيارة بيت المقدس ولأصحاب المناصب الكبيرة ، وفى خلال الخدمة يلبس الكهنة والشمامسة ملابس مطرزة بالذهب والفضة ذات ألوان زاهية كما ترفع على رؤوسهم مظلة ضخمة ذات ألوان متعددة وكان المطران مظلة كبيرة حمراء مطرزة أيضاً بأعلامك الذهب ترفع إلى رأسه خلال الاحتفالات غير الدينية التى لا بد أن يحضرها دائماً إلى يمين الامبراطور .

ولا بد للكاهن كما هو الحال فى مصر ان يكون متزوجاً ولكنه لا يتزوج بأكثر من واحدة أما الرهبان فكأخوانهم رهبان العالم أجمع يقسمون على التبتل والطاعة العمياء .

وقد ذكرنا أنه فى سنة ١٩٤٤ طلبت الكنيسة الاثيوبية إلى المجمع المقدس فى مصر أن يكون المطران إتيوبيا فوافق المجمع على هذا الطلب على أن يختار المطران مجمع أكليركى إتيوبى فى أديس أبابا يسافر إلى القاهرة حيث ينصبه البطريرك مطرانا يملك جميع اختصاصات وسلطات المطران المصرى .

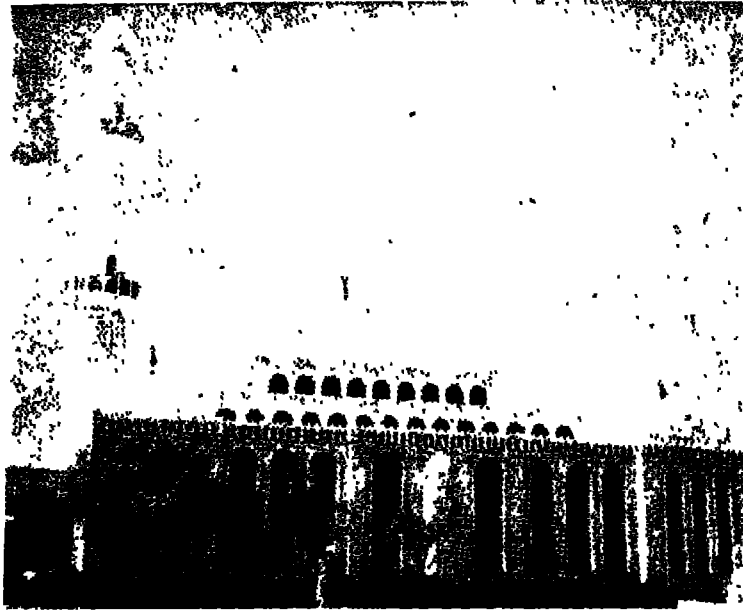
وتم تنصيب المطران الاثيوبى الأول فى سنة ١٩٥٠ وترتب على ذلك أن النى منصب التشيخى الذى كان يمثل حلقة الاتصال بين الاكليروس الاثيوبى والمطران المصرى .



ميدان هيلاسلامى فى مدينة أديس أبابا



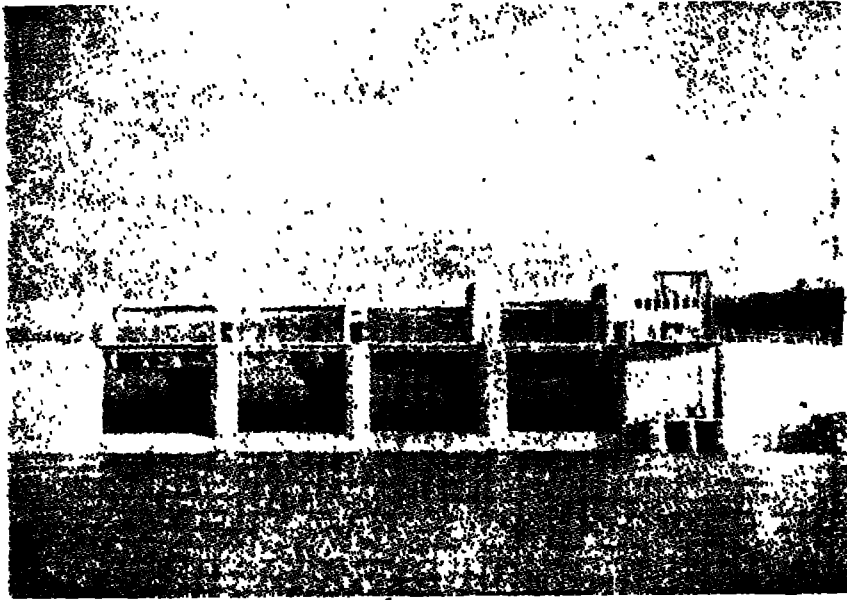
جثث الوطنيين الإثيوبيين وقد مثل بها الإيطاليون
خلال احتلالهم القصير لإثيوبيا (١٩٣٦ — ١٩٤١)



مسجد حديث في مصوع بني على نفقة
جلالة الامبراطور هيلاسلاسي الأول



سد كوكا وهو مقام على نهر أواش على ارتفاع ١٦٠٠ م.
من سطح البحر يحجز ١٥ مليون متر مكعب من الماء ومقدار
ما ينتج من الكهرباء ١١٠ مليون كيلووات ساعة في السنة وقد
بلغت تكاليفه ٣٤٥ مليون دولارا اثيوبيا وهو الخطوة الأولى من
ثمان مشروعات في السنة أقامها افرس كهنة البلاد وتوسيعاً للرقعة الزراعية



منظر أمامي للخزان وتبذ وراءه البحيرة التي كونها

وفي سنة ١٩٥٨ طلبت الكنيسة الانثوية أن ترفع درجة المطران إلى أعلى من ذلك ، على أن يملك حق تنصيب الأساقفة من أجل التغلب على صعوبة السفر إلى القاهرة ، ومن أجل منح المطران سلطة التصرف وفقاً للظروف ، فدارت المفاوضات بين الكنيستين واستمرت مدة طويلة ولكنها انتهت في النهاية في يونيو سنة ١٩٥٩ إلى رفع درجة المطران إلى (بطريرك جاثليق) وهي - درجة بين المطران والبطريرك - ومنحه حق تنصيب المطارنة داخل حدود الامبراطورية الانثوية ، على أن يوقع كل أسقف قبل رسامته على تعهد مستقل بأن لا يجتمع مع غيره من الأساقفة من أجل تنصيب بطريرك مستقل ، بل يظل تنصيب البطريرك جاثليق حقاً من حقوق بطريرك الاسكندرية وحده . في الوقت الذي نصت فيه المادة ١٣٦ من الدستور الانثوي على أن (الكنيسة الانثوية المؤسسة منذ القرن الرابع على مبادئ القديس مرقس هي كنيسة الدولة) ومن المعروف أن بطريرك الاسكندرية هو الخليفة الوحيد للقديس مرقس الرسول .

ورغم اهتمام بطاركة الاسكندرية الدائم بانيوبيا ، فإنه لم يزرها منهم إلا ثلاثة خلال المائة سنة الأخيرة ، وأولهم البابا كيرلس الرابع وقد زارها مرتين . الأولى قبل أن يرسم بطريركا وكان لا يزال الراهب داود ، حين ندبه إلى ذلك البابا بطرس الجاولي لفض نزاع ديني قام بين المطران سلامة الثالث والأكليروس الانثوي^(١) ولكنه فشل في مهمة . وكانت الثانية حين ندبه إلى هذه الزيارة الوالى سعيد باشا ، وقد أصبح بطريركا ، من أجل فض النزاع الذي قام بين الدولتين من جراء غارات الجنود غير النظامية على الحدود الانثوية السودانية عند مطاردتهم لعصابات قطاع الطريق . وكاد الأمر يتطور إلى حرب بين الدولتين

(١) وقد حاول البطريرك قبل ذلك نس هذا النزاع بطريقته التقليدية وهي الكتب التي أرسلها إلى كل من الإمبراطور والمطران يشرح الأول المعتقد الصحيح وينصح الثاني بالاعتدال في المعارضة .

لولا هذا التدخل السلمى ، ونجح البابا فى مهمته وعاد يحمل معاهدة صداقة بين الدولتين . وكان هذا العمل من البابا بطريرك تحديدا واضحا ، للسياسة الكنسية التى جرت عليها كنيسة الاسكندرية طوال تاريخها والتى ترمى دائما الى إقامة صداقة دائمة بين الشعوب الأفريقية التى تخضع للكرسى المرقسى . وزارها فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ غبطة البابا يؤنس التاسع عشر ، زيارة رعوية استمرت سبعة أيام ، أدت إلى تجديد الصلات بين الكنيستين وتقويتها وفتحاً لعهد من البعثات الدينية التى تتبادلها الكنيستان ، وكان مظهرها إرسال عدد من الطلبة الاتيوبيين الى كلية اللاهوت القبطية فى القاهرة للحصول على درجتها العلمية ، ومازالت هذه البعثات مستمرة حتى الآن .

وزارها فى سنة ١٩٦٠ غبطة البابا الحالى كيرلس السادس زيارة رعوية كذلك ، استمرت أسبوعاً أيضاً وذلك عقب رفع درجة المطران الاتيوبى إلى درجة بطريرك جاثليق ، ولذا كان استقبال الاتيوبيين لنبطته بالغاً حد الروعة . وقد صحبه فى هذه الزيارة عدد كبير من كبار الأقباط من المهتمين وغير المهتمين بالشئون الاتيوبية ^(١) .

كما زارها غبطته مرة ثانية فى سنة ١٩٦٥ ، ليرأس مجمع بطاركة الكنائس الارثوذكسية الشرقية ، وهو المجمع الذى دعا اليه جلالة الامبراطور ، من أجل إيجاد اتصال دائم وتفاهم مستمر ، بين الكنائس متحدة العقيدة لدراسة ماتعنى به هذه الكنائس من مسائل دينية واجتماعية من أجل إيجاد حلول جماعية لها .

وطقوس الكنيسة الاتيوبية هى نفسها طقوس الكنيسة المصرية إلا أن لها ألحانها الخاصة . وكل الطقوس والألحان تقال باللغة الجعزية وهى اللغة الأمهرية بمثابة اللاتينية للغات الأوروبية الحديثة . ولكن لم يلبث رجال الدين المتقدمون أن خطوا خطوة حاسمة من أجل إفهام الشعب (الذى يجهل اللغة الجعزية) هذه

(١) وما يؤسف له أن لم صدر كتاب بعد عن هذه الزيارة حتى كاد أن ينساها الناس بل ومن المؤكد أن سينساها التاريخ .

الطقوس وهذه الألحان ، فوضعت الألحان باللغة الأمهرية شعراً ، بل ولحنت على النوتة الموسيقية .

وقام بهذه الخطوة الجريئة — التي لم تقم كفيستنا القبطية بمثلها حتى الآن — أحد مدرسى الدين بالمدارس الثانوية الحكومية بإثيوبيا ، وهو الأستاذ اساياس علم Essaias Alam ، وقد أرسل الى القاهرة من أجل الحصول على بكالوريوس في اللاهوت وشجعت الكنيسة على خطوته حين تقبل الأنبا ثاوفيلس مطران هرر والقائم بأعمال البطريرك جاثليق نوتته الموسيقية بعد طبعها (أنظر شكلى ١٠ و ١١) ، وأمر نيافته فرن بعض مدرسى الدين بمدارس أديس أبابا والأقاليم عليها ، بل أدخلت أيضا في كلية اللاهوت باديس أبابا ، كما أمر السيد وزير التعليم والفنون الجميلة بتدريسها في المدارس العامة .

الفصل العاشر

أرتريا

كانت أرتريا تكون جزءاً من إتيوبيا قديماً ، بل كانت هي مركز قوة دولة أكسوم . وكان ميناؤها عدول هو العين الذي تطل به على العالم الخارجى . وعن طريقها أتت القوة البحرية ، كما أتت الديانة والثقافة والثروة ، واشتهرت فى القرن الخامس بما قامت بها من صناعات ذاعت شهرتها فى أجزاء العالم فى ذلك الوقت فصنعت بها الرماح العدولية التى اشتهرت فى الشعر العربى الجاهلى . وكانت سفنها ذات شهرة أيضاً إذ قال فيها طرفة بن العبد فى إحدى قصائده :

عدولية أو من سفين ابن يا من يروح بها الملاح طورا ويهتدى
يشق عباب الماء حيزومها بها كما قسم الثرب المفائل باليد

وظلت كذلك حتى القرن السابع حين أخذت القبائل العربية المسلمة تكون حائزاً لإسلاميا وقف فى وجه اتصال إتيوبيا بالعالم الخارجى ، ومن ثم أخذ الوهن يتسرب إلى دولة أكسوم . ولكن ليس معنى ذلك أن هذا الجزء لم يعد جزءاً من إتيوبيا ، بل ظل يكون قطاعاً هاماً تسكنه جماعات مسلمة وأخرى مسيحية ، وإن فضلت الأولى سكنى الجهات المنخفضة بينما فضلت الثانية سكنى الجهات المرتفعة .

وفى القرن العاشر انتقل مركز الحكم إلى لاستا ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح إقليم تجرى الذى تكون أرتريا جزءاً منه أكثر بدءاً عن مركز القوة فى إتيوبيا .

وفي القرن الثالث عشر ازداد مركز الحكم في إتيويا بعداً نحو الجنوب حين انتقل إلى شوا، فكان ذلك داعياً لأن تزداد أترتيا انفصالاً عن إتيويا .

وفي القرن السادس عشر استولى الأتراك العثمانيون على الساحل الغربي للبحر الأحمر فكانت ميناء أدوليس ، وقد أصبح اسمها مصوع ، من نصيبها وورثه عنهم المصريون في أواسط القرن التاسع عشر أيام حكم إسماعيل .
وفي سنة ١٨٧٩ اشترت شركة راباتينو الإيطالية أرض خلاء حول ميناء عصب من أحد الشيوخ ، بعد أن اعتبرته الشركة مستقلاً متناسية حقوق مصر هناك .

وفي سنة ١٨٨٠ بدأت الحكومة الإيطالية تتخذ بعض الخطوات لتحل محل الشركة ، فأرسلت إلى هذا الثغر إحدى سفنها ورفعت العلم الإيطالي . كما أنزلت بعض البجارة . وهنا أعلنت الحكومة المصرية دهشتها من هذه الخطوة وأيدتها المجترة في هذا الموقف حين أكد اللورد سالسبوري أن عصب تقع ضمن الأراضي المصرية مما حدا بإيطاليا إلى أن تؤكد أن خليج عصب لن يتحول مطلقاً إلى منشأة حكومية ، بل ستظل تحمل الطابع التجاري والعلمي .
ودأبت الحكومة الإيطالية بعد ذلك على السعي لتسوية مسألة عصب مع حكومة مصر ، رغم ما أعلنته في نهاية العام من تعيين قوميسر للإشراف على الإدارة المدنية .

ولم تلبث مصر أن منيت بالإحتلال البريطاني، الذي أرغمها على الانسحاب من السودان في سنة ١٨٨٥ ، واعتبر السودان أرض خلاء ، ودعيت إيطاليا لاحتلال مصوع .

وكان تأثير هذا الإحتلال غريباً إذ لم يكن له أي صدى في الرأي العام الإيطالي حين خلق ما يشبه حى استعمارية بين أعضاء مجلس النواب الإيطالي فأراد أن

يكون جديراً بشرف الانتساب إلى البنادقة والجنوبيين وأهل ييزا، الذين كانوا سادة التجارة في القرون الوسطى . ومن ثم تطلعت الأنظار إلى تقليد بريطانيا وهولندا ، في بناء إمبراطورية فيما وراء البحار .

ونوقشت مسألة الهجرة لإحياء المستعمرة فعارضها بعض المفكرين، لاحتياج إيطاليا آنذاك إلى الأيدي العاملة ورؤوس الأموال بدلا من إرسالها إلى الخارج، فإذا ما بدأت الهجرة بعد ذلك كانت محصورة في الفقراء والجهلاء والمجرمين . فكانت الحركة أقرب إلى الهرب منها إلى الهجرة ، وعمل في ميدانها بعض السماسرة الذين كانت وظيفتهم إغراء المهاجرين على السفر بأجور أفضل .

وباستيلاء إيطاليا على مصوع بدأ الصراع الاستعماري . الذي خاضته إيطاليا، وكانت المساعدة التي بذلتها إنجلترا لها كافية لأن تصيبها بالفرور، مما جعلها تفكر في أن تصل مستعمرتي عصب ومصوع بشريط ساحلي ضيق ، وسرعان ما اتخذت إيطاليا هذا الجزء نقطة ارتكاز للتوسع في الداخل ، ولكن هذا الدور بددته هزيمة عدوة سنة ١٨٩٦ على يد الامبراطور منليك الثاني، فالتزمت إيطاليا حدودا معينة حددتها الاتفاقية الإيطالية الاثيوبية التي عقدت فيما بعد.

وبدأت إيطاليا تحاول النهوض بهذه المستعمرة ، فأجرت التجارب العديدة ولكنها انتهت كلها إلى لا شيء، إذ عجزت الحاصلات عن أن تسد الحاجة، ولذا ظل استثمار إيطاليا لها لا يعدو مشروعا حكوميا . ومع ذلك ظلت الهجرات تتوالى من أجل خلق وعى أفريقي بين الايطاليين ، الغرض منه التمهيد لفكرة أن عصب ومصوع ليست إلا مفاتيح للتوغل داخل القارة . وكانت مصوع من حيث موقعها محطة ضرورية للبواخر في البحر الأحمر . فمدت السكك الحديدية إلى الداخل ، ولكن مع ذلك ظلت المستعمرة ليست أكثر من ميناء محرومة من رؤوس الأموال . فلم توجد بها شركة واحدة ، أو بيت

تجارى رئيسى واحد ، حتى أنها لم تثر حسد جيرانها . وظلت المستعمرة عبثا على الخزنة الإيطالية وكانت تكلفها ما يقرب من ثمانية ملايين من الليرات سنويا . وقدر ما صرف عليها حتى قيام الحرب العالمية الأولى بمخمسائة مليون من الليرات ، دفعتها الخزنة الإيطالية التى كانت مثقلة بالديون ، والتي كانت الدولة تدفع عنها فوائد بلغت فى بعض الأحيان ٣٣ ٪ ، مما جعل إيطاليا تفكر أكثر من مرة فى إخلائها لولا الكرامة السياسية .

وفى خلال ما بين الحربين ، كانت سيادة العنصر الإيطالى فى أترتيا أحد أهداف السياسة الفاشية . فلم تلبث قوانين التفرقة العنصرية أن صدرت بعد أن رأت الحكومة اشتراك النساء الوطنيات مع الرجال الإيطاليين فى إدارة الأعمال .

وفى سنة ١٩٣٥ اتخذت أترتيا قاعدة للهجوم الإيطالى على إثيوبيا ، كما رأينا وانتهى الغزو باستيلاء إيطاليا على إثيوبيا فجعلت أترتيا إحدى المحافظات التى تتكون منها امبراطورية شرق أفريقيا .

وفى سنة ١٩٣٧ صدرت القوانين التى تنص على عقوبة الحبس خمس سنوات للمواطن الإيطالى الذى يصهر الى أتيوى . ونص قانون ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٨ على عدم الاعتراف بأى زيجة بين المواطنين الإيطاليين والرعايا . كما حرم الوطنيون من التمتع بمزايا الإيطاليين والا حكم عليه بالحبس ستة أشهر وغرامة ألفين ليرة . وقصر التعليم على أبناء المستعمرين .

وهزمت إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية ، واجتمعت هيئة الأمم المتحدة لتتظفر فى أمر المستعمرات الإيطالية السابقة وأرسلت الى أترتيا كما أرسل الى غيرها دبعثة رابعة للتعرف على رأى الأهالى فى مستقبلهم ، وانتهى الأمر بضمها الى إثيوبيا انضماما فدراليا بقرار من هيئة الأمم المتحدة فى ٢ ديسمبر

سنة ١٩٥٠ ، بعد أن أديرت بواسطة بريطانيا مدى إحدى عشرة سنة .
وأرسل إلى هناك المستر مانتزا ليضع دستوراً فدرالياً لها . فإذما أتم مهمته
وافقت عليه الهيئة فدخل في دور التنفيذ في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٢ . فأنشئت
إدارة وطنية لإدارة الشؤون الأترية ولتهيء الأمور لجعل هذا الدستور الجديد
حقيقة واقعة .

وكان في أتريا في ذلك الوقت حزبان ، أحدهما حزب الوحدة ، وهو الراغب
في ضمها إلى إثيوبيا ، والثاني حزب الرابطة الإسلامية أو حزب الأحرار كما سمي
فيما بعد ، وهو الراغب في استقلالها أو ضمها إلى السودان .

وبمقتضى هذا الدستور أصبحت أتريا وحدة قائمة بذاتها ، متحدة فدرالياً
مع إثيوبيا تحت التاج الاتيوي . ومن أجل حسن الإدارة وتنسيق العمل أنشئ
الجلس الاتحادى المكون من أعضاء متساوى العدد من الأثيوبيين والأترين
ويجتمع مرة كل عام على الأقل من أجل تقديم المشورة إلى حكومة الاتحاد في
الشئون المشتركة ، على أن تكون هناك جنسية واحدة تضم رعايا الحكومتين .

وملكت حكومة أتريا حينذاك سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية خاصة بها
تعالج أمورها الداخلية . بينما ظلت الشؤون الخارجية والدفاع ، والنقد والمالية والتجارة
الخارجية ، والمواصلات الخارجية ، من اختصاص الحكومة الفدرالية المركزية ، التي
تملك أيضاً حق فرض الضرائب للصرف على جزئى الاتحاد . بينما يملك المجلس
التشريعى المنتخب من شعب أتريا ، حق فرض الضرائب الخاصة بأتريا للصرف
على شؤونها .

وقد كان لأتريا علم خاص يرفع على المباني الحكومية إلى جانب العلم
الاتيوي ، ولكن جاء اليوم الذى قررت فيه الهيئة التشريعية إلغاءه والاكتفاء
بالعلم الاتيوي ، وقد عدت حكومة إثيوبيا هذا العمل خطوة نحو الوحدة .

ونص قانون الضم على أن تكون أتيويا وأرتريا وحدة جمركية وجنسية واحدة، وأن يشترك المواطنون الأرتريون في الارادات التنفيذية والقضائية . وأن يمثلوا في المجلس التشريعى الفدرالى طبقاً للقانون ، وبالنسبة التى يمثلها شعب أرتريا بالنسبة إلى شعب الاتحاد كله . وأن تقوم حكومة الاتحاد مع حكومة أرتريا بكفالة الأمن لجميع المقيمين فى أرتريا، دون تمييز بسبب الجنسية أو اللغة أو الدين أو الجنس ، وكذلك التمتع بالحقوق الإنسانية الأساسية .

ولأرتريا دستورها الخاص الذى ينص على أن يكون إمبراطور أتيويا هو رئيس الاتحاد . ويكون له حق التقدم فى جميع الاحتفالات وفى افتتاح وانتهاء دورة المجلس التشريعى . على أن يلقى مثله فى أرتريا خطاب العرش الذى يعالج فيه الشئون المشتركة كما يعالج شئون أرتريا .

ويملك المجلس التشريعى تعيين رئيس المجلس التنفيذى ، الذى يجب أن يحوز أغلبية الأصوات . وهو مسئول أمام ممثل الإمبراطور الذى يقيم دائماً فى أسمرة . فهو يباشر سلطته تحت إشرافه .

ويتكون المجلس التنفيذى من خمسة وزراء إلى جانب الرئيس، ثم مدير عام وسكرتير عام ، وسكرتير عام مساعد لمجلس الوزراء ، بينما يتكون المجلس التشريعى من ٦٦ عضواً ، كلهم منتخبون بطريق الاقتراع غير المباشر . لمدة أربع سنوات ، وبشترط فى العضو أن يكون بالغا ثلاثين سنة ومقيماً فى أرتريا لمدة ثلاث سنوات سابقة لانتخابه على الأقل ، منها سنتان فى الدائرة التى يمثلها .

ويعقد المجلس دورتين كل عام وهو يملك حق سؤال رئيس المجلس التنفيذى . كما يملك عشرة أعضاء حق تقديم طلب لمناقشة سياسة الحكومة . وحينئذ يجب أن يجيب الوزير المختص بنفسه أو ينتدب أحد المديرين للإجابة . كما يملك المجلس

حق مناقشة الميزانية ، التي يجب أن تقدم إليه قبل افتتاح الدورة الثانية بشهر على الأقل لفحصها ، حتى إذا افتتحت الدورة بدأ المجلس مناقشتها ليجرى بها التعديلات التي يراها . وبعد انتهاء العمل بالميزانية يقدم رئيس المجلس التنفيذي حسابا عما تم تنفيذه منها .

ويمارس المجلس التشريعي حق تعيين القضاة من بين أسماء يتقدم بها رئيس المجلس التنفيذي ، بعد استشارة رئيس المحكمة العليا .

وهناك أيضا المجلس التنفيذي الاستشاري ويتكون من رئيس المجلس التنفيذي رئيسا ، ومديري الإدارات المختلفة ، وهو يدعى إلى الاجتماع كلما دعاه الرئيس ، وجميع هؤلاء المديرين مسئولون أمامه عن سير العمل في إداراتهم ، ولا يستطيع المجلس التنفيذي مباشرة عمله في غياب رئيسه .

ولكن انتهى هذا كله في سنة ١٩٦٠ ، بقرار صدر من مجلس نواب أرتريا - تقدم به أحد أعضائه - بالانضمام النهائي إلى إثيوبيا ، لتكون قسما إداريا من أقسامها ، يكون له ما للأقسام الإدارية الأخرى من حقوق وما عليه من واجبات .

ويعتمد أهل أرتريا في معيشتهم على الزراعة ، ومع ذلك فما يزرع من أرضها لا يزيد عن ٣ ٪ بينما تشغل الغابات ٥ ٪ ، ويمرح الرعاة في أكثر من ٧٥ ٪ من المساحة وهي مراعى فقيرة لقلة المطر . وتقدر ماشيتها بثلاثة ملايين ونصف مليون رأس من الماشية ولذا كان الفقر وانخفاض المستوى الاقتصادي والاجتماعي أظهر ما يميزها فهي تعتمد في غذائها على حبوب إثيوبيا ، وليس هناك من علاج قريب لهذا النقص . ما لم يكن ذلك على حساب المراعى وهناك مجال محدود لزيادة الأراضي الزراعية في المنخفضات الشرقية ، حيث تجرى مياه الفيضانات في أوقات محدودة ، إذ أن الماء نادر في المرتفعات الغربية وتكون هذه الفيضانات في مواعيدها سببا لانتشار الأمراض وخاصة الملاريا .

ويقدر عدد سكان أرتريا بمليون وأربعمائة ألف . وهم من التجرائية الذين يعيشون في المرتفعات الغربية القريبة، ثم البدو من العرب والبجة ، ويعيشون على سواحل البحر الأحمر . والعفر ويعيشون في السهول الساحلية لخليج زولا . وأخيرا الزوج ويعيشون في الجنوب الغربي .

ولم تهمل إيطاليا الأهلأ أرتريا الوطنيين أيام احتلالها للبلاد، وقد استمرت طيلة ستين سنة — من التعليم سوى المرحلة الأولية . وفي أيام الفترة البريطانية التي توسطت الإيطاليين والإثيوبيين كان عدد الطلبة لا يزيد عن عشرة آلاف طالب وهو عدد لا يمثل أكثر من ٦٪ من الأولاد الذين في سن التعليم .

وخارج نطاق الزراعة والرعى ، يعمل بعض الناس في الصناعة والتعدين والسكك الحديدية والنقل البرى والإدارة العامة، ومجموع من يعمل في كل ذلك لا يتعدى ٢٪ من السكان .

وسكان أرتريا الأوروبيون كانوا قليلين إلى سنة ١٩٣٥ ولكنهم ازدادوا فجأة بسبب تدفق الإيطاليين من أجل الحرب، وفي سنة ١٩٤١ وصل عدد الإيطاليين إلى ستين ألفاً ، وإلى جانبهم بعض اليونان والعرب واليهود والهنود والسودانيين .

وفي سنة ١٩٥٠ هبط عدد الإيطاليين إلى عشرين ألفاً ، مما أدى إلى إغلاق عدة محلات تجارية فكان ذلك سبباً في انتشار البطالة بين عدد كبير من الوطنيين الذين كانوا يعملون فيها . ولكن منذ أن بدأ الاتحاد بدأت بعض الصناعات الجديدة ، مثل حفظ اللحوم وعمل العلب والفخار والنسيج تستوعب إعداداً منهم .

وكانت إيطاليا بعد احتلالها لإثيوبيا في سنة ١٩٣٦، قد أخذت في مد مجموعة من الطرق الحديثة كما بدأت بعض الصناعات الاستهلاكية مثل الطوب

والأسمت والأدوات الكهربائية ، إلا أن ذلك كله توقف في سنة ١٩٤٣ حين توقفت الواردات . وظلت بعض الصناعات الأخرى تعمل مثل صناعة الزجاجات والكبريت والبيرة والنبيد والورق والصابون ، وطحن الغلال ، وعصر الزيوت وأززار الدوم وصنع الجلود والسجاير ولكن كل ذلك في نطاق ضيق .

وتعتمد إتيوبيا حالياً على مينائى عصب ومصوع وتمر بهما ٦٠٪ من تجارتها . والثانية أكبر من الأولى وأكثر استعداداً وهى تخدم شمال اتيوبيا بينما تخدم الثانية وسطها وجنوبها، وأنشئ لها طريق مهاد يربطها بديسى وأديس أبابا قامت بتعبيده شركة يوغوسلافية .

ومما لاشك فيه أن خروج الإيطاليين قد أدى إلى نقص تجارتها . هذا إلى أن ضرائب إتيوبيا الجمركية العالية قد رفعت من أثمان المواد المستوردة . مما أدى إلى مزيد من النقص في الواردات ويدخل في ذلك ما كان يرد سابقاً من اتيوبيا ، وهو كثير يتمثل في الحبوب والسيج والوقود وقطع الغيار . وقد اختفى هذا النقص في تيار زيادة تجارة اتيوبيا مع الخارج منذ سنة ١٩٥٠ . ويبدو أن إيرادات أرتريا غير المنظورة استمرت تلعب دورها في موازنة التجارة ، مما جعل أرتريا عبئاً ليس بذى بال على اتيوبيا . فرغم أن المادة الرابعة من قانون انضمام ارتريا إلى اتيوبيا تنص على أن المكوس الجمركية المفروضة على البضائع الواردة برسم ارتريا تظل لها خاصة إلا أن تنفيذ هذا النص ليس سهلاً . لعدم وجود حاجز جمركى بين أرتريا واتيوبيا ، فبعض البضائع الواردة برسم أرتريا ترسل إلى إتيوبيا في حالة عدم استهلاكها محلياً . ولذا توصل الفريقان إلى اتفاق يجعل إتيوبيا تدفع لأرتريا مبلغاً سنوياً معيناً قدره ٨٩٠ ر ١٥٦ رايالا اتيوبيا نظير ما تستحقه أرتريا من رسوم جمركية .

وتقدر ميزانية أرتريا باحد عشر مليوناً ونصف المليون من الريالات الإتيوبية ، وتمثل الرسوم الجمركية ٤٠٪ من الإيرادات وضريبة الدخل ١٦٪ . وهي مازالت تبجي على النظام الإيطالي القديم .

ولعل أشد ما تعاني أرتريا في الوقت الحاضر ارتفاع تكاليف الاستيراد ، مما أدى إلى ارتفاع تكاليف المعيشة وارتفاع مستوى الأجور وخاصة في الريف ، ولكن يقابل ذلك فتح الأسواق الإتيوبية أمام الصناعات الأرترية . ولكن لا يتأثر معظم السكان من هذا الأمر مطلقاً ، لأنهم مازالوا يعتمدون على الزراعة ، واحتياجات المجتمع الزراعي مازالت قليلة لتأثرها إلى حد كبير بقلّة المساحة المزروعة نتيجة لقلة الماء ، وانخفاض المستوى الصحي . مما أدى إلى اعتمادهم على الحكومة الاتحادية في كثير من مصارفهم . ولذا مال معظم السكان إلى الاتحاد مع إتيوبيا . ولذا لم تحاول الحكومة الاتحادية شيئاً من الضغط على الشعب من أجل خلق جبهة تؤيدها لاسيما وأن مباشرتها للشئون الأرترية أبوى بحث غير مطبوع بطابع دكتاتوري . فمعظم أعمال ارتريا وخاصة في نواحي الصحة والتعليم بعيدة عن التدخل المباشر . وقد وجه بعض الأعضاء في المجلس التشريعي نقداً إلى الحكومه الإتيوبية بأنها استغلت ثروة أرتريا وانتهكت حقوقها بالتدخل في الشئون الداخلية لأرتريا ، فصرح ممثل الامبراطور أن ليس هناك من تدخل مطلقاً في الشئون الداخلية كما لانتوى الحكومة هذا التدخل مستقبلاً ، لأن مستقبل أرتريا موضع إهتمام حكومة إتيوبيا وجلالة الامبراطور .

ففي قطاع الزراعة وضع جلالة الامبراطور أساس خزان زولا ، الذي سوف يكفل الماء لمنطقة خصبة واسعة ، ولكنها الآن قاحلة بسبب قصور كمية المطر السنوى عن أن تنفي بالحاجة .

وعلى نطاق أصغر صمم خزان اركيكو ، ليكون ذا نفع لأهالى هذا الميناء القديم ذى الشهرة القديمة التى تعود إلى العصور الوسطى . فهو سوف يحمى هذه الميناء من غوائل الفيضانات التى تبتاح المنطقة من وقت لآخر ، كما تتيح لمنطقة واسعة أخرى ماءً وافراً .

وقد أدخلت زراعة القطن الذى أصبحت كميّاته الحالية تسد حاجة مصنع باراتول للنسيج ، ومناطق زراعته موجودة حالياً فى الجزء الساحلى المنخفض لحرارته . وإذا عرفنا أن المنسوجات القطنية تكون جانباً كبيراً من الواردات إلى أرتريا ، أمسكنا أن ندرك أى خدمة يؤديها إدخال زراعة القطن إلى هذه الجهات .

وقد وجه الإمبراطور كبير عنايته إلى الاستفادة من ميناء عصب فتعمل هناك شركة يوغوسلافية لبناء الأرصفة مما يؤدى إلى تسهيل دخول السفن . وكذلك إلى تشغيل عدد هائل من الأيدي العاملة فى الوقت الحاضر . كما افتتحت هناك مذامح وثلاجات ضخمة من أجل تسهيل توريد اللحوم الطازجة .

وفى أسمرة أنشئت — علاوة على الأرصفة والجارك والخاصز الجديدة بدلا من الايطالية القديمة المتداعية — كلية بحرية لأجل تخرج جيل يعمل فى السفن الإنيوية ، وفى شئون الملاحة الأخرى . كما افتتح بهـا عدد من المدارس الثانوية والأولية علاوة على عدد من الكنائس والمساجد والمستشفيات ، ومدرسة للتمريض ، وأخرى للتجارة وهذه الأخيرة أنشئت بمساعدة النقطة الرابعة الأمريكية .

وتعمل الحكومة على تشجيع الفلاحين على الاستقرار والزراعة بتوزيع البذور الصالحة ورصد الجوائز من أجل زيادة كميات المحصول وتحسين نوعه .

وقد أعطى قانون العمل الذى صدر فى سنة ١٩٥٨ للحكومة حق تحديد حد أدنى لأجور العمال . كما أرغم أصحاب الأعمال على التأمين على عمالهم ضد أخطار العمل . وعلى دفع التعويضات عند الاستغناء عنهم . كما وضع مشروع لمد انخط الحديدى من أجور دات إلى حدود السودان ، مما سوف يتيح فرصة جديدة لنمو اقتصاد أرتريا . ويعطى فرصة للحصولات السودانية فى المنطقة الشرقية للتصدير عن طريق مصوع .

الفصل الحادى عشر

تطور العلاقات بين مصر وإثيوبيا

تعود العلاقات بين مصر وإثيوبيا إلى أزمان قديمة بل موعلة في القدم .
قد روت لنا المدونات والنقوش أن التجار المصريين قد قصدوا إثيوبيا منذ أقدم
الأزمنة ليحصلوا على البخور واللبان من بلاد بونت التى يكاد يجمع المؤرخون
على أنها بلاد الصومال الحالية ولم تكن هذه الأجزاء تنتج البخور بل كانت
تحصل عليه من الهضبة التى خلفها ولم يكن سكان بونت أو الصومال سوى
وسطاء فيها .

وفى العصر اليونانى كانت موانئ إثيوبيا التى تطسل على البحر الأحمر
مراكز لجاليات مختلفة من العرب واليونان والمصريين ولوطنيين، تشتغل كلها
بالتجارة مع السفن اليونانية التى تمر بالبحر الأحمر، وكلنا يعرف إهتمام البطالمة
بالتجارة وعملهم على إنعاشها فلا بد أن إثيوبيا كانت إحدى الأسواق التى
قصدتها السفن المصرية وقد اثبتت المكتشفات الحديثة ذلك .

ودخلت الديانة المسيحية إلى إثيوبيا كما ذكرنا عن طريق تاجر مصرى كان يمر
بسفينته فى البحر الأحمر فتحطمت السفينة وحمل من نجا من ركابها إلى قصر الملك . مما
يقطع بوجود العلاقة بين مصر وإثيوبيا، وحملات عيزانا وكتابة أخبارها بثلاث
لغات هى السبائية والحبشية والأغريقية تعنى ولا شك إهتمام هذا الملك بإبصال
أخبار هذه الحملات إلى من يعرف إحدى هذه اللغات . وكانت مصر موطننا
من مواطن اللغة الإغريقية فى ذلك الوقت فلا بد إذن أن مصر طافت بذهن
الملك حين نقش نقوشه هذه وأراد من العالم أن يعرفها .

وأصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية، ولكن ذلك لم يعن انقطاع الصلة بينها وبين إتيوبيا، رغم ما فعلته هذه الدولة من نظرتها إلى الدول التي تخالفها في العقيدة إنها (دار حرب)، فمالك النوبة وكذلك إتيوبيا كانت دولاً حافظت على علاقتها بمصر رغم اختلاف الديانة بين حكومتها، ورغم أن هذا الاختلاف كان كافياً في ذلك الوقت لوجود توتر بينها .

وقد حفلت الأخبار المصرية خلال العصر الإسلامي بما يقطع بوجود هذه العلاقة، فقد حرص ولاة مصر خلال العصر العباسي على جلب أعداد كبيرة من السودان (أقصد سود البشرة) لتكوين الجيش المصرى بعد أن انصرفوا وانصرفت الدولة معهم عن تجهيز العنصر العربى . ولا بد أن الطريق بين مصر وإتيوبيا كان مطروقا بل كان مألوفاً لدى كثيرين من التجار المصريين حتى إذا وقع الحاكم بأمر الله الفاطمى الأذى والاضطهاد بالأقباط، هرب كثيرون منهم إلى إتيوبيا واستقروا هناك. بل استفاد منهم الملك لا ليبالا كما ذكرنا في تشييد مجموعة كبيرة من الكنائس كان معظمها مخفوراً في الصخر . ولم يكن يحيد هذا العمل — وهو حفر المقابر والهياكل في صخور الجبال — سوى العامل المصرى الذى ورث هذا الفن من قديم الزمن. بل نجد أن كل كنيسة اتيوبية بنيت في هذا العصر تبدأ بالأعمدة التى تسند المدخل الذى يقود إلى بهو، تقوم الأعمدة على جانبيه ثم إلى الحجرات الداخلية، وهو نفس النظام الذى ورثه المهندس المصرى في بناء الهياكل الفرعونية القديمة .

ونجد أثر هذه العلاقة الوثيقة بين البلدين في مظاهر شتى . فلقد كان المصريون حتى العصر الفاطمى شديدي العناية بالاحتفال بعيد الغطاس أكثر من أى عيد قبلى آخر . فقد وصف لنا المسعودى الذى زار مصر أيام الأخشيديين ليلة الغطاس فقال (لقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر، والأخشيدي محمد بن طعج قدأمر فأسرج في جانب الجزيرة وجانب القسطنطينية)

ألف مشعل ، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على الشطوط . يظهرون كل ما يمكن إظهاره من المأكول والمشرب والملابس، وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف وهي ليلة تكون بمصر أشملها سرورا، ولا تغلق بها الدروب . ويفطس أكثرهم في النيل ويزعمون أنهم بذلك في أمان من المرض) .

وقد ورث الإتيوبيون عنهم هذه العادة وما زالوا حتى الآن يحتفلون بهذا العيد أكثر من أى عيد مسيحي آخر، حين يخرج الإمبراطور في موكب رسمى حافل ينتظره الناس على جانبي الطريق بالزغاريد ، وقد لبسوا أحسن ملابسهم حتى يصل إلى مكان خارج العاصمة ، حيث يكون المطران قد سبقه في موكب لا يقل عن موكب الإمبراطور مهابة وأبهة . وهناك يبارك المطران والقسس الإمبراطور بنثر الماء المقدس عليه . حتى إذا انتهت مراسم الاحتفال الرسمي، عاد المطران والإمبراطور إلى قصريهما . وبقي القسس يغنون ويرقصون . ويكون قسس البلاد المجاورة قد قدموا من كنائسهم يحملون توابيت العهد التي تقام على المذابح، ملفوفة في لفائف من القטיפ المذهبة يحيط بها الشماسة في ملابسهم المزركشة، يرتلون وينشدون حتى إذا بوركتم بما نثره المطران من الماء المقدس حملوها ثمانية عائدين إلى قراهم مهللين مترنمين بأغانهم الكنسية، وخرج صبيان القرية يستقبلونها فيطوفون طرقات مدينتهم حاملين الورود والأزهار يهدونها إلى أهلهم وذوى قرابتهم .

وظلت هذه العلاقة الوثيقة خلال العصر المملوكى أيضاً وكان يتحكم فيها أربعة عوامل :

١ — عامل ديني وهو بنوة الكنيسة الإتيوبية للكنيسة المصرية وضرورة

تعيين المطران المصرى للكنيسة الإثيوبية، ورعاية الكنيسة المصرية للكنيسة الإثيوبية وتسهيل السفر للحجاج الإثيوبيين إلى بيت المقدس .

٢ — عامل حيوى: وهو وجود منابع النيل بإثيوبيا وقد تصور سكان مصر آنذاك أن إثيوبيا تستطيع التحكم فى هذا المورد وتحويله عنهم ، وتصوروا أن الفيضان المنخفض ليس إلا نتيجة محاولة الامبراطور تحويل مجرى النيل .

٣ — عامل تجارى : فقد كانت إثيوبيا مقصداً لكثير من التجار المصريين، يجلبون منها الكثير من الرقيق الذى حفلت به بيوت كثير من المصريين فى ذلك الوقت، علاوة على الذهب والجلود والعطور وسن القيل وريش النعام.

٤ — عامل أخوى : فقد كان مسيحيو مصر ينظرون إلى الاتيوبيين نظرتهم إلى أخوان لهم فى الدين، يستطيعون أن يجأروا إليهم بالشكوى إذا مسهم ظلم، وأن إمبراطور إثيوبيا بماله من القوة والمنعة ، يستطيع أن يتدخل لوقف هذا التيار، كما كان يسكن اثيوبيا كثير من المسلمين الذين نظروا أيضاً إلى مسلمى مصر كإخوان لهم فى الدين أيضاً، يستطيعون أن يجأروا لهم بالشكوى كذلك إذا ما تعرضوا لشيء من التضييق أو الاعنات . كما يستطيع سلطان مصر القوى بجيوشه وأسطوله أن يتدخل لنصرتهم وشد أزهم .

ولذا كان تبادل الرسائل بين كل من امبراطور إثيوبيا وسلطان مصر أمراً شائعاً مألوفاً ، حتى ليحفظ لنا ديوان الانشاء فى القاهرة صيغة خاصة لما كان يرسله السلطان من رسائل . فلا بد أن تبدأ الرسالة إليه بما جاء فى الجزء الثامن من صبح الأعشى وهو (أطل الله بقاء الحضرة العلية . الملك الجليل . الهمام الضرغام . الأسد الفضنفر . الخطير الباسل . المسميدع العالم فى ملته . العادل فى مملكته . النصف لرعيته . المستمع لما يجب فى أقضيته . عز الملة النصرانية . ناصر الملة المسيحية . ركن الأمة العيسوية . عماد بنى المعمودية . حافظ البلاد

الجنوبية . متبع الحواريين والأخبار . الربانيين والبطارقة القديسين . منظم كنيسة صهيون . أوحد ملوك اليعقوبية . صديق الملوك والسلطين . (ثم يدعى له بدعاء يليق به نحو أظهِرَ اللهُ فضلَهُ على من يدانيه) من كل ملك هو بالتاج معتصب ولكف اللجاج بالعدل منتصب ، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصر . أو للحق مغتصب . صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية . ومن حضرة القدس مسراها . ومن أسرة الملك القديم مسراها . وعلى صفاء تلك السريرة الصافية ترد وإن لم يكن لها غليل . وإلى ذلك الصديق الصدوق المسيحي تصل . وإن لم تكن بعثت الأمن تلقاء الخليل) .

ولا بد أيضاً أن ينتهى الخطاب بالتوقيع وهذا مثل له .

(أطل الله بقاء الملك الجليل . المكرم الخطير . الأسد الضرغام . الهام الباسل فلان بن فلان . العالم في ملته حضرة ملك أحمر أكبر ملوك الحبشان نجاشى عصره . سند الملة المسيحية . عضد دين النصرانية . عماد بنى العمودية صديق الملوك والسلطين) .

وأن الكتب التى تبادلها ملوك إتيوبيا مع سلاطين الدولة لتبين بجلاء أحد هذه الأغراض التى ذكرناها . فى شهر محرم سنة ٧٢٦ هـ وصل إلى السلطان محمد بن قلاون خطاب من الامبراطور عمدا صيون يطلب فيه تعمير الكنائس التى خربها المسلمون ، ومعاملة المسيحيين معاملة أكثر رعاية ، وهدده فى حالة الرفض بتخريب جميع المساجد التى توجد فى مملكته وبتحويل مجرى النيل الأسرى الذى سوف يؤدى الى خراب مصر خراباً كلياً .

أما الكتاب الذى أرسله الامبراطور داود إلى السلطان برقوق فقد حوى جميع هذه الأغراض مجتمعة فهو :

١ — يعلن إليه نبأ اعتلائه العرش الاثيوبى .

« نعلمكم يعد تجديد السلام عليكم أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيته وأحكامه الغير مدروكة، جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة، واتفاق سائر الملوك والأمراء ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطة العظيمة النجاشية، فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود الملك لسليمان ابنه عليهما السلام » .

٢ — ينهى اليه ما يفعله لصالح رعاياه من مسلمين ومسيحيين .

(ثم نظرنا إلى أمراء الرعية وأمرنا بإطلاق الحائيس والمأسورين وفتحنا أبواب السبيل للتجار والمسافرين . وأمعنا النظر في مصالح بلادكم، وفي الوصية بأولادكم التجار والكارمية^(١) وغيرهم في البر والبحر، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية كما سبقت به اليهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم، وخاصة من الملك الشهيد الأكل عمداصيون جدى وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون من المحبة والاتفاق) .

(وهؤلاء القوم (يقصد المسلمون) هم مقيمون ببلادنا راضون غير مكرهين . وكانوا فقراء وصاروا تجاراً يتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية . ولا حق ولا مكس يطالبون به ، بل هم أكثر عن أهل البلاد يكرمون . ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا فلا نمنعه من ذلك ، أما الإكراه على الدخول في ديننا فهذا غير واجب في كتبنا ، وإن اتفق شيء من ذلك فيكون منهم بالرضا وبالرغبة الشافية . أما إحساننا لجماعة المسلمين في كل وقت وحين، فهذا ظاهر للعارفين) .

٣ — يطالب بحسن معاملة المسيحيين في مصر :

« وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى في أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد أنذى أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار المصرية لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريك وإخوتنا النصارى . والأكابر والمشايع الذين فيها » .

(١) لم يعرف حتى الآن من هم المقصودون بكلمة الكارمية .

« وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أيينا البطريك وأخوتنا النصارى في الديار المصرية ، بما حوته الأقاليم الإسلامية وإجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التي أخذتموها . وجعلتموها مساجد ، وهذا بخلاف ما أمر به صاحب شريعتكم من حفظ الذمة . فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظ كنائسهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلاً كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألناكم فيه . »

٤ — يهدد بتحويل مجرى النيل وسوء معاملة المسلمين في إثيوبيا :

« ومهما فعلتموه مع أيينا البطريك وأخوتنا النصارى من الخير والشر ، فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين الذين في حوزتنا وفي سلطانتنا ، وأنتم مطالبون بما يأتيهم . »

« فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع أخوتنا النصارى ، فنحن نوصى بالمسلمين الذين تحت سلطانتنا والصادرين والواردين من عندكم والتي — والعياذ بالله تعالى — حصل لأيينا البطريك وأخوتنا النصارى جوراً من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر لنا لسائر الأقاليم الإسلامية الذين تحت سلطانتنا ، وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى أقاليم أخرى كما أعلمناكم في أعلى كتابنا ، ومهما يحل بكم يكون الذى كان السبب فيه مطالباً بدمائهم . »

٥ — يطالب برعاية الحجاج الإثيوبيين الذين يقصدون بيت المقدس .

« وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به ، وجماعة من رسلنا أيضاً ، فخاصهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد الغالبة ليعطوهم مسلين وهذا

غير واجب في الشريعة ولا جرت به عادة في زمن المسلمين السالفين .

ونلاحظ في هذا الخطاب أيضاً أن الإمبراطور كان كثير الإشادة بالعلاقات الطيبة، التي ربطت مصر وإثيوبيا أمام الملك عمداصيون والملك الناصر محمد بن قلاون، مما يجعلنا تؤكد أن هذه الأيام كانت مثلاً أعلى يتطلع ملوك إثيوبيا أجمعون إلى أن تكون علاقتهم بمصر على نحو ما كانت أيام هذين الملكين .

ولم يفت الإمبراطور داود أن يرسل مع خطابه هذا هدية كانت مضرب المثل في الكثرة، حملها عشرون جملاً وكانت قدوراً من الذهب مملوءة بمحبوب صغيرة تشبه الحمص من الذهب الخالص يبلغ كيلها وية كاملة، ومائة وخمسين طبقاً من الذهب الخالص، وعشرون سقرفاً وتسع وعشرون سكرجاً ومغزل . وعشرون لجاماً، وأربعون قلادة ومائة قدر صغير ومعهما أغطيتهما وخمسون صينية كلها من الذهب، عدا مغزلين وثلاثمائة سكرج وصينية أخرى من الفضة وقد بلغ وزن الأواني الذهبية وحدها تسعا وعشرين ألفاً ومائتي مثقال .

وقد قوبلت هذه الهدية كما قوبل الوفد والخطاب أحسن قبول . وأجاب بقبول كل ما طلبه الإمبراطور، وكتب إلى البطريك برد جميع ما أخذه من أديرتهم وكفائتهم وأموالهم، ثم جهز هدية مما خف حمله وغلا ثمنه وأرسلها إلى اثيوبيا رداً للهدية السابقة .

وكانت الوفود تأتي من إثيوبيا سواء لطلب المطران أو لحمل خطابات الود، فنستقبل بما يليق برسلها من التبجيل والاحترام . فقد ذكر ابن إلياس في حوادث سنة ٨٢٢ هـ أنه وصل إلى بلاط السلطان رسول من ملك (الحبشة) فاستقبله السلطان جالساً على منصة في أرض الرماية محاطاً بالأمرء عن يمينه ويساره كل حسب رتبته، ووصل الرسول ومعه الأمير زديمور والمهندار وعدد كبير من المماليك

وكان يتبعه خمسة من أمراء (الأحباش) وكان على رأسه عصا حراء من الحرير موشاة بالذهب والأحجار الكريمة وفي وسطها لؤلؤة كبيرة غالية الثمن، وعلى كتفيه عباءة من الحرير الأحمر، ومن تبعه كان يلبس نفس الملابس ورءوسهم معصوبة بمناديل حريرية كبيرة، وتتكون الحاشية من خمسمائة كلهم ممنطقون بالأحزمة الشبيهة بتلك التي يلبسها المسيحيون في مصر، وأثناء سيرهم كان الطبل المحمل على جملين يقرع، وصحب هذا اللوكب البطريرك حتى إذا صعدوا أرادوا الجلوس على كراسي صغيرة من الحديد أحضروها معهم، ولكن الأمراء نهوهم عن ذلك وأفهموهم أن الجلوس ممنوع في حضرة السلطان، ثم تقدم السفير وقبل الأرض مرة ثم أخرى عند مبدأ السجادة وفعل الأمراء التابعون مثل ما فعل وقدموا الخطاب الذي يحملونه .

وقد أمر السلطان بإكرامهم، وإنزالهم منزل الضيافة الذي يقع بجوار السرادق عند جسر الأسود، وأمر بالقيام بخدمتهم وحراستهم بشرذمة من المالك، أمرهم أن يمنعوا الناس من الدخول إليهم أو الاقتراب منهم وبعد ثلاثة أيام رحل الوفد إلى القدس لزيارة كنيسة القيامة .

وقد حاول الإمبراطور زره يعقوب كذلك أن يديم علاقات الصفاء والود بين الدولتين رغبة منه في جنى ثماره من التعاون الاقتصادي فبادر في سنة ١٤٤٣ (٨٤٧ هـ) بإرسال هدية إلى السلطان جقمق (٨٣٨ — ٨٥٨) وصلت إلى مصر في الثامن والعشرين من رجب مع رسولين أحدهما مسيحي والآخر مسلم، وكانت سبعين جارية وطستا وأبريقاً من ذهب وسيفاً مسقطاً بذهب ومهمازا ومعهما خطاب .

١ — يشيد فيه بمدح السلطان وعذله وحسن إدارته .

(وقد اتصل إلينا جميع أخباركم أنكم — حفظكم الله تعالى — قد أمرتم

بإبطال المظالم من سائر المعالم، وردعتم القوم الظالمين، ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم، وعفوتهم عن من له حرمة، وأبعدتم آثار المفسدين ورحمتم ذوى الفاقة من الفقراء والمساكين) .

٢ — ويشيد بما كان يربط إتيوبيا ومصر من علاقات الود المتبادل .

(وقصدنا تجديد ما سبق من العهد من ملوك المتقدمين من بلادكم إتباعاً لأثارهم المشكورة، وقصدنا إعلامكم بشارة لكم ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف، والاتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف، وآخر ذلك ما كان من أيام الشهيد برقوق ونجمله الناصر سقى الله عهدهما صيب الرحمة وأيام والدنا وجدنا من المحبة والاتفاق، على ما ظهرت به الصحائف من أخبارهم الحميدة وسيرهم المرضية).

٣ — ويوصى خيراً بمسيحي مصر ويطلب حسن معاملتهم .

« وأنتم -- حفظكم الله -- عارفون بما يلزم الراعى من النظر فى حال رعيته وأن الله يطالبه بذلك، وأنونا البطريك وأخوتنا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتم الشريفة، نفر قليل جداً ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا، وأنتم تأمرون بالقداء أن لا يقول أحد للنصرانى يا كلب

٤ — يبدى ما يعمل من خير لىلى إتيوبيا .

(وليس يخفى عليكم فى بلادنا الواسعة من المسنين تحت حكمنا ومن لكم وملوكهم مالكون، ولم نزل نحسن اليهم فى كل وقت وحين، ومن تقدم من آبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين، ولأنفسهم ومالهم حافظين سامعين لأقوالهم رادعين من يتعرض إليهم. ونحن على ما كان عليه آبائنا سالكين، فى طريقهم، غير معترضين لإقامة مساجدهم، ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مراسمهم. وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب. راكبين الخيول المسومة. وعامتهم فى أسبابهم آمنون

مطمئنون على أنفسهم وأولادهم وأموالهم . راكبون البغال في أحسن الأحوال . ولا تأخذ منهم جزية ولا شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً . ولا تشوش عليهم أصلاً ، ولو أخذنا منهم جزية وكان كل واحد يزن درهما لكان يجتمع لنا من الأموال ما لا يحصى ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوا التجار والمتردين إلى بلادنا ليخبروكم بذلك بالحق والصدق ، ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رمي الفتن التي هي أشد من القتل عند العارفين) .

٥ — ويهدد بتغيير مجرى النيل .

(وليس يخـ عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا . ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التي تروى بها بلادكم عن المشي إليكم ، لأن لنا بلاداً نفتتح لها أماكن فوقانية ينصرف منها الماء إلى أماكن أخرى قبل أن يجرى إليكم ، ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله .

٦ — ويطلب السماح لللاتيويين بتعمير الأوقاف التابعة لهم بالقدس .

(وقد بلغنا أن دير الفطس هدم وهو من أيام الملوك السالفة ومن إحسانكم بروز أمركم الشريف بعمارة ذلك ونحن مقيمون على العهد القديم) .

(وبلغنا من الحبوش القاطنين بالقدس الشريف قصدوا عمارة بالأرض لميت مدفون فيه ، ومنعهم عن عمارته نائب السلطنة هناك والقصد من عظمة سلطانكم بروز أمركم لنائب القدس . أن يرسم للحبوش بعمارة ذلك) .

ووثائقنا عن العصر الثاني قليلة ولكننا نعرف أن الأتراك قد احتلوا شواطئ إتيوبيا ومنعوا عنها الاتصال بالخارج ، بل اسهم أيديوا الامام أحمد في حركته ، وإن الإمبراطور فاسيلاداس حاول أن يفك هذا الحصار التركي عن بلاده حين اتصل باليمن ، إلا أن هذه المحاولة فشلت ، ولذا نستطيع أن نقول أن علاقة مصر بإتيوبيا خلال العصر العثماني كان يغلب عليها الركود وإن لم تقع حالة من العداء

الصريح . وقد كانت هناك أوقات يحاول فيها الإتيوبيون التفاهم مع الأتراك حين كان هناك عدو مشترك يحاولان معاً التغلب عليه . كما كان الحال أيام البرتغاليين أو اليسوعيين، ومحـاولتهم الدخول إلى إتيوبيا فتعاون الأتراك والاتيوبيون على سحق هذه المحاولات . إلا أننا نعلم في نفس الوقت أن سلطة الأتراك في البحر الأحمر لم تلبث أن ضعفت حتى صارت إسمية . وأن هذا الضعف أدى إلى هدوء العلاقات مع مصر . وساءت العلاقات في القرن التاسع عشر نتيجة لفتح محمد علي للسودان . وأصبحت الأملاك السودانية متاخمة لإتيوبيا . ففي أيام سعيد أ كثر القبائل الإتيوبية من الأغارة على الحدود السودانية — وهي حدود غير واضحة — كما كانت القبائل السودانية النافرة من الحكم المصري بسبب خضوعها لنظام لم تألفه بترك السودان إلى إتيوبيا حيث تستقر أو حيث تعيش على نهب بعض القرى . فكان هذا سبباً في تفكير سعيد في غزو إتيوبيا .

إلا أن تركيا كانت تتردد في أمر هذه الحملة بل نصحت سعيد أن يلجأ إلى الطرق السلمية، فكان أن أرسلت مصر الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط إلى هناك فنجحت سفارته، وانقشعت الغيوم وتبادل العاهلان الرسائل والهدايا . إلا أن الجو لم يلبث أن تعكر مرة أخرى أيام اسماعيل، حين قام بحملاته الفاشلة على الحدود الشمالية لإتيوبيا ثم حملته الناجحة على هرر .

وفي أيام منليك الثاني حين أخذ هذا العاهل في ادخال المدنية الأوروبية إلى بلاده وبدأ في فتح المدارس على النظام الحديث استعان بمصر فأرسلت له البطيركية في سنة ١٩٠٧ بعثة من ستة من الأساتذة افتتحوا المدرسة الأولى في إتيوبيا على النظام الحديث هي مدرسة منليك الثاني . كما كانت صداقة الإمبراطور العطران المصري الأبأ متاوس سيباً في تحسن العلاقات إلى حد كبير . ولذا ظلت مدرسة منليك حتى سنة ١٩٣٦ تعمل تحت إرشاد ناظر مصري وأساتذة من المصريين تخرج على أيديهم كثيرون من الإتيوبيين الذين احتلوا بعض ذلك

بعض المراكز الهامة وإذا كانت البطيركية هي التي كانت تقوم أولاً بإرسال الأساتذة إلى هذه المدرسة، إلا أن وزارة التربية والتعليم هي التي أخذت على عاتقها هذه المهمة بعد ذلك كما هاجر إليها بعض التجار المصريين الذين عملوا في حقل الإقتصاد الإتيوبي

وإذا ما عادت إتيوبيا المستقلة إلى عالم الوجود بعد الاحتلال الإتيوبي عادت العلاقات إلى مكانتها السابقة وسافرت بعثة مصرية من الأساتذة ليعملوا في أكثر من مدرسة كما عمل رئيس هذه البعثة وهو الدكتور مراد كامل استاذ الدراسات السامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة مستشاراً لوزارة التربية. وقدم إلى مصر كثيرون من الطلبة يطلبون العلم في مدارسها. واتجه إلى إتيوبيا كثير من المصريين الذين عملوا في الحقول المختلفة من النشاط الإتيوبي .

و رعان ما اشتد التقارب بين سياستي الدولتين أثر قيام الجمهورية العربية المتحدة، حيث اختطت الدولتان سياسة أفريقية متقاربة من شأنها خلق وعى افريقي يجعل الاهتمام بالشؤون الإفريقية من اختصاص الإفريقيين وحدهم، كما وقفت الدولتان من الشعوب الإفريقية الراغبة في التحرر من سلطة الاستعمار موقف التشجيع .

وهكذا وقفت الدولتان — كما اعتادت دائماً — جنباً إلى جنب في تأييد السلام العالمي وتأييد الدول الإفريقية وتعاونها .

ملاحق

- ١ — نقش دتمبرجر
- ٢ — نقش الملك عيزانا قبل أن يصبح مسيحياً
- ٣ — نقش الملك عيزانا بعد أن أصبح مسيحياً
- ٤ — خطاب الملك يكونو أملاك الى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى يسأله الموافقة على أن يعين بطريك الإسكندرية مطراناً مصرياً لإتيوبيا
- ٥ — خطاب الامبراطور يجيياصيون إلى السلطان قلاوون وخطابه الى الأبأ يونس الثامن بطريك الاسكندرية
- ٦ — خطاب البابا بطرس الجاولى الى امبراطور إتيوبيا
- ٧ — خطاب البابا بطرس الجاولى إلى الأبأ سلامة الثالث
- ٨ — خطاب الامبراطور منليك الثانى إلى البابا كيرلس الخامس
- ٩ — تقرير الأبأ كيرلس مطران إتيوبيا إلى البطريك يونس التاسع عشر
- ١٠ — نص الاتفاق بين الكنيستين المصرية والإتيوبية بشأن رفع درجة مطران إتيوبيا الى بطريك جاثليق
- ١١ — أسماء ملوك الأسرة الأجيوية كما يذكرهم كبرانجست
- ١٢ — ملوك القرنين الرابع والخامس الميلادى كما يذكرهم كبرانجست .

(١) نقش ديتمبرجر

عثر عليه في أكسوم وهو لملك لم يعرف اسمه عاش في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي عن غزواته في الهضبة الحبشية شمالاً حتى حدود مصر وكذلك في اليمن (أراييتس) .

« قد تملك الشعوب التي تعيش بالقرب مني لأحافظ على السلم فقد غزت شعوب الجعر Gueze وهجامي Agames وزيجابيني Ziggabene وعجاني Aggabe وتياما Tiama وأثاجاوي Athagaow وكالا Kalae وكذلك شعب سمن Semin واقسمت معهم أملاً لهم وعبرت النيل وغزت الشعوب التي تسكن الناحية الأخرى والتي يتحصن أهلها في الجبال الوعرة المغطاة بالثلوج التي يغوص فيها الإنسان حتى ركبتيه . كما تسلطت على جميع الشعوب التي تجاورهم حيث الينابيع الساخنة المتدفقة حتى وصلت إلى شعب البجة Beja والشعوب الأخرى المناصرة له والتي تسكن بالقرب من حدود مصر حتى وصلت إلى حدود مصر وهناك أسرت جميع رجال هذه القبائل ونساءهم وأولادهم وبناتهم كما استوليت على جميع ممتلكاتهم . ومن بقي منهم رضى بالخضوع كما رضى بدفع الجزية وقدم لى ولاءه وخضوعه . كما أرسلت حملة بحرية إلى الشاطئ الآخر من البحر الأحمر حيث يسكن شعب أراييتس Arabites وقوضت روشهم هناك وأرغمت ملوكهم على دفع الجزية عن أرضهم وقد حاربهم ابتداء من بلاد لوكي كومي Leuke Kome حتى أراضي السبأين Sabaens وقد ساعدني الإله العظيم القوى لأخضع لسطوتي جميع الشعوب التي تجاورني إلى الشرق إلى أقصى ما تمتد الأرض . ومن الغرب إلى أقصى ما يراه الإنسان . وقد تغلبت على بعضهم بنفسى وعلى الآخرين بواسطة الجيوش البحرية التي أرسلتها لهم . وأخيراً عدت إلى عدول حيث قدمت قرايين الشكر إلى زيوس وآرس وبوسيدون . وكان ذلك في السنة السابعة والعشرين من حكمي ^(١) .

(٢) أحد نقوش الملك عيزانا وهو لا يزال وثنيا :

- ١ - عيزانا ملك أكسوم و
- ٢ - حمير وريدان و
- ٣ - إتيوبيا وسبأ وصالحين
- ٤ - وسيامو وبيجا و
- ٥ - كاسو ملك الملوك وابن
- ٦ - الإله غير المقهور آرس ولما
- ٧ - ثار أهل البجا
- ٨ - أرسلنا لهم
- ٩ - أخويننا شاعيزانا وهاديننا
- ١٠ - ليحارباهم ويقهرهم
- ١١ - فقم لهما ذلك
- ١٢ - وأحضراهم إلينا مع أتباعهم
- ١٣ - و ٣١١٢ من ماشيتهم
- ١٤ - و ٦٢٢٤ من أغنامهم
- ١٥ - وأعطيناهم ماشية
- ١٦ - وحنطة ليأكلوا وخررا
- ١٧ - وماء ليشربوا
- ١٨ - بكية كافية لهم
- ١٩ - وهم ستة ملوك من أتباعهم ٤٢٠٠
- ٢٠ - فكانوا يأخذون كل يوم
- ٢١ - ٢٢ ألف رغيف وخررا
- ٢٢ - لآثني عشر شهرا
- ٢٣ - كما أعطينا جميع أنواع الطعام
- ٢٤ - كما أعطينا ما يلزم لرحلتهم
- ٢٥ - واستقروا في أرض تابعة
- ٢٦ - لنا تسمى ماتليا وأمرنا
- ٢٧ - أن يعطى لهم الغذاء
- ٢٨ - ومنحنا ملوكهم الستة ٢٥١٤٠ رأساً
- ٢٩ - ليشعروا بمجمل خالقنا الذي لا يقهر آرس
- ٣٠ - فأقننا له تمثالا من ذهب و
- ٣١ - وآخر من فضة وثلاثة من نحاس .

(٣) أحد نقوش الملك غيرانا بعد أن اعتنق المسيحية :

- ١ - بقوة إله السماء الذى هو فى السماء . وأقوى من أى شيء فى الوجود .
- ٢ - غيرانا بن الاعميدا من مملكة هالن . ملك اكسوم .
- ٣ - وحير وريدان . وسبأ وصالحين . وسيامو وييجا .
- ٤ - وكاسو ملك الملوك ابن الاعميدا غير المنظور للأعداء .
- ٥ - بقوة إله السماء الذى أقامنى ملكا .

نقش الملك غيرانا بعد أن تنصر :

- ١ - بقوة إله السماء الذى هو فى السماء وأقوى من أى شيء فى الوجود .
- ٢ - غيرانا بن الاعميدا من مملكة هالن . ملك اكسوم .
- ٣ - وحير وريدان وسبأ وصالحين وسيامو وييجا .
- ٤ - وكاسو ملك الملوك ابن الاعميدا الذى لا يغلبه الأعداء .
- ٥ - بقوة إله السماء الذى جعلنى ملكا .
- ٦ - ولم يستطع عدو أن يتقدمه ولا أن يقف أمامه .
- ٧ - كما لن يتبعه عدو . بقوة إله الكل . أعلنت الحرب على النوبة لأن شعب النوبة ثاروا .
- ٨ - وجعلوا يفخرون بذلك . وقالوا أنهم (الاتيوبين) لن يعبروا نهر تكاز (إلهم) .
- ٩ - أهل النوبة اتخذوا عادة مهاجمة الناس فى مانجورتو وكسا وباريا . . . والسود .
- ١٠ - جعلوا يشنون الحرب على الحر ومرتين وثلاث مرات حنثوا بإيمانهم .

١١ - وقتلوا جيرانهم دون رحمة . وسلبوا أملاكاً وجردوا مندوبينا
ورسلنا الذين

١٢ - أرسلتهم ليتحروا عن هذه السرقة وسلبوهم

١٣ - حراهم التي يدافعون بها . ولما كنت قد حذرتهم ولم يلتفتوا بل رفضوا
أن يوقفوا أعمالهم الشريرة بل زادوا وأغرقوني بشروهم

١٤ - وركنوا إلى الفرار فخارتهم ونشطت إلى ذلك بقوة إله

١٥ - الأرض (الله) وحاربهم عند تكاز عند خليج كيالكى فهربوا ولم

١٦ - يبقوا فتبعتهم ثلاثة وعشرين يوماً

١٧ - وقتلت بعضاً وأسرت بعضاً وقبضت عليهم أينما ذهب

١٨ - وأعدت إلى أرضى من فر من شعبي وأحرق مدينتهم (سواء) .

١٩ - ما كانت مبنية بالأجر أو من الأعشاب . وحمل جنودى طعامهم وأوانيهم

النحاسية والحديدية

٢٠ - ونحاسهم كما ضربوا تائبيل (صور) بيوتهم (معابدهم) وما اختزنوه

من طعامهم وأشجار القطن

٢١ - وألقيت بهم في النهر (سيرا) فمات كثيرون منهم غرقى في الماء

٢٢ - وعددهم لم يكن معروفاً لى . وأغرق (جندى) قواربهم في النهر بما

تحملة من ناس

٢٣ - من رجال ونساء . وقبضت على الزعيمين (منهم) اللذين

٢٤ - كانا قد كجاسوسين راكبين ناقتين ويدعيان

٢٥ - يزاكا ويونالى وقبضت على الشريف انجـاب قناوى . وقد

مات الزعماء

٢٦ - دانكو ورجالى . اناكو وهوارى وهاركارى وسيدم (كاهنهم)

٢٧ - وكان الجند قد جرحوه ونزعوا عنه قميصه (كمدوا
وصندوقه الذهبي

٢٨ - والزعماء الذين ماتوا كانوا خمسة وكاهنًا . وجئت إلى كاهن
معركة وأسرت من شعبيها عند

٢٩ - التقاء النهرين سيرا وتكاز وبعد ذلك بيوم وصلت وبعثت
٣٠ - من اجتاحت البلاد جيش ماحاز وجيش حارا . .
وفالي . وصيرا

٣١ - وعند أعلى نهر سيرا حيث المدن مبنية من الأجر
وأسماء المدن

٣٢ - المبنية من الأجر علوة ودارو وهناك قتلوا وقبضوا على الأسرى
الناس في

٣٣ - الماء وعادوا سالمين . وقد بعثوا الرعب في قلوب أعدائهم
بقوة إله

٣٥ - الأرض وبعد ذلك أرسلت جيش هالن وجيش لاكن و
٣٥ - جيش سابارات وفالجا . وصيرا وأمام سيرا مدن النوبة المبنية
٣٦ - من الأعشاب وهي أربعة نحوس والمدن المبنية من الأجر التي
عليها النوبة هي تايينو

٣٧ - فرتوتى . ووصل شعبي إلى حدود النوبة الحمراء وعادوا سالمين
٣٨ - أن قبضوا على الأسرى وذبحوا النوبيين وحصلوا على
بقوة إله

٣٩ - السماء وزرعت (اقامت) عرشاً هناك حيث يلتقي نهر سيرا

٣١- وتكاز أمام المدينة التي بيوتها من الأجر في الجزيرة والأشياء التي أعطيتها

٤١- إلى السماء هي من الرجال الأسرى ٢١٤ ومن النساء السبايا ٤١٥ ومجموعهم ٦٢٩

٤٢- وذبح من الرجال ٦٠٢ ومن النساء والأطفال ١٥٦ ومجموعهم ٧٠٠

٤٣- ٥٨ مجموع الأسرى والمذبوحين ١٣٨٧ وغنموا من الماشية من الماشية ١٠٥٠٠ و

٤٤- ٦٠ ومن الغنم ٥١٠٥٠ وزرعت (أقت) عرشاً في شادو بقوة

٤٥- إله السماء الذي منحني العون والسلطة .

٤٦- عسى أن يقوى الله مملكتي وكما مكنتني من أعدائي في هذا اليوم

٤٧- ينصرني الله أينما أذهب وكما وهبني النصر في هذا اليوم وطرح أمانى

٤٨- أعدائي (سأحكم) الناس بالحق والعدل . ولن أظلمهم عسى أن يظلموا آمنين .

٤٩- عرشه الذي زرعته (أقنته) لإله السماء الذي جعلني ملكاً و

٥٠- الأرض التي حملته وإذا تجرأ أحد وحطمه أو رفعه أو ألقى به فهو

٥١- وشعبه سوف يكسحون ، ويزالون من الأرض . ويطرحون خارجاً وقد زرعت (أقت)

٥٢- هذا العرش بقوة إله السماء

(٣)

خطاب الإمبراطور يكونوا املاك إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى
يسأله الموافقة على أن يعين بطريك الإسكندرية مطراناً مصرياً لإتيوبيا

أقل الماليك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله
ملكه أن رسولا وصل إلى من وإلى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن
ما جاءنا مطران مولانا السلطان . ونحن عبيده . فيرسم مولانا السلطان
للبطريك أن يجهز لنا مطراناً يكون رجلاً جيداً عالماً لا يجنى ذهباً ولا فضة
ويرسله إلى مدينة عوان . وأقل الماليك يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب
الملك ما يلزمه وهو يسيره إلى مولانا السلطان . إلا أننى كنت فى سكار ،
والملك داود قد توفى وقد ملك موضعه ولده . وعندى فى عسكرى مائة ألف
فارس مسلم . أما النصارى فكثير لا يحصون . والكل غلمانى وتحت
أمرى . والمطران الكبير يدعوك . والخلق كلهم يقولون آمين . وكل
من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل الماليك ونحفظهم ونسفرهم
كما يحبون ويختارون . وأما الرسول الذى سفروه فهو مريض وبلادنا
وخمة أى من مرض فيها لا يقدر أحد أن يدخل إليه أن من شم رائحته
فيمرض ويموت . ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين . فسيروا
مطراناً يحفظهم .

(٤)

خطاب الإمبراطور يجيبا صيون إلى السلطان قلاوون :

فى شهر رمضان سنة تسع وثمانين وسمائة ورد رسول من جهة
الحبشة يحمل خطابا ترجمته :

المملوك الحب سليمان ملك الحبشة يكتباب صهيون (يجيبا صيون) مضمونه
أنه سير صحبة يوسف بن عبد الرحمن شريفى حربة مذهبة مشعل ويسأل فى
إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التى فيها النصارى والمسلمين . وقال : إنه
ما هو مثل والده ، وإننى أحفظ المسلمين فى جميع مملكى ، ومولانا يحفظ
النصارى فى بلاده، حتى نصير مشورة واحدة ويداً واحدة وتتواصل الرسل من
الجهتين . والذى جرت العادة به عند إنفاذ المطران ، من الخدام والجوارى
والذهب والأسد يصل مع رسولى . وكان يطلب يسير ذلك صحبة رسوله
يوسف ، لكن تأخر لأجل المطران الصريان الذى أتلف البلاد فى زمان والدى
- هو من أعداء المسلمين - وأشتهى أن تحضر المطلوب صحبة رسول السلطان
وصحبة رسولى ، وأنا أنتظر جواب السلطان بما يصالح المسلمين والنصارى
حتى تنصلح بلاد الحبشة ولا يقول السلطان ما وصلتني العوايد التى جرت العادة
بها عند طلب المطران ، فإذا وصل صحبة رسول السلطان ورسلى وعملت
ما يشتهييه السلطان ويوصى على البطريك .

(٥)

أما خطاب الإمبراطور إلى البطريك فهذا مضمونه :

أتوسل للبطريك - بطريك الإسكندرية - أبو يحنس ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص وأنذريانون يكون عليك . اسمع كلامى ، واقض حاجتى ، وابعث لى مطراناً أسقف جيد صالح يعلمنى كل شىء جيد ويكون مثل ما ضرب داود عليه السلم (السلام) المثل فى الزبور فى شأننا وقال خلوا رجالاً جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد وقال فى وصيته : لا تخلى يا بنى خروفك يأكله الذئب وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم ، ولأجل محبتنا فى بطريكية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردهناهم . وما كانوا تقدموا عندنا إلا بالدنا ، لأنه ما كان عنده أحد من جهتك والساعة لا تخرب مدينتك ، وتسير . إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح واذكر مرقص لا تخلىنا بخطيئتنا وإن كنت وحدك تسير إلينا مطراناً فسيره . وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان . وبعد هذا مهما اشتبهت نسيره إليك ولا تخلى هؤلاء السريان فى بلادنا ونخرجهم إذا قلت اطردهم . وإن قلت خلوهم خليناهم . وأنت أنكرت علينا بسببهم فاغفر لنا هذا الذنب حتى لا تبقى علينا خطيئة واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت .

كلام آخر : السلام يا منصور اسمع يا سلطان مصر . نصرك الله . أعطى البطريرك الدستور يبعث لى أسقفاً فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم والرسم الذى لك والتقدمة . أنا أعطيك أن سيرت لى أسقف . وإذا سيرته أنا أنقص منه عن رسمك ومهما قال فعاته .

(٦)

كتاب من البابا بطرس الجاولى إلى إمبراطور إتيوبيا تاريخه ٢٤ طوبة

سنة ١٥٤١ ش .

من بطرس عبد الله المدعو بنعمته القائم الآن بمشيئته في خدمة الكرسي
المرقسى بالإسكندرية والمدينة الأورشليمية والديار المصرية والأقاليم الحبشية
والبلاد المجاورة .

سلام الله القدوس . الخاضع لعزته وجلاله وعظمته الرئيس والمرعوس .
يحمل ويتضاعف . ويزداد ويترادف . ويشمل ذات الأخ الحبيب . والمحل
الشريف العالى . الملكى . ملك ملوك الجيوش النجاشية . والحامى بصوارم
سلطانه الممالك الحامية . الملك البار . الحب المختار . كيكار^(١) تاج الأمم
النصرانية . وفخر بنى المعمودية . أدام الله تعالى أيامه . وأيد نصره ورفع
أعلامه . وشمل محله بالبركات السبائية وسوانج الأنعام الإلهية . بطلبات من
قبلت طلباتهم . آمين .

إنه فى إبرك وقت . واشرق ساعة . قد حضر إلينا فى جهادى الأولى
سنة ١٢٤٠ هلالية كتابكم المؤرخ فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٣٧ هلالية .
يتضمن اعتقاد أمانتكم بتجسد ابن الله الكلمة الازلية بالجسد الذى اخذه من
الروح القدس ومن مريم العذراء . إنكم حكم قولكم الأبن الوحيد بدهن المسحة .
وأن اخانا المطران الذى توجه لكم لما منعكم من الاعتراف طلبتم أن نرسل لكم
وأحدأ خلافه يقول بقولكم . واعتقادكم هذا . وتقدمون لاعتقادكم الذى انتم
متمسكون به شهادات تفسيرها تجدونه مكتوباً فى روح الأمانة الواصل لكم .

(١) ربما كان هذا اسماً اشهر به .

والحال يا أخانا أن الآباء البطارقة والمطارنة والاساقفة من ابا (نا) مرقس الانجيلي إلى زماننا هذا . لم يقل أحد منهم (انه) أن الابن الوحيد بدهن المسحة ولا سمعنا أحداً من طوائف النصرانية جميعها تقول الابن الوحيد بدهن المسحة . بل الجميع يقولون إن الابن الوحيد مسح ناسوته بلاهوته . كما قال أبونا القديس اغريغوريوس الثاولوغوس . وصار مسيحاً من أحل اللاهوت إذ كانت هي المسحة للبشرية ولم تكن مسحة بفعل منفصل بحسب ما كان في غيره من المسيحيين بل كان من حضوره متصلاً لم ينفصل عن الماسح . وصار العقل لهذه المسحة إن الماسح إنساناً . ويجعل المسوح لها . وأيضاً نؤمن ونعترف أن ابن الله له ميلادان ميلاد من الله الأب قبل كل الدهور وميلاد آخر من القديسة مريم في آخر الزمان . وليس ينبغي إذن ان نفهم طبيعتين بل طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد ونؤمن ونعترف مثل الجامع المقدسة الثلاثة النيقاوى والقسطنطينى والافسسى .

وهذه صورة أمانتنا المرتبة من الجامع المذكورة

نؤمن بالله واحد . الله . الأب . ضابط الكل . خالق السماء والأرض . ما يرى وما لا يرى . نؤمن برب واحد . يسوع المسيح . ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور . نور من نور إله حق بن إله حق . مولود غير مخلوق . مساوٍ للأب في الجوهر . الذى به كان كل شئ . هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا . نزل من السماء . وتجسد من الروح القدس . ومن مريم العذراء . تأنس . وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى . تألم وقبر وقام في اليوم الثالث من بين الأموات . كما في الكتب . وصعد إلى السموات وجلس عن يمين أبيه في العلاء . وأيضاً يأتى في مجده ليدين الأحياء والأموات والذى ليس للملكة انقضاء

نعم ونؤمن بالروح القدس المحيي المنبثق من الأب نسجدله ونمجده مع
الأب والابن الناطق في الأنبياء . وبالواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية
الكنيسة .

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .

ونترجى قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى آمين .

هذه هي امانتنا من أيام مرقس الانجيلي إلى يومنا هذا وليس لنا مفاهيم
ولا أمانة غيرها . وارسلنا لكم عدة ادراج بها ولم نعلم إن كانت تصلكم أم لا .
أو تصل ولم ترجمون يغيرونها . وكذلك الجوابات التي تحضر من عندكم لنا
لم نعرف لها قاعدة . ولا نصا معتدلا ونحن غير عارفين إن كانت تلحظة حواراتكم
من المترجمين أو من عدم معرفة اللغة . فقد عرفنا كم السبب الذي صار به
الشك لكم . ولا جل كمال برهنة كلامنا المقدم شرحه واصل لكم درج مجموع
بالاختصار من كلام آبائنا الرسل والآباء الذين بعدهم عند وصوله عندكم تترجمونه
من اللغة العربية إلى الحبشية . ونظلمون عليه عامة الجيوش وجماعة العلماء بطرفكم
كما هو يعلمنا إن فيهم اناساً ذوى فهم وعلم بالكتب المقدسة عتيقة وحديثة
وكتب الآباء ويكون ذلك بحضور أخينا المكرم انبا كيرلس بعد صلحكم
معه صلحاً شافياً . تأ نذون منه الحل والبركة وتقبلونه كقبولنا عندكم . لانه
رجل صالح قديس . وخوا فهم وعلم بالكتب المقدسة . وتطيلون روحكم .
ويكون عندكم التأتى في ترجمة الدرج وجواباتنا الواصلة للحكم حتى تفهموا
ذلك جيداً إذا كان مصير عندكم وعند العموم الاقتناع بهذا الدرج فإن الله
تعالى يهديكم إلى ما يرضيه ويحببكم عما يفضبه ويكون لكم عوناً ومعيناً وحافظاً
وأميناً . وإن كان لم يصير عندكم الاقتناع بذلك لتمييزوا اثنين أو ثلاثة من
طرفكم ذوى فهم وعلم بالكتب المقدسة وارسلوهم ليحضرُوا اطرفنا . فنتكلم

معهم شفاهياً بالفهم حتى يقتنعوا بحضور صورة الأمانة وما يصير بيننا وبينهم
من القول وما ينتجه الكلام يصل لکم به کتاب تفهمون به كل شيء منه
تفصيلاً والله تعالى يثبتکم ويساعدکم ويدبر أمورکم وسلام الرب يحل علیکم
والبركة تشملکم.

تحريراً فی شهر طوبه سنة ١٥٤١

ص ٧ - ٥٣ من کتاب ذکرى مصالح عظیم . بقلم جرجس فيلوثاؤس عوض .

مکتبة معهد الدراسات القبطية رقم ٩٠٨٠

(٧)

كتاب إلى الابا سلامة الثالث في نفس التاريخ السابق.

حضر لنا جواب من أخينا كيكار سلطان الحبش يعرفنا فيه عن المتمسكين به في اعتقادهم في المسحة وغيرها . وانكم حرمتهم بسبب ذلك ويطلب إرسال مطران عوضكم يقول بأعتقاده . فأرسلنا له رد الجواب ودرج الامانة بما فيه الكفاية . عن رده عن اعتقاده حكم الدرج الذي ارسلناه لكم سابقاً وعرفناه في الجواب أن يصطليح معكم ومع كل القائمين في هواه . وبعد الصليح الشافي يترجمون درج الامانة من اللغة العربية إلى اللغة الحبشية ويقرأوه عليكم ويفهمون مضمونه فأن كان يقنعهم ذلك فإله يبارك وإن لم يقنعهم فبرسلوا جماعة من طرفهم ليأخذوا الأمانة منا مشافهة . وأما أنتم يا إخوانا فيحتاج الحال أن تحاولوهم ولا تقسوا عليهم بشيء لاهم ولا غيرهم . لأن الناحية التي انت مقيم فيها تشكو منكم بسبب الحرم والسفه والشتيمة والضرب . وكامل الذي اخبرناكم به في جواب الوزير فيحتاج الحال يا إخوانا ان تحال الجميع ولا يخرج من فيك إلى أحد بل البركة والدعاء الصالح . وتهذب اخلاقك معهم وتطول روحك عليهم في كامل الأمور لأن الكلام في الدور الديانة والأمانة لا يكون بالغترة والفظاظة والحروم بل يكون بالملاطفة والسياسة لأن آبانا القديس كيرلس لما تحرف أهل المشرق في امانتهم بسبب لغتهم وعدم فصاحتهم في المنطق وذرية اللسان . وعرف ابونا القديس ان انحرافهم بعدم المعرفة مال معهم في رأيهم وعرفهم أن امانتهم على الصحيح . ولما ركعوا اليه وزال نفورهم منه صار ابونا القديس يجذبهم اليه قليلا قليلا إلى أن عرفهم غلطهم فاعترفوا له بالشكر . انه صار خلاصهم على يده . كذلك أنتم يا إخوانا . كان يجب عليكم ان تصنعوا مثل ذلك . والمظنون يا أخانا تمشي على موجب جوابنا هذا أحسن

من الكلام الذى بصلنا كثيراً . والله تعالى يعينك ويساعدك ويدبر أمورك .
ويجعل خلاصهم على يدك . ويكون سعيك وكلامك مرضيين لديه ويجعل منك
ربنا العارة والثرمة .

الأبا سلامة الثالث هو الأسقف اندراوس عين مطرانا على اتيويا
سنة ١٨٤١ . وهو أحد تلاميذ المدرسة الانجائزية البروتستانتية في القاهرة .. وكان
يميل إلى المرسلين البروتستانت مع كرهة تغيير المذهب . وقد توفى في
السجن سنة ١٨٦٧

وكان الاحباش قد أرسلوا يشكون الأبا سلامة منذ سنة ١٥٣٩ يكتبين
ارسلهما الوزير Sebagedis أولهما مع من يدعى محمد الجبرتي والثاني مع يعقوب
القبطي .

(٨)

خطاب جلالة الإمبراطور منليك الثانى إلى غبطة البطريرك كيرلس الخامس يستأذنه فى أن يقوم الأسقف متاوس أسقف شوا بتتويجه

الأسد المنتصر الخارج من سبط يهوذا منليك الثانى المختار من الله ملك ملوك اتيوبيا .

اقبل أقدامكم وأطلب بركتكم التى تساعد الجميع . وشفاعة سيدتنا العذراء مريم والدة الإله ومساعدة القديس مرقس الإنجيلى . المجد لله الذى أوصلنا إلى هذه الساعة آمين .

الملك يوحنا توفاه الله فى ٢ برمات سنة ١٦٠٠ ولكن السيد المسيح جعل المملكة خاضعة لى الآن وإلى الأبد . وكان ذلك من غير سفك دم ولا حرب ولا ضرب بندقية . وهذا من مراحم الله . وشفاعة سيدتنا العذراء وبركة صلواتكم .

وحيث أن هذه إرادة الله قصدت أن أجرى على سنن الملوك المتقدمين فقلت لأبنكم الأنبا متاوس أن يمسحنى بدهن المسحة . كما كانت عادة آبائنا إلى الآن . فأجابنى أن الملك سبق أن كتب إلى البطريرك قبل رسامتنا أن تكون المسحة من حق المطران المقيم معه (الأنبا بطرس) أما أنا وأخوتى الأساقفة فحددوا لنا حدوداً أن لا نسمح للملوك الذين نذهب إليهم . فأجبتهم أن الحدود كانت يسبب كثرة الملوك فى الحبشة والغرض منها منع الحروب وسفك الدماء ولكن الحبشة مملكة عظيمة فكيف لا يكون لها . وإذا ملك عليها ملك . فكيف لا يسمح . فقال الأنبا متاوس أرسلوا إلى الآب البطريرك . وها أنا أكتب لقداستكم فى هذا الشأن . وتعلمون أن عادة آبائى الملوك المتقدمين أن

يمسحوا بيد أبائنا الروحانيين المرتسمين من الكرسي المرقسي . كذلك أنا
يارادة الله وبركة صلواتكم قد مسحت بيد ابنكم متاوس في ٢٥ باب سنة ١٦٠٦
بشفاعة والدته المخلص .

لا تظنوا أن مملكتنا مستحدثة أو صغيرة الأساس . بل أن ابتدائها
هو ملكة سبأ ومنها إلى أولادها إلى بنينهم من جيل إلى جيل إلى ابنكم منليك
الثاني وأسألكم بأبائنا أن تباركوا مملكتي وتباركوني أنا ابنكم الارثوذكسي
وأطلبوا من الله عنا وعن الشعب المسيحي أن يحطم قوة الأمم المحيطة بنا . ولا
تنسوننا في صلواتكم لأن صلاة البار تقتدر في فعلها وحين وصول هذا أرجو أن
ترسلوا لنا رداً :

(٩)

تقرير وضعه قداسة الحبر الجليل الأب كيرلس مطران الإمبراطورية
الأتيوبية ، وضعه قداسته عام ١٩٣٧ بعد عودته من مفاوضات مع عاهل
إيطاليا موسوليني بعد غزو إيطاليا للأراضي الأتيوبية وامتلاكها .

سفر الإمبراطور

قبل أن يغادر حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور البلاد الحبشية ، صارحنى
بقوله . أترغب أن تسافر إلـى مصر لتمكث بها شهرين أو ثلاثة إلى أن تهدأ
الحالة ثم تعود ثانية ؟ .

فأجبت جلالتـه : لـامانع عندى من أن أرافق جلالـكم ...

فقال وزير الخارجية الحبشية : أفضل أن يبقى نياقة المطران هنا بصفته
رئيس الكنيسة ، وليس له أى دخل بالسياسة .

ثم افترقنا ، ولما علمت بأنه مسافر أرسلت له مرة أخرى أحد الرهبان الذين
كانوا معى وهو القمص يعقوب لـأ تأكد من رأى جلالتـه وما يأمر بخصوص
سفرى معه ، فرد على الرسول المذكور بقوله : إن وزير الخارجية قد أقنع
جلالتـه بوجوب بقائى بالحبشة . وبناء عليه بقيت بأديس أبابا متكل على الله

وبعد سفر الإمبراطور قامت ثورة عنيفة فى البلد تخلفها حريق وسلب
ونهب ، وأصبحت المدينة كأنها ميدان قتال عنيف ، وكنا نتوقع الموت من ساعة
إلى أخرى وفى هذه الساعة أرسلت المفوضية الإنجليزية سيارة مسلحة لا توجه
بها إلـىها ، ولكننى فضلت أن أبقى بالمطرانية إلى أن يدبر الرب الأمر .

ولما اشتدت الحالة جاءنى رسول من قبل المفوضية الإنجليزية والقنصلية
(١٦ م -- إتيويا)

المصرية يقول : الحالة خطيرة ، ويجب أن اسير إلى المفوضية مع رجال القنصلية المصرية ، فخرجت بسيارة الطرانية وسرت بين نيران المدافع الرشاشة ، وتطاير الرصاص من الجانبين ، ولكن عناية الله لم تسمح بضررنا فوصلنا إلى المفوضية في سلام ، وكان بالمفوضية مئات من الناس على اختلاف أجناسهم وقد شعروا بضيق شديد .

ودعاني السفير البريطاني والسيدة عقيلته لأ مكث معها في بيتها فليت دعوتها الكريمة شاكرًا ، ومكثت أربعة أيام ضيفًا عليهما .

وبعد ذلك : دخل الجيش الإيطالي إلى أديس أبابا فكان لا بد لي من الرجوع إلى مركز الطرانية . وبعد يومين أرسل لي القائد العام المارشال بادوليو رسولًا يطلب مني مقابلته . وقد أحسن مقابلتي ورحب بي وقال لي : إنني مسرور بوجودكم في أديس أبابا . وهذا أمر نشكركم عليه . إنني مستعد لإتمام كل ما يعود لراحتكم من جميع الوجوه ، ولساعدتكم في كل مهام الكنيسة فإذا أردت أن تفتح مدارس أو تقوم بأي مشروع آخر ، فالحكومة الإيطالية مستعدة لأعطائكم كل ما يلزم فطلبت أن يترك الكنيسة حرة في كل شؤونها الدينية ومراقبتها الروحية ، فقال لي ماذا تطلب ؟ أجبت أنه أطلب وثيقة رسمية من الحكومة الإيطالية بضمان الحرية الدينية للكنيسة فوعدني بإجابة الطلب .

وبعد فترة قصيرة غادر المارشال بادوليو أديس أبابا وخلفه المارشال جرازاني فدعاني مرات متوالية . وطلب مني كتابة منشور للشعب بتوقيمي لكي تهدأ الحالة ويطمئن الشعب الاتيوني على مستقبله ويسالم الحكومة الإيطالية فطلبت أن يعطيني كتابة رسمية من الحكومة باستقلال الكنيسة ، كما

وعدنى الماريشال بادوليو ، حتى لا يكون هناك نزاع فيما بعد ، وحتى لا تنفجح السياسة في شؤون الكنيسة الروحية فوعدنى وعداً أكيداً بهذه الوثيقة ولكنه لم يف بوعده وصار بعد ذلك يلح على مرة بعد أخرى لأكتب له المنشور الذى طلبه منى ولكننى رفضت .

وظل يكرر على الطلب نفسه فكان جوابى لا يتغير كل مرة حتى عدل عن هذا الطلب ، ووجه نظره إلى نقطة أخرى هى انفصال الكنيسة الأثيوبية عن الكنيسة المصرية وعلى ذلك بأسباب كثيرة وقال إن مصر ليس لها شأن بالحبيشة الآن لأنها خاضعة لحكم الانجليز ، والانجليز أعداؤنا الألداء ونكرهم كراهة شديدة ولا نريد أن نشرك بلداً خاضعاً لهم فى البلد الذى أخذناه بسنك دماء أبنائنا . وإنى أؤكد لك أن خروجنا من روما لا سهل علينا من خروجنا من أديس أبابا لذلك أرجوكم الانفصال التام عن مصر حيث تكون لكم سلطة رئاسة الكنيسة دون أن يكون عليكم رئيس آخر ، ولكم أن ترسموا مطارنة وأساقفة وكهنة . ونحن نساعدكم بكل قوانا فى ذلك ونعطى لكم كل ماتطلبونه وتكون الحكومة رهن إشارتكم فى كل كبيرة وصغيرة .

فكان جوابى ، هذا مستحيل . ولا يمكننى أن أقبل ذلك قط ، ولا قبل لى أن أخون أمانة موضوعة فى عنقى ، ووكالة أؤتمنت عليها ، وحافظ عليها ١٤ مطرناً من قبلى ، وإنى أؤكد لكم أننى مستعد أن أتحمّل كل شيء من ضيق وحبس وجوع وأسر وغير ذلك ، ولا أقبل هذا مطلقاً . فقال لى ونحن أيضاً لا نقبل صلتكم بمصر مطلقاً ، وصار يردد لى هذه العبارة ويرسل لى الرسل ، ويمنى مرة بالوعد ، ويهددنى أخرى بالوعيد حتى إنه مرة جاء لزيارتى بصفة رسمية ومعه قوة هائلة من الجيش خيالة ومشاة ودبابات وأحاطوا بدار المطرانية ومكث هو معى مدة ساعتين وظل يكلمنى عن ضرورة انفصال الكنيسة

ووجوب ذهابنا إلى روما، فكان جوابي كالسابق، وصار بعد ذلك يهددني ومن وقت إلى آخر، (وحدث) أن دعاني ذات ليلة إلى غابة مخيفة، وعلى جانبي الطريق إليها صفت المدافع، وهددني بالموت إن لم أعترف بالإمبراطورية الإيطالية وإن لم أساعدها وأقبل أوامرها في الانفصال عن الكنيسة المصرية، فقلت له أنت تهدد رجلاً أعزلاً، لا جيش له ولا حول ولا قوة، فافعل ما تريد مر بقتلي، أما أنا فلا أقبل أمر الانفصال عن كنيسة مصر مهما كانت النتائج فما كان منه إلا أن قال: «إذن نرحىء حديثنا إلى وقت آخر».

وحضر إلى أديس أبابا وزير المستعمرات «لوسونا» وعلى أثر حضوره عقدوا اجتماعاً بسرأي الملك حضره الماريشال جرازيانى ووزير المستعمرات ورؤساء قواد الجيش وأستدعوني إلى هذا الاجتماع وأقفلوا الأبواب ووضعوا عليها حراساً وطلبوا منى إعلان انفصال الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية، وادعوا إدعاءات لم أعرف مدى صحتها عما حدث عند سفر غبطة البطريرك (الأنبا يؤانس) إلى النمسا للاستشفاء.

إذ قالوا أن البطريرك لم يرد أن يباحث ولا أن يخبر الحكومة الطليانية بخصوص الكنيسة في الحبشة وهذا دليل على أن البطريرك ليس معنا. وإذن يكون هو أيضاً عدواً لنا فلا نقبل أن يكون له صلة بكنيسة أثيوبيا من الآن فأنت يجب أن تطيع أوامر الحكومة الإيطالية، وتسلم تسليماً كاملاً بوجهة نظرنا وألا تكون عدواً للحكومة هنا، نخطبهم على الفور بدون خوف ولا وجل قائلًا: «إذا كان الأمر كذلك، وكان طلبكم هو انفصال الكنيسة الحبشية عن الكنيسة المصرية بحجة أن مصر تابعة للإنجليز وحضراتكم تقولون أن البطريرك تابع لهم. فتكون جميع الكنائس الخاضعة لسلطة البابا

وفي دائرة حكم الإنجليز أو غيرهم من الدول التي لاتحب الطليان أعداء لكم
يجب فصلها عن البابا .

فقالوا إن مركز البطريرك الأسكندري لا يعادل مركز البابا . فأجبتهم :
هذا عكس ما يقوله التاريخ . لأن لقب البابوية كان للبطريرك الاسكندري قبل
أن يطلق على باباروما ، وهذه مراكز دينية يجب أن يحفظ لكل كنيسة
معتقداتها وحقوقها . أما إذا كان الأمر للقوة فلتفعل القوة ما تشاء ، وأن
قرارى الأول والأخير هو أنتى لن أتنازل مطلقاً عن تبعيتى لكنيستى المصرية
القديمة العهد . وأنتى لا أقدر أن أكون ممثلاً ليهودا فى خيانة سيده . ولا أنزل
نفسى هذه المنزلة طمعاً فى حياتى الأرضية . لأن كل مافى العالم باطل وزائل .
ونهاية كل مافى الأرض للأرض .

ولما رأوا أن التهديد غير مجد حاولوا أن يستميلونى إلى جانبهم بالوسائل
المادية . فمثلاً كان وقتئذ قد تم بناء كنيسة كنا شيدناها بالمطرانية وكان قد بقى
من حسابها للقاول حوالى ٦٠٠٠ جنيه مصرى أو حوالى ٦٠٠٠٠٠ ستين ألف
ريال حبشى . فتعمدوا من تلقاء أنفسهم بدفع هذا المبلغ للقاول ، وغير هذا
كثير ، ولم ينقطعوا خلال ذلك عن المطالبة بالانفصال ولكن بلا جدوى .

وبعد ذلك عمدوا إلى وسائل النكاية ، فمثلاً بعد أن كان رئيس الكنيسة
الحبشية يجلس على يمين الملك أو الحاكم العام البلاد ، صار يجلس عن يمينه
القاصد الرسولى أو غيره من الكهنة الكاثوليك أو حتى من العلمانيين المنتمين
لمجلس الفاشست . . . وفى ذات يوم أرادت السلطة الإيطالية أن تعين بمقرقتها
رؤساء الكنائس ، وتجنح بحقوقنا الروحية الشرعية ! بسلب هذه السلطة
منا فعرفت نائب الملك أنه لا يجوز أن يعين أحد من رؤساء الكنائس لإدارة
شؤونها الروحية بمعرفة الحكومة ، وأنذرت الذين يريدون أن يأخذوا هذه
الوظائف بحرمانهم وفعلاً أوقف تعيينهم .

حادث القنابل

استمرت السلطة الإيطالية في مضايقتنا بشتى الطرق إلى أن وقعت حادثة القنابل التي ألقاها الأحباش للانتقام من أعدائهم وعلى رأسهم المارشال جرازباني فأصابته وأصابني معه شظاياها، ونقلت بسببها في حالة إغماء شديد إلى المطرانية ، لم أفق منه إلا عند غروب الشمس عندما صدر أمر السلطة العامة بنقلى إلى المستشفى الإيطالى لمعالجة هناك ، ولم أكن أعرف أن القصد من ذلك هو القضاء على ، لأن البعض من رجال الجيش اتهموى بتدبير هذه المكيدة ، وعولوا على قتلى وفعلاً أوعزوا ذلك إلى الطبيب الألماني الذى تولى معالجتي ولكن مراحم الإله لم تسمح بذلك إذ أظهرت براءتى وقد أكدلى الطبيب المعالج نفسه هذا بعد شفائى .

ونظراً لشدة ضعفى أشار علىّ الطبيب أن أسافر إلى مصر لتغيير الهواء ووافق المارشال على ذلك ، وفى منتصف الليل وافانى سكرتير نائب الملك وأخبرنى بأنه قد جاء أمر من روما بعدم سفرى إلى مصر. فقبلت ذلك راضياً غير أنهم عادوا فأبلغونى بضرورة سفرى إلى روما فرجوتهم أن يسمحوا لى عند وصولى إلى مصر بالنزول لمقابلة غبطة البطريرك فوافقوا مبدئياً ولكنهم عادوا فرفضوا .

ولا يفوتنى أن أذكر أن نائب الملك بعد أن ألححت مراراً كثيرة بحل مشكلة الكنيسة . قال لى بأنه لا يمكن حل هذه المشكلة إلا مع موسولينى نفسه، وعند ما حاولت النزول بمصر لم يسمحوا لى بذلك ، غير أن غبطتكم قد تفضلتم فأرسلتم وفدأ قابلنى بالسويس ،

مقابلة الدونشى بروما

وسافرت من السويس توأ إلى روما ، وعند ما وصلنا إلى نابولى استقبلنا

وفد من قبل الحكومة الإيطالية وكنت إذ ذاك معتل الصحة فاضطروا أن يحضروا لى طبيباً كان يعودنى بالفندق الذى نزلت فيه ، وبعد انقضاء يومين فى نابولى صدر الأمر بسفرنا إلى روما حيث أعدوا لنزلنا مكاناً فخماً واحضروا لنا طبيباً كبيراً ، فأفهم الطبيب ولاية الأمور أن الفندق لا يوافق صحتى فأمروا بنقلى الى مصحة داخل البلاد ولكنى رفضت . فنقلونى الى لوكانده أكبر أفردوا لى فيها جناحاً خاصاً ، وهتالا مكثت أسبوعاً كاملاً كان الطبيب يتردد على خلاله من وقت لآخر .

وحدد لى موعد لمقابلة موسولينى وقابلنى بشدة وعنف مظهرأصوله رهيبه ولكنى كنت هادئاً مطمئناً ، وكان معه وزير المستعمرات لوسونو وبعد برهة فتح الحديث بسؤالى عن سبب حضورى .

فأجبتة بأننى دعيت من قبل الحكومة الإيطالية لمقابلتكم وعرض حالة الكنيسة فى أثيوبيا عليكم . ولن يحل مشكلتها غيركم .

فأجاب (لقد تعارفنا اليوم وإن شاء الله سنتحدث مع بعضنا فى هذا الموضوع فى المرة التالية) ولما هممت بالانصراف قام بتوديعى إلى الباب

فى دار المجلس الفاشستى الأعلى

وصار الدوتشى يرسل لنا رسله لمفاوضتنا فى أمر انفصال الكنيسة الحبشية عن أمها القبطية . فكنت أقرر لهم فى تأكيد استحالة الانفصال وعدم استطاعتى الإقدام عليه .

فدعانى رئيس المجلس الفاشستى الأعلى الى حفلة فى داره الخاصة وقوبلت بحفاوة وترحاب ، وألقى بعضهم خطاب الترحيب بقدمى خلال الميكروفونات . وأخذت عدة صور لذلك الحفل الكبير ، وبعد الانتهاء من الخطب والتصوير ألحوا على أن أنكلم بما يوحيه إلى ضميرى فقلت : لقد جئت الى هنا بناء

على دعوة الحكومة الإيطالية ، لحل مشاكل الكنيسة الحبشية الموجودة الآن كما أنى أحمل وعداً من نائب الملك بحل هذه 'شكلة' . وأرجو أن تعمل الحكومة الإيطالية على صيانة حرية العبادة في كنيسة الحبشة وتتيح لها حرية التصرف في شؤونها الدينية فلا دخل للكنيسة في السياسة ولا يجب ان تتدخل السياسة في شؤون الكنيسة الروحية . هذا من جهة . ومن الجهة الأخرى لا يمكننى أن أوافق على انفصال كنيسة إتيوبيا عن الكنيسة المصرية ، لأن إتصالها قديم العهد ، وإننى أقرر الآن ماسبق أن قلته لنائب الملك ولوزير المستعمرات في اديس ابابا وهو أننى لن أخون الأمانة التى أودعت الى من قبل رئاسة الكنيسة القبطية ، وإننى مازلت متمسكا بهذه العلاقة الوطيدة التى ظلت ثابتة منذ العصور الغابرة .

وما كدت أنتهى من كلمتى حتى انفض المجلس وتركنى وشأنى فرجعت الى محل إقامتى ، ثم علمت من مصادر شتى أنهم يريدون أن يعيدونى بالقوة الى إتيوبيا ليمثلوا بى كما مثلوا بأحد الأساقفة الذى عينوه من قبلهم بقوة الحكومة ، فلما وقفت على نية القوم طلبت زيارة الوزير المفوض المصرى فى روما ، وكان فى ذلك الوقت سعادة مصطفى الصادق بك وأفهمته أن يخبر الحكومة المصرية فى شأن عودتى إلى مصر وإن لم يفعل فأنى مضطر الى مغادرة الفندق والإقامة فى المفوضية المصرية الى أن يبت فى الأمر . وفعلا أجاب طلبى وقدم تقريراً للحكومة المصرية طالباً النظر فى مسألتى وجرى المفاوضات بين الحكومتين الإيطالية والمصرية الى أن انتهى الأمر بعودتى إلى مصر .

زيارات ومقابلات

وفى أثناء وجودى فى روما طلب منى زيارة البابا فلم أقبل ذلك ، نظراً لعدم تصريحهم لى بمقابلة بابا وبطريك الاسكندرية ورئيس كنيستنا الأكبر .

وقابلت جلالة ملك إيطاليا ، فكانت مقابلته لى حسنة . وشخصية بمحة
كما أنتى زرت كنيسة مار بطرس وبعض الكنائس الأخرى ونظراً لأن
صحى فى ذلك الوقت لم تكن على مايرام ، فقد اكتفيت بذلك ، مع أنهم
سهلوا لى جميع طرق المواصلات .

وأخير أبلغونى أنه اذا كنت أريد السفر الى مصر فلا مانع عندهم بعد
أن طلب منى أن أمكث مدة فى إيطاليا إذا رغبت ذلك .

العودة الى مصر

وعدت الى مصر وأنا أشكر الله الذى أهدنى من شدائد كانت
تكفى وتهدد حياتى .

واننى فى الختام يا صاحب القبطة كتبت هذا التقرير لاسعياً وراء شكر
ولا طمعاً فى مديح من الناس ، أكلبروساً أو شعباً ، لأننى أشعر فى قرارة
نفسى بأننى لم أقم إلا بما يفرضه الواجب المقدس على ، وبما تقتضيه الأمانة التى
تسلمتها من الله على يديكم ، والوكالة التى أقت عليها وحسبتها وديعة يجب أن
أكون أميناً عليها ، ولأأكون خائفاً لكليستى المقدسة التى تأسست على
دماء أبنائها الشهداء الأطهار ، وحماها الأبرار ، واننى كنت أشعر فى كل
آونة بضرورة الاحتفاظ بهذه الوديعة بالحياة إذا لزم الأمر ذلك . ولعظمته
الشكر دائماً .

(١٠)

اتفاقية بروتوكول

بين الكنيستين المصرية والاتيوية

لما كان أسمى هدف لأبناء الكرازة المرقسية هو تنظيم شئون الكرازة وتعزيز الروابط التقليدية بين أقاليمها ، فقد وجد من الضروري اتخاذ كل التدابير اللازمة لبلوغ هذه الغاية . . على أن يبدأ بالأكثر أهمية وهو تنسيق العلاقة بين كنيسة القديس مار مرقس بمصر واتيويا .

(وفي سبيل ذلك) تم الوصول إلى الاتفاق الآتى بين :

(أ) الوفد الاتيوي المكون من ممثلى صاحب الجلالة إمبراطور اتيويا وممثل الكنيسة الاتيوية .

(ب) الوفد القبطى المعين من قبل صاحب القداسة بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية .
ورفع لتصديق قداسته .

١ — بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية خليفة القديس مرقس الانجيلي هو الآب الروحى الأعلى لكنيسة القديس مرقس بأتيويا ، يجب أن يكون على الدوام قبطياً مصرياً من أبوين مصريين ، مقره الدائم كرسى الاسكندرية فى الأقليم المصرى ، وسلطانه مضمون وشخصه فوق أى تجريح .

يذكر اسم بابا الاسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية فى كافة القداسات والصلوات بأتيويا .

تكون زيارة بابا الاسكندرية لاتيويا موضع الترحيب ويقابل قداسته بجميع مظاهر التكريم والتبجيل الجديرة بمركزه السامى باعتباره الأول فى الكنيسة .

٢ — يشترك ممثلون عن اتيويا بعدد محدود مع الناضحين المصريين في انتخاب خليفة القديس مرقس ويحدد عددهم قداسة البابا .

٣ — يجب أن يكون قائمقام الكرازة المرقسية على الدوام قبطياً مصرياً من أبوين مصريين .

٤ — يرفع مركز مطران (ليقاباباسات) « الكنيسة الأرثوذكسية للدولة الاثيوبية » وهو خليفة القديس تكلا هيمانوت إلى مركز بطريرك جاثليق (أى رئيساً ليقانا باباسات) ويختار وفقاً لقوانين وتقاليد كرسى القديس مرقس بالاسكندرية من بين الرهبان الاثيوبيين الذين لا تعلق رتبهم عن درجة القمص وهو المبدأ المعمول به أيضاً فى سائر الكرازة المرقسية .

٥ — عندما يتم اختيار بطريرك جاثليق (رئيساً ليقانا باباسات) الكنيسة الإثيوبية وفقاً لقانون الكنيسة . وعندما يعتمد هذا الاختيار ويصدق عليه من صاحب الجلالة إمبراطور إتيويا تجرى سيامته وتنصيبه وفقاً لقانون الكنيسة على يد البابا والبطريرك الجالس على الكرسى السكندرى للقديس مرقس .

٦ — يؤذن لبطريرك جاثليق (رئيساً ليقانا باباسات) إتيويا بسيامة مطارنة وأساقفة على الأمكنة التى تستلزمها حاجة كنيسة إتيويا ، على أنه يجب أساسياً قبل سيامتهم أن يقطع المطارنة والأساقفة المنتخبون على أنفسهم العهد الكتابى الملحق بهذا .

ويرسل هذا القسم الموقع منهم إلى بابا الاسكندرية و بطريرك الكرازة المرقسية فوراً بعد اعتماد انتخابهم من صاحب الجلالة إمبراطور إتيويا .

٧ — ولكى يعتمد البابا تسجيلهم رسمياً يرسل بطريرك جاثليق (رئيساً ليقانا باباسات) إتيويا مع هذا القسم الموقع منهم تاريخ حياة المطارنة والأساقفة والبيانات الخاصة بهم وبايراشياتهم .

ويأمر البابا بإرسال تاريخ حياة المطارنة وأساقفة الكرازة المرقسية مع ذكر ابراشياتهم إلى جميع أقاليم الكرازة .

٨ — كلما رأى البابا أن يعقد اجتماعاً لمعالجة المواضيع المتعلقة بالعتيدة أو الأمور التي تمس عموم كرازة القديس مرقس يحيط بطريرك جاثليق (رؤسا ليقانا باباسات) إتيوبيا علماً بذلك ويؤلف قداسته مجمعاً مقدساً عاماً من بين مطارنه وأساقفة المجمع المقدس المصرى وسائر المجمع المقدسة الإقليمية بالكرازة المرقسية للفصل فى هذا المسائل .

وكما أثير أمر يمس شخصية بابا الاسكندرية و بطريرك الكرازة المرقسية أو ينال من قداسته يختص هذا المجمع المقدس أيضاً بالفصل فى ذلك .

٩ — يحتل بطريرك جاثليق (رؤسا ليقانا باباسات) إتيوبيا فى أثناء حياة بابا الاسكندرية و بطريرك الكرازة المرقسية المركز الثانى فى المنزلة بعد البابا

وفى حاله نياحة البابا يحتل بطريرك جاثليق (رؤسا ليقانا باباسات) المركز الثانى فى المنزلة بعد قائم مقام الكرازة المرقسية .

١٠ — توثيقاً لدوام الصلات الروحية القائمة بين كنيسة مصر وكنيسة إتيوبيا سيجرى فى مجال التعليم الدينى تبادل فى الأساتذة والطلبة .

وبالمثل فيما يخص حياة الرهبنة سيجرى تبادل فى الرهبان .

١١ — تخضع الأمور الآتية لمشاورات مقبلة بين قدااسة البابا و بطريرك جاثليق (رؤسا ليقانا باباسات) إتيوبيا .

(١) لتقرير إنشاء ابراشيات جديدة للكرازة المرقسية خارج الأقاليم القائمة حالياً التى ستظل لشاغليها، وسيامة مطارنة وأساقفة لتلك الابراشيات الجديدة كلما أثير هذا الأمر من جانب بطريرك جاثليق (رؤسا ليقانا باباسات إتيوبيا .)

(ب) إنشاء لجان خاصة لدراسة الشؤون المتعلقة بالهضة الروحية والدراسات الدينية وتنظيم البعثات .

١٢ — تلقى جميع الأحكام التى تضمنتها قرارات الجمع المقدس وخاصة منها قرارات يوليو سنة ١٩٥٨ التى لا تتماشى مع الاتفاقية الحالية .

القاهرة فى ٢٥ يونيو سنة ١٩٥٩ ١٨ بؤونة سنة ١٦٧٥
١٨ سنى سنة ١٩٥١

الوفد الإتيوبي :

سمو الـداجازمتش أسرات كاسا نائب رئيس مجلس الشيوخ الإتيوبي
رئيس الوفد .

نيافة الأنبا تاوفياس مطران هرر .

سعادة بلاتا مرسى حزن عضو مجلس الشيوخ .

الوفد القبطى :

نيافة الأنبا لوكاس مطران منفوط

نيافة الأنبا يوانس مطران الخرطوم

نيافة الأنبا باسيليوس مطران أورشليم والشرق الأدنى

السيد / يوسف سعد وزير سابق ووكيل المجلس للملى

السيد / عدلى أندراوس سفير سابق فى باريس

السيد / ديمترى رزق سفير سابق فى براج

الدكتور مراد كامل أستاذ بجامعة القاهرة

القمص مكارى السريانى

ملحق المادة ٦

باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد .
أتعهد أنا بأن أظل أميناً لعقيدتي وإيماني القبطي
الأرثوذكسي إيمان كنيسة الاسكندرية وكرسي القديس مرقس الإنجيلي .
وأتعهد أن أحترم قوانين كنيستنا التي انتقلت إلينا من الرسل وخلفائهم
القديسين الثمثة والثمانية عشر المجتمعين بنقيا ، وآباء الكنيسة ، وأن أجعل
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ، خليفة القديس مرقس
وأن أعتبره بابانا .
وقد عاهدت نفسي أن لا أشارك في سيامة بطريرك لإتيوبيا ، أو أى
بطريرك آخر ، دون موافقة واعتماد قداسة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة
المرقسية . وأعد أن أظل وفياً لمهدى أمام الله والكنيسة .

(١١)

ملوك الأسرة الأجنبية

كاتذ كرم وثائق دير دبرا اليبانوس		كاتذ كرم وثائق المتحف البريطانى	
سنة		سنة	
١ -	تكلا هيانوت	٣	تكلا هيانوت
٢ -	جان شيوم	٤٠	توثاوم
٣ -	جرما شيوم	٤٠	جان شيوم
٤ -	جحصار ودم	٤٠	جرما ودم
٥ -	تمراى	٤٠	يمرخنا كرسثوس
٦ -	جبرا مريم	٤٠	قديس حربى
٧ -	لاليبالا	٤٠	لاليبالا
٨ -	نكويتا لآب	٤٨	نكويتا لآب
٩ -	يتبارك	٤٠	يتبارك
		١٥	فابرارى
		٨	حربى
	المجموع	٣٥٤	المجموع

کا ذکر ہم باسیہ

محبرودم

اصباحیون

صنفاواعد

نجاش زاری اصنفا

يعقوب

کا ذکر ہم بروس

وثنیون

توبا حو دم

جان شیوم

جاریماشیوم

حربی

ما برای

مسیحیون

تکلا هیانوت

قدیس حربی

یتبارک

لالیبالا

یمرخنا کرسٹوس

نکویناآب

بحر اسجد

ودم اکبر

ملوك القرنين الخامس والسادس كما جاءت في كبرانيجست
دون ذكر لسنى حكمهم

(۱) قسطنطنوس	(۱۲) ثم
(۲) وسن سجد	(۱۳) تالارتم
(۳) فيرشانای	(۱۴) اودا جوسن
(۴) اورياس	(۱۵) ايزور
(۵) اگلا ودم	(۱۶) ودم
(۶) جرما سفر	(۱۷) ودم
(۷) زرجاز	(۱۸) ودم اصفرا
(۸) وجناميكا ئيل	(۱۹) ارماه
(۹) بهر اكلا	(۲۰) دجنا چان
(۱۰) چوم	(۲۱) انيسا
(۱۱) اسبجونجم	(۲۲) دلنماد

مصادر البحث

- (١) ابن الأثير أبو الحسن على
الكامل في التاريخ طبعة دار الكتب سنة ١٩٣٢
- (٢) ابن عبد القادر شهاب الدين بن أحمد .
فتوح الحبشة كامبردج سنة ١٨٩٥
- (٣) ابن المقفع ساويرس
تاريخ البطارقة مخطوطة بمكتبة المتحف القبطي رقم ١٢
- (٤) أبو صالح الأرمني
الكنائس والأديرة في مصر والبلاد المجاورة القاهرة سنة ١٨٩٥
- (٥) حسن إبراهيم حسن
تاريخ الإسلام السياسي القاهرة ١٩٣٢
- (٦) الحيمي حسن بن أحمد : سيرة الحبشة القاهرة سنة ١٩٥٨
- (٧) زاهر رياض استعمار القارة الإفريقية واستقلالها
- (٨) » » الدستور الإتيوبي
- (٩) » » قصة ملكة سبأ بين الأسطوره والتاريخ القاهرة ١٩٦٠
- (١٠) محمد عوض محمد : نهر النيل القاهرة ١٩٥٢
- (١١) مراد كامل في بلاد النجاشي القاهرة سنة ١٩٥٩
- (١٢) المقزى تقي الدين أحمد بن على
الإمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام مصر سنة ١٨٩٥
- (١٣) يوسف جرجس
الرحلة البطركية إلى الإمبراطورية الإتيوبية مصر سنة ١٩٢٩

13. Bruce, James; *Travels to Discover the Sources of the Nile*, London 1804.
14. Budge, Wallis; *History of Ethiopia*, London 1929.
15. ; *The Queen of Sheba*, London 1922.
16. Coulbeau; *Histoire Politique et Religieuse de l'Abyssinie* Paris 1929.
17. Diet; *Les Relations Egypte-Abyssinie sous les Sultans Mamloukes*
18. Doresses, Jean; *Le Prêtre Jean*, Paris 1957.
19. Geddes; *The Church History of Ethiopia*, London 1698.
20. Kamerer; *La Mer Rouge*, Le Caire 1929.
21. Luca dei Sabelli; *Storia d'Abissinia*, Rome IXV.
22. Luther, Ernest; *Ethiopia To-Day*, London 1958.
23. Mathew, David; *Ethiopia*, London 1948.
24. Morié; *Histoire de l'Ethiopie*, Paris 1904.
25. Pankhurst, Sylvia; *Ethiopia*, Essex 1955.
26. Perham, Mergery; *Government of Ethiopia*, London 1938.
27. Stanley Lane-Pool; *History of Egypt in the Middle Ages*, London 1901.
28. Stephen Langrigg; *A Short History of Eritrea*, Oxford 1945
29. Trimingham, Spencer; *Islam in Ethiopia*, Oxford 1948.
30. Ya Ethiopia Hag Mangest; *(the Ethiopian Constitution)*. Addis Abeba 1955.
31. Yuna Buggala & Murad Kamel; *Ya Portugalutch Djagenanant (Amharic)*, Addis Abeba 1945.
32. *Ethiopia Review*; An English Monthly Review Published in Addis Abeba.
33. *Ethiopia Observer*; An English Monthly Review Published in London and Addis Abeba.
34. *Nagarist Gazzette*; The Official Journal of the Ethiopian Government Published Weekly in Addis Abeba,

فهرست

صفحة

مقدمة	٥
الفصل الأول :	
البلاد وسكانها	٧
الفصل الثانى :	
إتيوبيا حتى ظهور الإسلام	٢٥
الفصل الثالث :	
من ظهور الإسلام حتى قيام الأسرة السلمانية .	٤٩
الفصل الرابع :	
الأسرة السلمانية	٦٧
الفصل الخامس :	
عصر الفوضى	١٠٥
الفصل السادس :	
إتيوبيا فى العصر الحديث .	١٢٥
الفصل السابع :	
الاعتداء الايطالى	١٤١
الفصل الثامن :	
عودة إتيوبيا المستقلة	١٦٣

صفحة

الفصل التاسع :

الكنيسة ١٨٨

الفصل العاشر :

أرثريا ٢١٣

الفصل الحادى عشر :

تطور العلاقات بين مصر وإثيوبيا ٢٢٥

ملاحق ٢٣٩

